

العرب والتخندق

د. محمد عمارة

١٣١٩
عكا

مصلحة كتب ثقافية شهيرة يصدرها للعلماء الوطنيين للثقافة والفنون والأدب الكويت

العرب والتخدي

د. محمد عمار


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

٢٩ - جمادى الآخرة / رجب ١٤٠٠ هـ - مايو (أيار) ١٩٨٠ م

المشرف العام
أحمد ماري العدواني

الأمين العام للمجلس

نائب المشرف العام
خليفة الوقيان

هيئة التحرير :

- د. فؤاد زكريا "المشار"
- زهير الكرمي
- د. سليمان الشطي
- د. شاكر مصطفى
- صديق حطاب
- د. عبد الرزاق العدواني
- د. علي الراعي
- د. فاروق العمر
- د. محمد الرميحي

الملاحظات :

تم تصحيح النسخة الأصلية العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص.ب. ٩٣٩٩١ الكويت

— العرب والهندی —

● ● المراد المنشرة في هذه السلسلة تقرير عن رأي
كاتبها ، ولا تقرير بالضرورة عن رأي المجامع

نادرة هي تلك الحالات التي تشبه حال الأمة العربية في صراعها الطويل والحضارى والدائم مع التحديات التي فرضت عليها.. وأندر من ذلك وجود حالة خرجت فيها أمة أخرى، غير هذه الأمة، من مثل صراعها هذا مع تلك التحديات دون أن تفنى أو تمسخ هويتها الحضارية وتنطمس معالمها القومية فتصبح امتداداً هامشياً أو ذليلاً لأعدائها الذين فرضوا عليها ما فرضوا من تحديات..

فعندما ينظر المرء، اليوم، الى خريطة الكوكب الذى نعيش فيه، ويتجاوز عن خطوط الحدود السياسية التى تمثل الدول - وهي تقترب من المائتين - ثم يبحث عن الأمم ذات الحضارات المتميزة، فإن الرقم، ولا شك، لن يبلغ عدد اصابع اليدين بحال من الأحوال!.. فاذا ما ذهب المرء ليعيد النظر في أمم هذه الحضارات ذات القسمات المتميزة، باحثاً عن تلك الأمم التى امتلكت حضارتها المتميزة هذه منذ زمن طويل ووقت موغل في التاريخ؟.. فإن العدد سيهبط كثيراً، مرة أخرى!.. فاذا ما أرجع البصر والبصيرة، كرة أخرى، فتساءل: من من هذه الأمم، ذات الحضارة المتميزة، والعمق التاريخى المتحضر، قد امتازت حضارتها، تاريخياً، بتغدى الحدود الجغرافية لدول هذه الأمة وامبراطوريتها؟.. فإن العدد سيهبط مرة ثالثة!.. فاذا ما تساءل، مرة رابعة، وأخيرة: أية أمة من بين هذه الأمم العربية فى التحضر، وصاحبة الحضارة المتميزة، وذات العطاء العالمى، تمتلك اليوم، وغداً، أن تعود الى ساحة الحياة الانسانية فتعطى عطاءها الحضارى الانسانى من جديد؟.. هبط العدد، واقترب من الحد الأدنى للأعداد!.. وأيضاً.. فأننا لابد واجدون الأمة العربية واحدة من أمم هذا العدد القليل!..

فحضارة هذه الأمة، وهى الحضارة العربية الاسلامية، قد تبلورت

واكتسبت طابعها المتميز وسماتها الخاصة، بعد سنين غير قليلة من ظهور الاسلام وما انجزته الفتوحات العربية على الجبهة السياسية، وما تم للمنطقة من توحيد، أو تقارب، عقلي وفكري تم انجازه بعد أن اكتمل لأهلها التعريب.. لكن ذلك الميلاد لم يكن نقطة البدء، وإنما كان طوراً جديداً ومتميزاً في تطور حضارى قديم. فشعوب هذه المنطقة جميعاً، بعقائدها الدينية المختلفة، وأصولها الحضارية المتميزة، قد أسهمت أسهاماً خلاقاً في صياغة هذه الحضارة العربية الاسلامية، ولم يكن نصيب الذين هاجروا من شبه الجزيرة الى المواطن التي تعربت، لم يكن نصيبهم في هذه الحضارة بأكبر من نصيب الآخرين. بل لقد اتاح الفاتحون العرب بتمييزهم بين ما هو «دولة» أقامها جيش فاتح في وقت قصير، على نحو قياسي غير مسبوق في التاريخ.. وبين ما هو «تعريب» وامتزاج مع أهل البلاد المفتوحة، فكراً وحضارياً، وهو الأمر الذي استغرق عدة قرون.. اتاح ذلك أن يتم الانجاز الثاني بشكل بطيء، أى طبعى.. ومن هنا كانت الثمرة الجديدة، وهى الحضارة العربية الاسلامية، محصلة للفكر العربى الشاب والمجدد الذى تمثل في الاسلام، وللقيم والأفكار التى ظلت صالحة للنفع والعطاء والاستلهام من موارث الأمم والشعوب التى دخلت في الدولة التى صنعتها الفتوحات.. الأمر الذى جعل هذه الحضارة الجديدة حلقة في سلسلة قديمة وعريقة، هى سلسلة التطور الحضارى لهذه المنطقة، وجعلها، كذلك الوارثة لما سبقها من حضارات أبدعتها شعوب هذه المنطقة، والامتداد المتطور لها.. ومن ثم فلم يكن تبلورها ميلاد حضارة جديدة، بقدر ما كان طوراً جديداً في مسار حضارى قديم وعريق، سبقت بداياته أية نشأة لأية حضارة أخرى على هذا الكوكب الذى نعيش فيه.

وإذا كانت أمم قليلة جداً تماثل أمتنا في عراقة الحضارة واكتسابها

طابعها يميزها عن غيرها من الحضارات، مثل الحضارة الصينية والهندية واليونانية، فإن من هذه الحضارات من تخلت عنها أمتها، مثل الحضارة اليونانية، فسماتها المتميزة لم تعد ملحوظة اليوم، بل ومنذ أن لعبت دورها في البعث الأوروبي الحديث، لقد غدت تراثا لعب دوره في عصر الأحياء، وتجاوزته الحضارة الأوروبية المعاصرة.. أما الحضارتان الصينية والهندية، فهما وإن شاركتا الحضارة العربية في العراق، وفي احتفاظها بما يميزهما من سمات، وفي وجود أمة عظيمة، لكل واحدة منها، تنطبع بطابعها، وتمنحها المحبة والولاء.. إلا أن الحضارة العربية تتميز عنها بطابعها العالمي وعطائها الإنساني اللذين تمثلان في الدور الذي قامت به عندما كانت لأمتها كلمة مسموعة ودور بارز في الساحة الدولية، وهو اختبار نجحت فيه، يترجم عن خصائص ومميزات قد لا تكون في حضارات أخرى ويقوم شاهدا على أن ما حدث بالأمس ليس بعزيز أن يحدث في الغد، إذا ما توافرت الشروط ولا غمت الظروف وأعانت الملائمات!..

والأمر الذي يجعل عودة هذه الحضارة إلى الساحة الدولية والإنسانية، مرة أخرى، أمرا ممكنا، لتسهم بعطائها الحضاري المتميز في تجديد حضارة الإنسان وتطويرها، رغم الكاehl العربي الثقيل بمواريث التخلف والقصور، ورغم التحديات التي فرضتها على العرب صراعات العصر الذي نعيشه، إن تلك التحديات، والصورة المؤسسية والمأساوية صنعتها وتصنعها بواقعنا الراهن، ليست جديدة على هذه الأمة، فلها معها تاريخ، ولها في تراثها تراث؟! ومع ذلك، وبالرغم منه صنعت هذه الأمة ما صنعت، وأعطت ما أعطت، وتحدثت من وما تحدثت.. وظلت قائمة ومستمرة، بل وحية!.. بل لعل في تداعى الأعداء عليها، واستمرارهم في التداعى والاعتداء، وعل في عنف التحديات وكثرتها: السبب والشاهد والدليل على

الأصالة، والصلاحية الدائمة والمتجددة للعطاء الدائم والمتجدد.. فقط علينا أن نعي أنه إذا كان أعداء هذه الأمة، بما فرضوا و يفرضون عليها من تحديات يريدون مسح هويتها الحضارية المتميزة، والحيلولة دون امتلاكها شروط العودة مرة أخرى الى الساحة الدولية والانسانية قوة حضارية ذات عطاء حضارى متميز.. اذا كان هذا هو أمر الأعداء، فان علينا أن نعي قانون صراع هذه الأمة، تاريخيا، مع التحديات التي فرضها على اسلافنا اسلاف هؤلاء الأعداء، فلقد نجد في هذا القانون مايعين عرب اليوم والغد على الافلات من القيد وكسر عنق الزجاجة وتجاوز الطريق المسدود، كما اعان القانونون عرب الأمس على ذلك.. ومن ثم نفتح الطريق لأمتنا كي تصنع اليوم وغدا مايجعلنا، بحق، خير خلف لهؤلاء الأسلاف العظام.

ولقد يكون مفيدا، بل وضروريا، أن نضع امام العقل العربي المعاصر اجابة موضوعية على هذا السؤال :

• لماذا كانت : قديمة ، وشديدة ، ومتنوعة ، ودائمة تلك التحديات التي فرضها أعداء كثيرون على هذه الأمة عبر تاريخها الطويل ؟!

فالفرس ، منذ ما قبل الاسلام، بل ومنذ ما قبل الميلاد ، عاثت جيوشهم في المنطقة، وعبث أكاسرتهم بمقدراتها وامكانياتها وخصائصها.. وبلغوا بذلك قلب مصر حيناً، وأرض اليمن احيانا، وسواد العراق في اغلب الأحيان.

والاغريق والروم البيزنطيون صنعوا ذلك أيضا، فشملت سيطرتهم سواد المنطقة حيناً، واستقرت بمصر والشام في أغلب الأحيان.

وحق الأحمش، من بني يكسوم ، صنعوا ذلك مع اليمن، بل وكادوا

أن ينجحوا حتى في احتواء القلب الصحراوي المقفر - وسط شبه الجزيرة -
وهو الذئ ظل بم عزل عن احتواء الغزاة وسيطرة المحتلين.. كادوا أن ينجحوا
في ذلك في غزوة الفيل !!..

ولقد أتى على اسلاف هذه الأمة حين من الدهر فرض فيه الفرس
نفوذهم على بوابتها الشرقية : العراق والخليج، واتخذوا قطاعا من ابنائها،
وهم اللخميون، سكان الحيرة، أتباعا وجندا جعلوا منهم وقودا في صراعهم
الطويل ضد الاغريق والرومان البيزنطيين (٤٩٠ ق.م - ٦٢٧ م)!!.. وفي
نفس هذا الحين من الدهر فرض الاغريق، فالروم البيزنطيون سلطانهم على
وسط هذه الأمة وقلبها: مصر، والشام، واتخذوا من عرب الشام الغساسنة
أتباعا وجندا جعلوا منهم وقودا في صراعهم مع الفرس، حتى لقد قتل العرب
بعضهم بعضا قرب اثينا، وعلى الدردنيل، وفي مصر والقدس ودمشق
وانطاكية ونيوى، لحساب كل من الفرس والروم!!.. وفي ذات الحين من
الدهر فرض الأحباش سلطانهم على عرب اليمن الحميريين في الجنوب!!..
هكذا من الشرق والغرب والشمال والجنوب، ولم يبق بمنجى من الغزو
والاحتواء سوى ذلك القلب القفر الموحش: وسط شبه الجزيرة، الذي
استعصى على الغزو حيناً، وصرف فقره الغزاة عنه حيناً آخر.. وصدق الله
العظيم عندما يصور العرب يومئذ بالفريسة المرتعدة المرتجفة من المنقضين عليها
كالطيور الجارحة التي تناوشها فتنهشها، وتهجم عليها فتخطفها وتنخاطفها:
(واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس،
فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) (١)...

واصاب المفسرون عندما قالوا ان الإشارة هنا الى فارس والروم، الذين

(١) الأنفال : ٢٦ .

افترضوا العرب وفرضوا عليهم مايفرض المستبد على التابع من مظالم وتحديات! (٢).

هكذا كانت التحديات قديمة.. وهكذا بلغت.. لكن، مرة أخرى: لماذا؟؟...

هـ هل هو الموقع الحاكم لوطن هذه الأمة؟.. صحيح ان هذه المنطقة هي قلب العالم، وملتقى عدد من قاراته، ومعبر طرقه ومواصلاته ومن ثم فهي ليست كغيرها من المواطن التي بالوسع تركها في الظل والهدوء.. وأهم من ذلك أنها كانت دائما طريق تجارة العالم القديم كله.. فن الصين التجارة تأتي على طريق برى يمر بسمرقند وبخارى ومرو ونيسابور والرى - بفارس - ثم يعبر شمال العراق الى آسيا الصغرى فأوروبا... ومن الهند وجزرها كانت تأتي التجارة بحرا الى الخليج العربى، ثم تتخذ لها عنده طريقين، يصعد احدهما في الخليج ثم يدخل أرض العراق عند الأبلهة فالبصرة، فشمالا الى ديار بكر، فآسيا الصغرى، فأوروبا... أما الثانى فيتجه بحرا في المحيط الى عدن فمكة، فدمشق فحمص فحلب، فآسيا الصغرى، فأوروبا.. أى أن تجارة العالم القديم ما كان لها ان تقوم ولا لأمرها أن ينتظم الا بموطن هذه الأمة ووطنها.. ومن هنا طمحت، بل وطمعت كل القوى الراغبة في السيطرة بالاستيلاء على هذا الوطن، فكان أن فرضت على اهله التحديات...

لكن هذا السبب لم يكن الوحيد... فعندما تقدمت أوروبا في الاستكشافات الجغرافية، وطاف البرتغاليون سنة ١٤٩٨م بقيادة فاسكودى جاما Vasco-De Jama (١٤٦٩ - ١٥٢٤م) حول افريقيا،

(٢) انظر: القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٧ ص ٣٩٤. طبعة دار الكتب المصرية. (تفسير البيضاوى) ص ٢٦٥. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦م.

ومروا برأس الرجاء الصالح، الى الهند وجزرها، وحولوا طريق التجارة العالمية عن ارض الوطن العربى.. عندما حدث ذلك، ولم يعد للموقع ما كان له من خطر في التجارة والاقتصاد، لم يكن ذلك ايذانا بانصراف الطامعين عن هذا الوطن، بل كان ذلك بدءا لمرحلة جديدة من الطمع الأكثر شراسة، وموجة جديدة من التحديات!..

* وهل هى ثروة هذا الوطن ؟ ...

صحيح أن مصر كانت بالنسبة لروما: سلة الخبز ومخزن الغلال.. وصحيح أن لعاب نظم كثيرة وحضارات عديدة يسيل اليوم لما تفجروا لم يتفجر بعد بهذا الوطن من ثروات...!

لكن هذا السبب لم يكن هو الوحيد... فقبل تفجر ثروات اليوم، وقبل التنبؤ بما هو كامن في ارضنا من ثروات.. وخلال فترات غير قصيرة من تاريخنا لم تكن ثروات هذا الوطن ملحوظة ولا مغرية بتجشم مصاعب الغزو ومعاناة السيطرة والاستعمار.. ومع ذلك ظلت هذه المنطقة مطمح الطامعين ومطمع الطامعين!..

* وهل هو ما تمثله هذه المنطقة من دور «الضمير» ؟!..

لكن.. قبل الاجابة على هذا السؤال، ماذا نعنى بـ «الضمير»؟....

لقد كانت هذه الأمة مهبط وحى الديانات السماوية الكبرى الثلاث.. وبمعنى أدق موطن الشرائع الالهية الكبرى للدين الالهى الواحد، الموسوية - (اليهودية) - ، والعيسوية - (المسيحية) - ، والمحمدية - (الاسلام) -.. ولقد عبرت هذه الشرائع حدود الوطن العربى، واعتنتها شعوب أخرى،

ذات حضارات غير عربية، وطبعت هذه الشرائع بطابعها الحضارى المتميز. وعلى سبيل المثال، فان أوربا لم يغير من طمعها في هذا الوطن تدينها بالمسيحية التى جاءت من هذا الوطن، فظل عداؤها للعرب، وهى وثنية، هو عداؤها لهم وهى مسيحية!.. ذلك أن أوربا، ذات الحضارة المتميزة بطابعها المادى فى الأساس، قد طوعت المسيحية - ديانة السلام المتصوف والصوفية المسلمة - لطابع حضارتها المادى المتميز، وكما يقول امام المعتزلة قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد (٤١٥هـ - ١٠٢٤م) فان النصرانية عندما دخلت روما لم تنتصر روما، ولكن النصرانية هى التى ترومت!!! فالقيصر الوثنى الذى كان يحكم بسلطان الحق الالهى، أصبح رأس الكنيسة، يحكم أيضا بالحق الالهى!. وبعد أن كان يبيد المسيحيين، بالحرب الدينية، أصبح يبيد غير المسيحيين، بالحرب الدينية كذلك!.. وكما يقول البيروني (٣٦٢ - ٤٤٠هـ - ١٠٤٨م) فان القيصر «قسطنطينوس» (٢٧٤ - ٣٣٧م) المظفر، منذ تنصر، لم يجعل كلا من السيف او السوط يستريح من الحركة!.. على حين وافق طبع النصرانية طابع الحضارة الهندية، لما بينها من شبه فى الجوهر والحال.. (٣) لقد ظلت مسيحية الشرق والعرب نمطا آخر غير الذى تديننت به أوربا، بل رأتها أوربا كفرا وهرطقة، فكان عداؤها المستمر لهذه المنطقة، وكان اضطهادها للقبط اليعاقبة قبل الفتح العربى، التعبير عن عدا «الانحراف» لـ «الضمير»!.. واستوى فى ذلك حال «المنحرف» وموقفه قبل التدين بالمسيحية وبعدها.

(٣) آدم متز (الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى) ج ١ ص ١٠٥ ترجمة د. محمد عبد الهادى أبوريدة. طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م. وهوينقل عن كتاب البيرونى (تحقيق ما للهند من مقولة). طبعة سخاو - ص ٢٨٠.

وايضاً.. فالأتراك العثمانيون.. (والعرب يسمونهم: الأروام!) (٤)
اعتنقوا الاسلام.. ومن قبلهم صنع ذلك المغول والتتار.. وهم جميعاً قد طوعوا
الاسلام لما لحضاراتهم من مميزات، فرأيناهم يققون من هذا الدين، أساساً
وغالباً، عند الشكل والشعائر، وخاصة الطقوس.. ومن ثم فلقد كانوا جنداً
سريع الفتح، وسيفاً شديد البتر، وجحفاً واسع التدمير، سيان في ذلك
حالهم قبل الاسلام في مواجهة اهلهم، وبعد الاسلام، باسمه وتحت بيارقه
وأعلامه.. ومن هنا كان الود المفقود غالباً، ان لم يكن دائماً، بين هذه الأمم
وبين هذه الأمة التي تمثلت في حضارتها المتميزة خصائص دين الاسلام...

اذن.. فنحن أمام سبب آخر، أساسي وجوهري، وعندما ماتضاف
اليه أسباب: الموقع، والثروة، ومماثلها.. نضع يدنا على مجموع العوامل التي
جعلت من هذا الوطن وهذه الأمة مطمع الغزاة دائماً وأبداً، وموضع
التحديات الكثيرة المتنوعة والشديدة التي فرضها الأعداء على أمتنا طوال
تاريخها البطويل.. وهذا السبب هو الذي يعطى لصراع هذه الأمة مع
اعدائها طابعاً حضارياً، رغم تعدد الأعداء، وتغاير الظروف، وتبدل
الحضارات، لأنه متمثل في ذلك الطابع المتميز لحضارتنا العربية الاسلامية
عن حضارات القوى والأمم التي ناصبتنا العدا.

ان أعداء هذه الأمة، الذين فرضوا ويفرضون عليها تحديات
الأمس واليوم، لا ينظرون اليها فقط، نظرتهم الى شعب مستعمر
يستغلونه، ويجاهدون للحيلولة دون تحرره كي لا تفلت من قبضتهم

(٤) عبدالرحمن الكواكبي (الأعمال الكاملة) ص ٢٣٨. دراسة وتحقيق د. محمد عمارة . طبعة
بيروت سنة ١٩٧٥م.

مالديه من ثروات، وانما هم يرون فيه كذلك، بل وقبل ذلك، أمة تمتلك مقومات حضارة متميزة، وذات امكانيات للعطاء على المستوى الانساني، ومن ثم فان انعاقها من الأسر الاستعماري سيعنى، مهما طال الزمن: الوحدة، والنهضة، والعودة مرة أخرى طرفا مشاركا، بل ومزاحما في نادى الأمم ذات الحضارة والعراقة والنفوذ!.. ومن ثم فان على ابناء هذه الأمة ان يدركوا، بوعى وعمق، أن أمتنا لا تنشد حريتها وتقدمها ووحدتها لتضيف، فقط، الى معسكر الأحرار أمة جديدة تقف في «طابور» الأمم الكثيرة المتحررة، وانما لتعود من جديد الى مواصلة العطاء الحضارى، بل ولتقفز الى صدارة الأمم التى مارست هذا اللون من العطاء عبر تاريخ الانسانية الطويل!.. فالهدف ليس فقط، تحرير الأرض واستخلاص الثروة وامتلاك سبل العصرية ومناهج التقدم.. وانما الهدف هو، ايضا، توظيف كل ذلك في سبيل بلورة الشخصية الحضارية العصرية لهذه الأمة، تمكينا لها من العودة ثانية كى تعطى حضاريا، على نحو أكثر استنارة وفاعلية وغنى مما كانت عليه في عصور ازدهارها التى شهدت عطاءها القديم...



لكن .. هل حقا لهذه الأمة، في الحضارة، ما يميزها عن غيرها من الحضارات؟!..

ان الاجابة السريعة - التى لا تدخل يهذه الصفحات الى بحوث الحضارة - تكفى فيها اشارات الى عدد من القضايا في عدد من النقاط :

١ - ففى بعض الحضارات يغلب الطابع المادى، حتى ليصبغ الروحانيات بصبغته، كما نلاحظ في الحضارة الأوروبية، قديما وحديثا.. وفي

البعض الآخر اغراق في الروحانية، كما هو ملحوظ في تراث الهند الحضارى.. اما في الحضارة العربية الاسلامية فان الموقف المتوازن، الذى يوازن بين القطبين و يوائم بين النقيضين، هو جوهر ما يميزها، حضاريا، عن غيرها من الحضارات. في هذا الميدان.. وهذه القسمة المميزة لحضارتنا هي اضافة اسلامية اكتسبتها في عصر تبلورها العربى، بعد أن كانت موارث المنطقة الحضارية موزعة بين المفرق في الروحانية، مثل المسيحية، والمفرق في المادية، مثل اليهودية.. فهذه اضافة اسلامية نرى فيها، بوضوح، موقف القرآن الذى يوازى دائما بين الماديات والروحانيات.. اضافة طبعت الحضارة العربية الاسلامية بهذا الطابع المميز والخاص.

٢ - ونفس الموقف المتوازن نجده هو طابع حضارتنا المميز حيال قطبي «العقل» و «النقل» ..

فعلى حين لانجد «لِلنقل» مكانا مع «العقل» في الحضارة اليونانية، ولا نجد «لِلعقل» مكانا مع النقل في الجانب الدينى بالحضارات التى انطبعت بالمسيحية، نجد الحضارة العربية الاسلامية، انطلاقا من الجوهر الأصيل والنقى للفكر الاسلامى، تقيم توازنا دائما بين هذين السبلين من سبل الاستدلال والهداية والاشارة.. فالذين وقفوا عند ظواهر النصوص، دون اعطاء العقل مجالا، بالتأويل، هم قلة في الحضارة والتراث.. والذين رفضوا النقل كلية لانهلحظ لهم مكانا في حضارتنا، وان وجد لهم أثر فهو، ولا شك، أثريونانى، لاعربى.. على حين نجد التيار الغالب والطابع المميز في هذه الحضارة هو ذلك الذى وازن ما بين «العقل» و «النقل» و «الحكمة» و «الشرعة» على نحو جيد وجديد!.

٣ - ونفس الطابع المتوازن يطبع حضارتنا العربية الاسلامية في الموقف من «الدين» و «الدنيا» ..

ففي الحضارات ذات الطابع المادى تحول «الدين» الى «دنيا» ،
والعكس نجده في الحضارات التي اغرقت في الروحانيات.. اما في الحضارة
العربية الاسلامية فان الموقف المتوازن ربط بين «الدين» و «الدنيا» .. بين
«عالم الغيب» و «عالم الشهادة».. بين «النفس» و «البدن» ، على نحو قد
لا يكون مسبوقا في غيرها من الحضارات.. فالربط بين وجوب «الشعائر»
الدينية، وصحتها، وبين اشباع «الاحتياجات المادية» وتوافر الظروف
«الصحية» للانسان، هو موازنة وتوازن.. وتقديم صحة الأبدان على صحة
الأديان، بمعنى ترتيب هذه على تلك، لاجمعنى الاقتصار على تلك دون هذه، هو
موازنة وتوازن.. وربط فرائض، مثل الصوم والصلاة والحج.. الخ..
بظروف الانسان الدنيوية، من اقامة وسفر، وقدرة وحاجة.. الخ.. هو
موازنة وتوازن.. وهذه الاضافة الاسلامية التي طبعت حضارتنا بالطابع
المتوازن نجدها في الكثير من صفحات تراثنا، من مثل تلك التي يقول فيها
الامام الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ - ١٠٥٨ - ١١١١ م): «ان نظام الدين لا يحصل
الا بنظام الدنيا.. فنظام الدين، بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل اليها الا بصحة
البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات، من الكسوة والمسكن والأقوات
والأمن... فلا ينتظم الدين الا بتحقيق الأمن على هذه المهمات
الضرورية. والا فن كان جميع اوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف
الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يفرغ للعلم والعمل؟ وهما وسيلتاها
الى سعادة الآخرة؟ فاذن: ان نظام الدنيا، اعنى مقادير الحاجة، شرط
لنظام الدين !» (٥).

٤ - وكذلك توازن حضارتنا العربية الاسلامية بين «الفرد»
و«المجموع».. فلا تفرق في الميل لأحد القطبين على النحو الذى يضر بالآخر

(٥) (الاقتصاد في الاعتقاد) ص ١٣٥ طبعة القاهرة - محمود على صبيح.

فيعطل ملكاته، أو يتيح الطغيان للنقيض.. بل لقد ربطت مصلحة «الفرد» ومصلحة «المجموع» وعلقت كلا منها على الاخرى.. وعن هذه القسمة التي طبعت حضارتنا وميزتها نجد حديثا كثيرا في الكثير من صفحات التراث، من مثل قول الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ - ٩٧٤ - ١٠٥٨ م): «.. واعلم ان صلاح الدنيا معتبر من وجهين:

اولهما : ماينتظم به أمور جملتها.....

والثاني : ما يصلح به حال كل واحد من اهلها.

فهما شيان لا صلاح لأحدهما الا بصاحبه، لأن من صلحت حاله، مع فساد الدنيا واختلال أمورها، لن يعدم ان يتعدى اليه فسادها، ويقدر فيه اختلالها، لأنه منها يستمد، ولها يستعد. ومن فسدت حاله، مع صلاح الدنيا، وانتظام أمورها، لم يجد لصلاحها لذة، ولا لاستقامتها أثرا، لأن الانسان دنيا نفسه، فليس يرى الصلاح الا اذا صلحت له، ولا يجد الفساد الا اذا فسدت عليه، لأن نفسه أخص، وحاله أمتس. فصار نظره الى ما يخصه مصروفا، وفكره على ما يمس موقوفا!« (٦).

٥ - وكذلك وازنت هذه الحضارة بين «السلم» و «الحرب».. ففتوحات امته كانت، في الجوهر والحقيقة، تحريرا وازاحة لموجات غازية عن ديارها، ولم تكن، في الجوهر والاغلب، عدوانا.. وحتى ما كان قهرا من سلطانها وسلاطينها نزل بأقوام آخرين فان تاريخ القهر يصنفه بين أخف ألوانه وأقصدها في الغلو والمغالاة!.. وهي صانعة حضارة تنشد «السلم» مناخا ضروريا لنموها.. هي تعد العدة حتى تنفي القتل والقتال بالاستعداد.. وهي تجنح للسلم اذا كان السلم هو العدل والحق لأصحابه.. وحضارتها،

(٦) (أدب الدنيا والدين) ص ١٣٤ تحقيق : مصطفى السقا. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م.

عندما توازن بين هذين القطبين، فإنها تترجم عن شخصيتها، فهي ليست أمة جبلية متوحشة وشرسة، وهي ليست بالتي تستسلم للقهر وتفرض في الحق وتستكين للمغزاة... ولعل النهايات التي انتهت إليها المآثرات الكثيرة في تراثنا بين «السيف» و «القلم»، والتي مالت لتزكيتها معا، وربط الأولوية لكل واحد منها بالظروف والملابسات، لعلها من الشواهد على هذا الموقف المتوازن.. وهل ينكر منصف أن المتنبي (٣٠٣ - ٣٥٤هـ - ٩١٥ - ٩٦٥م) قد أوجز هذا الطابع الحضاري عندما قال :

أعز مكان في الدنيا سرج سابح

وخير صديق في الزمان كتاب ؟!

٦ - وهي كذلك قد وازنت ما بين العمل «الذهني» والعمل «اليدوي»، على نحو باعد بين موقفها هذا وبين موقف حضارة اليونان.. فعلى حين قدست الأخيرة العمل «الذهني» واحتقرت العمل «اليدوي»، الذي قصرته على الرقيق، نجد الحضارة العربية الإسلامية توازن بينهما، حتى لتكاد تمزجها مزجا.. وليس ذلك بالغريب على حضارة أمة ربطت إسلامها بين الإيمان والعمل، وكان المبدعون لعلومها وفنونها: «علماء - تجارا» و «فلاسفة - أطباء»، و «فلكيين - ملاحين»، و «جغرافيين - رحالة»، و «كيميائيين - بحرون التجارب».. الخ.. بل من الذي ينكر دلالة اشتغال نفر من أئمة التيار العقلافي من المعتزلة بأجراء الملاحظات والتجارب على الحيوانات، حتى ليستنكر الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥هـ - ٧٨٠ - ٨٦٩م) انكار من يستغرب ذلك فيقول : «ان علوم الحيوان هذه يتفرغ للجدال فيها الشيوخ الجبلية والكهول العلية، حتى ليختارون النظر فيها على التسبيح والتهليل، وقراءة القرآن، وطول الانتصاب في الصلاة، وحتى ليزعمون أنها فوق الحج

والجهاد، وفوق كل بر واجتهاد!..» (٧) « ولعله يريد ان يقول : انها، هي الأخرى، عبادة وجهاد واجتهاد!..

وهذه الحضارة، في موازنتها بين العمل «الذهنى» والعمل «اليدوى» وعندما مزجها معا، وساوت بينها في الشرف قد ذهبت الى الحد الذى جعلت فيه «العمل» - عموما - المعيار الذى يعطى الأشياء قيمتها، وذلك على حد قول ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ - ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م): «ان ما يفيد الانسان ويقتنيه انما هو قيمة الأعمال الانسانية في هذه المقتنيات...» (٨).

على هذا النحو - ومثله كثير - استطاعت الحضارة العربية الاسلامية ان توازن مواقف وقضايا وقيم ظلت في حضارات اخرى «متناقضات» لاسبيل الى التوفيق بينها .. ومن ثم فلقد اكتسبت طابعها المتميز هذا بين كثير من الحضارات ..

ولقد اسهم في ذلك وأعان عليه أنها قد تبلورت كوارث لموارث حضارية متعددة، وأيضا متميزة.. فهي قد استفادت استفادة كبرى من المنابع الحضارية التى عاشت في المواطن التى كونت اجزاؤها امبراطورية العرب والمسلمين.. والاسلام، الذى كشف عن مميزات العرب، قد استلهمت موجته الحضارية الشابة خيرا ما في حكمة الصين وفلسفة الهند وسياسة الفرس، وتراث اليونان، ثم اخذ يضيف اليها، اخيرا، مادته عليه الكشف الحديث من نواحي عبقرية المصريين القدماء..

وهذه الميزة التى امتازت بها حضارتنا ليس مبعثها الموقف

(٧) (الحيوان) ج ١ ص ٢١٦، ٢١٧ تحقيق: عبدالسلام هارون. طبعة القاهرة، الثانية.

(٨) (المقدمة) ص ٣٠٣. طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ.

«الانتقائي - التلفيقي»، وانما مردها الى الطابع التحرري الذي حكم بناء الدولة العربية منذ الفتوحات العربية الاسلامية الأولى، وهو طابع جعل من هذه الدولة الوارث الشرعي للمواريث الحضارية للأمم المنطقة، ولم يجعلها، كما كانت بيزنطة، مثلاً، القوة القاهرة التي تفرض طابعها الحضاري ومذهبها الديني على الآخرين.. ومرد هذه الميزة كذلك موقف «العدل - القسط - الوسط -» الذي غلب على نهج العرب المسلمين في التفكير، وهو الموقف الذي رفض التطرف المغالي، واختار «الحق» الذي يتوسط، دائماً، باطلين، ولذلك رأيناه وهو يختار «المتوسط» يأخذ من قطبي الظاهرة وطرفيها - «النقيضين» - ما يمكن أن يمازج ويمتزج «بالوسط - العدل - القسط» فيكون معه الاختيار المتميز ذا الطابع المتوازن.. ولقد اتاح هذا النهج لأصحابه الاستفادة من العناصر المتعددة والقيم المتنوعة، وهياً لها مناخ التفاعل والائتلاف حتى صارت بناء حضارياً متميزاً الى حد كبير.

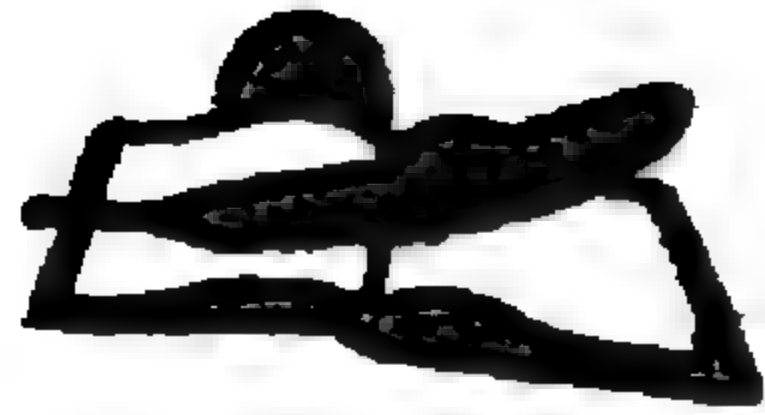
اذن ... فتحن امام حضارة عريقة... وذات طابع متميز.. وسبق أن تخطت الحدود السياسية والقومية لأمتها فنهضت بدور رائد وملحوظ في العطاء الحضاري الانساني.. ولهذه الحضارة أمة كبرى، تؤلف بينها قسما خاصة لقومية واحدة، ولهذه الأمة، غير هذه الحضارة، امكانيات كثيرة، الأمر الذي ينبغي، على نحو صادق ومحقق، ان تحقق شروط معينة سيجعل هذه الأمة تنهض من مرقدتها، لتحرر وتتحرر فقط، بل وتسهم حضارياً في الساحة الانسانية من جديد، ولتمارس في هذه الساحة، حضارياً أيضاً، دوراً هو أشبه بدور «الضمير»!..

ومن هنا كان الحرص، الرقيق والعنيف، الحق والمعلن، من أعداء كثيرين يخشون المزاحمة، وينفرون من «الضمير»!.. حرصهم على ان تظل

هذه الأمة اسيرة في مرقدها، تشدها الى الخلف ما فرضوه عليها من
تحديات...

ومن هنا، ايضا ، كانت أهمية اكتشاف هذه الأمة للقانون الذى
حكم صراعها التاريخى ضد التحديات التى فرضها على اسلافها أسلاف
هؤلاء الأعداء.. ذلك أن تغير الصراع، وتطور أسبابه وملايساته، وتبدل
بعض الفرقاء والأطراف فيه، لاينفى الوحدة والعموم فى القانون الذى حكم
أدواره وسيطر على أحداث حلقاته على مر التاريخ..

وبالطبع، فان الوصول الى اكتشاف هذا القانون مرهون بالوقوف
امام اهم وأخطر ما واجهته هذه الأمة، عبر تاريخها، من تحديات...



الفصل الأول

بالفتوحات واجهوا محاولات الاحتواء

لنتأمل رقم هذا العام : سنة ٥٧١م.

.....

.....

انه عام الفيل.. زحفت فيه جيوش الحبشة بقيادة أبرهة من جنوب شبه الجزيرة - اليمن - الذي كانت قد احتلته سنة ٥٣٠م، زحفت ، بتحرير من بيزنطة، الى وسط شبه الجزيرة العربية لتحتله وتحتويه، فهذا الوسط هو كل مابقى للعرب بعيدا عن الاحتواء من الغزاة.. فالفرس كانوا يسيطرون ويسيمنون على مشرق شبه الجزيرة، والروم البيزنطيون على شمالها وغربها، والحبشة قد احتلت الجنوب، ثم هاهى ومن ورائها بيزنطة قد نهضت لاحتلال القلب، وذلك حتى يخمد هذا الجسد تماما أو، على الاقل، يستغرق في سبات عميق وطويل، وحتى يتم للحبشة وبيزنطة السيطرة على جميع مراحل التجارة العالمية: (عدن - صنعاء - مكة - الشام - آسيا الصغرى - القسطنطينية) فيحققون بذلك ميزة كبرى في الصراع التاريخي ضد الفرس الذين كانوا يتحكمون في الطريق الشافى لهذه التجارة بسيطرتهم على العراق!...

وكما كان الجنوب - بعربه الحميريين - رازحا تحت النير الحبشى ومكبلا وعاجزا عن حماية القلب.. كذلك كان الجناحان، فى الشرق والغرب، فالتبعية للروم والفرس تستنزف طاقتها، بل وتستنزفها فى صراع

اصبح عرهما، الغساسنة واللخميون، بعض وقوده.. فالحارث بن جبلة (٥٢٩ - ٥٦٩م) يقود قومه الغساسنة في الحرب ضد المنذر الثالث اللخمي ملك الحيرة، لحساب الرومان.. وبعد أعوام - في سنة ٥٤٤م - يأسر المنذر اللخمي أحد أبناء الحارث الغساني فيقدمه قربانا للالهة «العزى»!.. ثم يعود المنذر الغساني - ابن الحارث بن جبلة - فيدمر عاصمة اللخمين ويحرقها، ايضا لحساب الرومان، الذين يكافئونهم فيضعون على رأسه تاجا!.. و «يوم حليلة» الذي فاضت الأحاديث بذكره في «ايام العرب» وملاحمهم، وذهب مثلا يقول: (مايوم حليلة بسر!) هو واحد من أيام تلك الحرب التي اقتتل فيها العرب لحساب كل من فارس والروم، «فحليلة» هذه، هي بنت الحارث الغساني، جلست تستعرض، في زينتها وهائها، جيوش ابيها، وطبيتها بالطيب بيديها الجميلتين، وهي زاحفة الى ميدان القتال كي تحارب العرب اللخمين؟!..

هكذا كان حال العرب في ذلك التاريخ.. مستضعفون يخافون ان يتخطفهم الناس، كما وصفهم القرآن الكريم.. لكن عنف الخطر وشدته، وجدية التحدى الذى طرح في الساحة العربية سؤال : نكون؟ اولا نكون؟! قد احدث في جسد هذه الجماعة الانسانية اختلاجات اخرجت من الاعماق ما هو كامن وأصيل، فكانت هزة الجسم واختلاجه ورعشته اذا مسه الخطر الشديد، فنفض بهزته هذه عن كاهله اخطر السلبات وأثقل القيود، وبدأ المسير في اتجاه حركة التاريخ، واضعا قدمه على أول الطريق..

• فالطريق أمام جيش ابرهة لم يكن معبدا ولا مفتوحا، بل قاومته قبائل عربية كثيرة وهو صاعد نحو مكة، وكان أعراب البادية يغيرون على جيشه ياسرون منه الجند فيسترقونهم، وينهبون منه المؤن والمعدات.. صنع ذلك العرب اليمنيون بقيادة «ذونفر».. وبعد هزيمتهم قاد المقاومة للجيش

الغازي «نفيل بن حبيب الخثعمي» ومن خلفه قبائل خثعم «ناهس» و«شهران» (١)... والعربي الوحيد الذي خان قومه، وقام بمهمة الدليل لجيش أبرهة، وهو «ابورغال»، خلد العرب خيانتته، وجعلوا من رجم قبره بالحجارة سنة قاربت شعائر الدين، حتى لقد ضرب بها الشاعر جرير المثل في هجائه للفرزدق فقال :

إذا مات الفرزدق فارجموه

كما ترمون قبرا بى رغال !

* ولم يكد الفشل يصيب حملة أبرهة على وسط شبه الجزيرة، حتى هبت ضده وضد الاحتلال الحبشي مقاومة عرب اليمن في الجنوب، فلقد نهض القائد العربي سيف بن ذي يزن (١١٠ - ٥٠ ق . هـ ٥١٦ - ٥٧٤م) لتحرير اليمن واجلاء الأحباش، واستعان على ذلك بما بينهم هم وبيزنطة وبين الفرس من صراعات وتناقضات.. ونجحت ثورته هذه في تحرير الجنوب.

* وكانت رئاسة حكومة مكة في ذلك التاريخ - ومنذ سنة ٥٢٠م - لعبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف (١٢٧ - ٤٥ ق . هـ ٥٠٠ - ٥٧٩م)، فانتهاز فرصة الانتصار الذي احرزته اليمن ضد الاحباش، بعد الفشل الذي أصاب حملة أبرهة على مكة، ورأس وفدا من حكومتها ومن أشرف قبائل وسط شبه الجزيرة، وذهبوا الى سيف بن ذي يزن، الذي استضافهم لأكثر من شهر، دارت بين الفريقين فيه محادثات عن تضامن عرب الجنوب والوسط لحماية طريق التجارة، ولاحكام القبضة العربية الخالصة عليه، وللتصاعد بما تم من انتصارات نحو مزيد من الانتصارات التي تحول اتجاه الريح في شبه الجزيرة وبين العرب من التمزق والشتات الذي جعلهم فرائس للغزاة الى التضامن والتآلف والتآزر الذي ينقذهم من التحديات التي تكاد تطبق عليهم القبضة وتحكم حول عنقهم الخناق!...

(١) د . محمد عمارة (فجر اليقظة القومية) ص ٤٠ طبعة القاهرة، الثانية سنة ١٩٧٥م.

* وحول هذا التاريخ شهدت ظاهرة التمزق العرني، الذي جسده المنازعات والحروب القبلية، تطورا في اتجاه جديد.. فلقد اتفقوا على هدنة سنوية مقدسة، هي الأشهر الحرم (رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم) يسود فيها السلم شبه الجزيرة، وتنمو فيها الروابط وتتعمق فيها الأواصر ويعلو صوت العقل والحكمة وتداوى الجراح...

وفي هذه الأشهر الحرم كانت تقام أسواق العرب، التجارية والأدبية، الأمر الذي تصاعد بسلطان اللغة الأدبية المشتركة على حساب اللهجات التي أخذت في الضمور حتى في الربوع والنجوع ومضارب الحيتام.. وفي هذه الأشهر الحرم أيضا كان يتم الحج الى مكة.. ولقد أدى انتظام هذه الشعيرة العربية وتمكن كل القبائل، في ظل السلام، من ممارستها الى أن أقامت كل قبيلة لمعبودها تمثالا حول الكعبة بالمسجد الحرام، وذلك حتى يجد كل طائف نسخة من معبوده عند الكعبة ساعة الطواف، فتحولت الكعبة بذلك الى «معبد موحد» للعرب، جسد بداية توحيد هوية تلك الجماعة البشرية التي كان تعدد آلهتها رمزا لتمزق هويتها والشتات المستشري في بنائها القومي.. لقد بدأت ظاهرة التمزق في الانحسار، وأخذت المؤشرات تتجه نحو المزيد من التآلف في الشخصية العامة، ونحو المزيد من الخيوط التي توحد وتنسج كلا واحدا من ذلك الشتات الذي مزقته الحروب والصراعات..

* ومرة أخرى لنأمل رقم ذلك العام، عام غزوة الفيل، سنة ٧١م.. ففي هذا العام الذي شهد بداية هذا التحول في الظاهرة العربية من : خضوع الفريسة للتحدى الى انتفاض جسدها وروحها بعوامل المقاومة لذلك التحدى.. في هذا العام ولد محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، عليه الصلاة والسلام؟!..

• وحول التاريخ، ايضا، تصاعدت حركات الرفض للديانة الوثنية العربية، تلك التى كانت تجسد بآلهتها المتعددة الشتات والتمزق في هوية هذه الجماعة من الناحية القومية .. وتطلعت الأبصار واشترأت البصائر من الحكماء الذين صنعت نفوسهم واحتوت قلوبهم وعقولهم هموم الجماعة التى احدثت بها المخاطر واحاطتها التحديات، تطلعت أبصارهم واشترأت بصائرهم الى دين جديد، توحد عقيدته ولا تفرق، وتؤلف شريعته ولا تمزق. ولقد أرادوه دينا عربيا، يحمل، مع جوهره الالهى وحقيقته الربانية، هالات المجد القومى للعرب الأقدمين.. فكان ان جد البحث والتنقيب عن بقايا ديانة التوحيد لابراهيم الخليل، عليه السلام، فهو جد العرب العدنانيين، ووالد أبيهم اسماعيل، عليه السلام، وهما اللذان رفعا القواعد من البيت، بمكة، فأقاما للعرب أول بيت وضع للناس... ومن هنا بدأ هؤلاء الحكماء، والمتأملون، وأصحاب النفوس الصافية، والحاملون هموم أمتهم، بدأوا «يصبأون» أى ينحرفون عن الشرك والتعدد الى التوحيد، وينصرفون، رافضين، عن اجلال الاصنام وتقديسها وعبادتها الى عبادة الله الواحد، كل وفق ماتيسر له بتأمله الذاقى، مستعينين على ذلك بما تيسر لهم جمعه من بقايا ديانة ابراهيم عليه السلام..

كان العرب يريدون دينا حقا و يتطلعون الى شريعة الهية.. ولكنهم كانوا ينشدون في الدين الذى يريدونه وفي الشريعة التى يتطلعون اليها العون القومى على اعادة مجدهم وتأليف وحدتهم كى ينهضوا ويصمدوا في مواجهة التحديات.. ومن هنا كان تطلع «الحنفاء - الصابئة» ، الى شريعة ابيهم اسماعيل وجدهم ابراهيم.. وكان رفضهم لكل من المسيحية واليهودية، على الرغم من اكمال بنائهما الفكرى والدينى أكثر بكثير من تلك البقايا التى جمعها «الحنفاء» من ديانة ابراهيم.

لم يجد العرب الحل الذى ينشدونه و يتطلعون اليه في اليهودية، على الرغم من اعتناق قطاعات من قبائلهم لها وتدينهم بها، وخاصة في يثرب.. لأن اليهودية بالنسبة لهم كانت دينا اجنبيا.. فهي قد تحولت، على يد العبرانيين، الى دين خاص بأبناء اسحق، والتوحيد فيها شأبه شأبه وثنية عندما استأثر العبرانيون بالله، فجعلوه اله بنى اسرائيل، لا اله العالمين!.. ثم انها قد تحولت، على يدهم، الى «جيتو» فكرى، ففقدت القسمات العالمية والانسانية التى هى ابرز القسمات في الدين الالهى الواحد، كما بشر به الرسل والأنبياء.. بل ان اليهود، في شبه الجزيرة، قد جعلوا من دينهم سلاحا ضد العرب، وطالما استعرضوا به خيلاءهم وكبرياءهم، كأهل كتاب، مستهدفين اخضاع العرب واذلالهم وتعميق الشتات والتمزق في نفوسهم.. حتى ليكاد المرء أن يجزم بأن العرب قد رأوا في هذه اليهودية واحدا من التحديات التى فرضها عليهم الأعداء في ذلك التاريخ!..

ولم يجد العرب، كذلك، الحل الذى ينشدون واليه يتطلعون في المسيحية، وذلك على الرغم من أنهم عرفوها في رحلات التجارة شتاء الى الجنوب، وصيفا الى الشمال.. وعلى الرغم من تناثر صوامع للأخبار والرهبان على مشارف مدن لهم وحول الطرق التى تشق الصحراء.. بل وعلى الرغم من تدين قبائل وقطاعات من قبائل بهذا الدين.. ذلك ان المسيحية، كانت بالنسبة لعرب ذلك التاريخ، هى ديانة الروم البيزنطيين واحباش بنى يكسوم.. انها الديانة والفكرو «النظرية» للغزاة الذين يفرضون عليهم التحديات!.. ومن هنا لم يجد فيها العرب الحل الذى ينشدون، بل لعلمهم قد رأوا فيها عكس الذى يريدون!..

وفي هذا المناخ، وتلك الملابس جد نفر من طلائع هذه الجماعة العربية في البحث عن «الهدى» و «الرشاد» في دين الهى، وشرعية ذات

طابع قومي عرني، ينهض بها العرب وتنهض بهم في مواجهة ما فرض عليهم من تحديات.. فكان ان اتسعت بوسط شبه الجزيرة، وهو الذي احتفظ بهويته العربية الأكثر نقاء، اتسعت حركة «الحنفاء»..

فخالد بن سنان العبسي : يظهر بنجد، ويدعو قومه الى دين جديد.. واذا كانت مصادر التاريخ لا تسعفنا بما يحدد ملامح شريعته، الا أنها تذكر لنا أن ابنته قد عاشت حتى ادركت، وهي عجوزة ظهور الاسلام، فوفدت مع وفد قومها الى المدينة مسلمين يبائعون الرسول عليه الصلاة والسلام، وتضيف هذه المصادر ان الرسول عندما قالوا له: هذه ابنة خالد العبسي، نهض، فاستقبلها، وفرش لها عباءته واجلسها عليها، قائلا لها: «مرحبا بابنة بني ضيعة اهلكه! (٢)» - فهو - ان صحت رواية الرواة - «نبي» وليس «بمتنبيء».. نبي عرني جاء ليبشر قومه بشريعة جديدة، غير اليهودية والنصرانية.. وصدق الله العظيم حيث يقول : (ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) (٣).

وزيد بن عمرو بن نفيل (١٧ق.هـ - ٦٠٦م) : رفض، هو الآخر، عبادة الأصنام، ولقى رهبان النصرانية فحاورهم، ثم رفض النصرانية، والتقى بأحبار اليهودية فجادلهم وعزف عن يهوديتهم.. وحرم الخمر على نفسه، ودعا قومه الى تحريمها، ونهاهم عن عبادة الأوثان، وكان يتأمل، معتكفا، ويتعبد في كل عام شهرا، هو شهر رمضان بغار حراء.. ولقد مات زيد هذا، وهو في طريقة الى الشام، طائفا يبحث عن الحق، ويتأمل السبيل الى دين

(٢) الزركلي (الاعلام) طبعة بيروت، الثالثة.

(٣) غافر: ٧٨.

جديد... مات قبل نزول الوحي على محمد، صلى الله عليه وسلم، بأربع سنوات.. وعندما تحدث عنه الرسول قال: «انه يبعث يوم القيامة امة وحدة»!. (٤)

وابو ذر الغفارى (٣٢ هـ - ٦٥٢ م) : يسلك، بالتأمل، درب « الحنفاء»، فيصل الى عقيدة التوحيد، فيعبد الله الواحد، بل ويصلى له قبل ظهور الاسلام بسنوات ثلاث... وعندما سمع بدعوة محمد، في مكة، وهى لا تزال في طور السرية، ذهب اليه مؤمنا، ومسلما عليه بتحية الاسلام، قبل ان يخاطبه الرسول او يدعوه!.. (٥) لقد كان ينتظره، ويتطلع لقدمه منذ سنوات، وكان بذلك يجسد تطلع هذه الأمة الى شريعتها التى تمثل بالنسبة لها طوق النجاة من تحديات الأعداء الذين جعلوا حتى من ديانات السماء قيودا أرادوا بها ازهاق الروح العربية واحتواء هذه المنطقة، مجوسا فرسا كان هؤلاء الأعداء، أم نصارى من الروم والأحباش..

لقد كانت شبه الجزيرة العربية، وخاصة وسطها، تشهد في ذلك التاريخ سباقا مع الزمن، وصراعا مع التحديات.. ومن هنا كان تطلع أبصار حكمائها وبصائرهم الى امر جديد، وبالتحديد الى بعثة نبي جديد.. كانت آلام المخاض تنبئ بحتمية التغير، ومن هنا كان التطلع، من الجميع، لهذا الرسول القادم.. نعم، من الجميع.. وان اختلفوا: اعربيا يكون؟ أم من العبرانيين؟.. وان كان عربيا، فمن اى القبائل والعصبيات؟ اعظيم مكة: الوليد بن المغيرة؟ ام عظيم الطائف: عروة بن مسعود الثقفى؟.. أم شريفا من قريش، لكنه من البسطاء والفقراء؟.. ومن الذى يسبق الى دعوته

(٤) الأصفهاني (الأغانى) ج ٣ ص ٩٧٣. طبعة دار الشعب. القاهرة.

(٥) (صحيح مسلم) بشرح النوى. ج ١٦ ص ٢٧. طبعة محمود توفيق، القاهرة. وانظر كتابنا (مسلمون ثوار) ص ٢١. طبعة بيروت، الثانية، سنة ١٩٧٤م.

مستجيبا لها، فتكون له الحظوة ويكون له السبق والنفوذ؟ العرب الذين يتطلعون لجديد يعتقهم من الوثنية والتمزق وينجهم من خطر التحديات؟ او أولئك الذين اتخذوا اليهودية ديناً؟ ..

كان هناك، اذن، هذا التطلع، وهذا السباق مع الزمن ومع التحديات.. ولتأمل رواية ابن اسحاق (١٥١هـ - ٧٦٨م) لأحداث بيعة العقبة التي كانت بمثابة «العقد السياسي على تأسيس الدولة العربية الاسلامية الأولى» بين عرب يثرب، من الأوس والخزرج، وبين الرسول، صلى الله عليه وسلم.. «فبينما الرسول، صلى الله عليه وسلم، عند العقبة، لقي رهطاً من الخزرج.. فقال لهم :

- من انتم ..؟
- نفر من الخزرج ...
- أمن موالي يهود؟! ...
- نعم ! ..»

وتمضى الرواية: «وكان يهود معهم في بلادهم ... وكانوا قد غزوا بلادهم، فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا لهم: ان نبيا مبعوث الآن، قد اظلم زمانه، نتبعه، فنقتلكم معه قتل عاد وارم!.. فلما كلم رسول الله أولئك النفر، ودعاهم الى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا، والله، انه للنبي الذي توعدهم به يهود، فلا تسبقنكم اليه!.. فأجابوه فيما دعاهم اليه؟!» (٦).

فالعرب كانوا يتطلعون الى نبي.. وكذلك اليهود الذين كانوا يمثلون، هم الآخرون، وضع الغزاة في تلك البلاد، حيث حولوا عرب المدينة

(٦) التويرى (نهاية الأرب) ج ١٦ ص ٣١٠، ٣١١. طبعة القاهرة.

الى «موالى»!.. وكان هؤلاء الغزاة، الذين يمثلون واحدا من التحديات، التي فرضت على العرب، يريدون الاستئثار بالنبوة المنتظرة لتكون، هي الأخرى، تحديا جديدا ضد الجماعة العربية، لكن المعاناة والعقرية والالهام قد دفعت عرب يشرب الى السبق، فسبقوا الى الايمان بالنبي الجديد، (انه للنبي الذى توعدهم به يهود، فلا تسبقنكم اليه!) - وعقدوا بيعة العقبة، مع الرسول، عليه الصلاة والسلام، فكانت الدولة العربية الاسلامية الأولى، التى بدأ بظهورها طور جديد تماما، وحاسم تماما، في تاريخ العرب، بل والانسانية جمعاء!...

وبالطبع، فان الذى يعنى هذا البحث من ذلك الحدث الذى اهتزت له أرض شبه الجزيرة وجاوبتها في ذلك سماؤها، ليس جانب الدين، وانما الذى يعنينا هنا ما كان له من طابع قومى جاء في اطار الموقف الايجابى الذى اتخذته الجماعة العربية تجاه ما كان مفروضا عليها من تحديات..

فهاهى القيادة العربية، التى كان العرب، الحنفاء والحكماء والذين تقض الأخطار والتحديات مضاجعهم، يتطلعون اليها قد ظهرت، تبشر بدعوة الاسلام، دين الحنيفية المسلمة، دين ابراهيم واسماعيل.. وهى قيادة قرشية، لها كل ما لقريش من شرف ونفوذ، وهى، من ثم مكة، لها وزن مكة، ام القرى، في شبه الجزيرة، ووسطها بالذات..

حقا إن محمدا، صلى الله عليه وسلم، كان في الأساس وقبل كل شىء، نبي الله ورسوله، بعثه الله الى الناس كافة، وليس للعرب وحدهم، والدين الذى دعا الناس اليه هو دين الله الواحد، الذى بشر به كل الرسل والانبياء من قبل، وهو في هذا قد جاء مصدقا لما بين يديه من الكتاب، توراة وانجيل، والذى أوحاه الله اليه، في هذا الجانب، هو الذى أوحى الى من

سبقه من المرسلين والأنبياء (والذي اوحينا اليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يده (٧)) (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصىنا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه (٨))، ففي عقائد: التوحيد، والحساب والجزاء الأخروي، والعمل الن صالح... وهي اصول الدين الالهى الواحد، لاخلاف ولا اختلاف بين جميع الرسل والرسالات ...

لكن محمدا قد جاء بشريعة جديدة، غير تلك التى تحولت من بعد عيسى على يد الرومان الى قسمة من قسمة الحضارة الاوربية المادية... وغير تلك التى تحولت من بعد موسى على يد العبرانيين الى ما يشبه الوثنية «للجيتو» اليهودى.. وهى شريعة اسلامية تمثل الاستجابة لحاجات الانسانية المتدنية عندما تبلغ سن رشدتها فتستعين «بالعقل» استعانها «بالنقل»، وتجد في العلوم المعتمدة على «البرهان العقلى» الثقة والطمأنينة التى تجدها في العلوم المؤسسة على «الوحى».. ومن هنا فهى طور جديد في مسيرة الانسانية على درب رسالات السماء وشرائعها الدينية..

وايضا.. فلم يكن ذلك كل الجديد في رسالة الاسلام.. فمحمد، عليه الصلاة والسلام، لم يكن يبشر بدعوته الجديدة في الفراغ، ولا في ظروف مواتية.. صحيح انه، بالنسبة للعرب الذين تطبق التحديات على مصائرهم وتهدد الاخطار مستقبلهم، يمثل حاجة طالما تطلعو اليها، وضرورة طالما استشرفوها.. ولكن العصبية القبلية كانت هناك، وهى تريد القيادة العربية، ولكنها تريد من بينها هي، ومن قبيلتها وعصبيتها.. فأبوسفیان بن حرب (٥٧ق . هـ ٥٦٧ - ٦٥٢هـ) يلتقى بعظيم ثقيف والطائف عروة بن

(٧) فاطر: ٣١.

(٨) الشورى: ١٣.

مسمود الثقفي (٩هـ - ٦٣٠م) فيسأله رأيه في محمد ودعوته، فلا يجرو عروة على تكذيب محمد، ولكنه يقول لأبي سفيان: «ما كنت لأومن لنبي ليس من ثقيف؟!..» فالعصية القبلية كانت مصدرا لتيار رافض، بل ومعاد، لدعوة الاسلام..

وكانت هناك ايضا المصالح الاجتماعية التي تستثمر الأوضاع الجائرة التي استشرت في شبه الجزيرة، من الربا والرق والاستغلال.. الخ.. واصحابها قد رفضوا الاسلام، لأن محمدا لم يكن من الأغنياء المستغلين، ولأنه يبشر بان ارادة الهه: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)(٩).. وقديما قال اسلافهم (انى يكون له الملك علينا، ونحن احق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال؟!)(١٠).. فكانوا، هم ايضا، مصدر تيار رافض لدعوة الاسلام..

وكان هناك الذين ارتبطت مصالحهم، المادية والاجتماعية والأدبية، بديانة الشرك، وتعدد الآلهة وعبادة الأصنام.. وفي مكة كان نفوذهم كبيرا، فهي موطن حج المشركين ومكان معارضهم واسواقهم التجارية، واليها يجلبون الأموال والتجارات... وهذه الفئة قد أشفقت على رواج مكة المالى، ومن ثم رواجهم هم، من ذلك الدين الذى سيصرف عبدة الأوثان العرب عن تقديس مكة والحج اليها ان هى آمنت، دونهم، بالتين الجديد، فكانت هذه الفئة، كذلك، مصدر تيار رافض للدين الجديد..

ولقد تداخلت هذه المصادر وتشابكت هذه التيارات، وقاد سلا مكة وأشرافها، باسم هؤلاء جميعا ودفاعا عن كل تلك المصالح، المعارضة والعداء والاضطهاد لمن آمن بالدين الجديد...

(٩) القصص : ٥٥

(١٠) البقرة : ٢٤٧

ومن هنا، وامام هذه المقاومة التي بلغت، بعد الايذاء والمقاطعة، الشروع في قتل الرسول ، والتصاعد بالاضطهاد الى حد اقتلاع المؤمنين من بلدهم، واخراجهم من احب الموطن الى قلوبهم بالهجرة من مكة الى يثرب.. امام هذه الملابسات لم تقف الدعوة الجديدة عند حدود «الدين»، لان اصحابها وجدوا أنفسهم مضطرين الى اتخاذ «الدولة سلاحا يدافعون به عن حق الجماعة المؤمنة وحريتها في الدين بالدين الجديد، وفي هذه «الدولة» صنع المؤمنون النموذج الجديد الذي يجسد فكرهم الاجتماعى والسياسى الجديد.. وايضا بشروا بالفكر القومى العربى الذى كان بمثابة الفتح الجديد الذى يخرج العرب من تحت خطر التحديات القديمة ومخاطرها، وشيئا فشيئا وضعوا هذا الفكر القومى، الذى استنهضوا به العرب الى بعث جديد ونهضة كبرى تحت رايات الاسلام، وضعوه في الممارسة والواقع والتطبيق..

• ففي صفحات كثيرة من فكر الدعوة الجديدة والدولة الوليدة تترأى لنا تلك «العملة الفكرية» التي «سكتها»، فاذا أحد وجهيها يحمل «التوحيد الدينى» للذات الالهية، على نحو يبلغ في التنزيه والتجريد والنقاء ما لم يبلغه عند امة من الأمم التي سبقت المسلمين على هذا الطريق.. وعلى الوجه الثانى للعملة نجد «التوحيد القومى والسياسى» للعرب!.. فهم الأمة التي اصطفاه الله، بعد ان اصطفى منها رسولها، لتشر توحيدها، وهي لن تستطيع ذلك الا اذا «وحدت» الله و«توحدت واتحدت» قوميا وسياسيا!..

• والقرآن الكريم يعرض التوحيد الدينى الذى يوحد هوية المجتمع قوميا، بعد ان كان تعدد الآلهة يرمز الى تمزقها.. يعرض هذا التوحيد باعتباره السبيل الى النجاة من مخاطر التحديات التي فرضها الأعداء - (الفرس والروم) - على العرب لحقبة طويلة من حقبة التاريخ - (واذكروا اذ انتم مستضعفون، تخافون أن يتخطفكم الناس، فأواكم وأيدكم بنصره

ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون (١١).

* وحديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، الى عمه ابي طالب (٨٥ - ٣ ق . هـ - ٥٤٠ - ٦٢٠ م) يتصاعد بهذه القضية الى الحد الذى يجعل فيه «التوحيد الدينى» ومن ثم «الوحدة القومية والسياسية» السبيل الذى يشر به الاسلام كى ينتقم العرب من أعداء الأمم، فرسا وروما وبيزنطيين.. فهو يحدث عمه عن ماسيترتب على استجابة قومه لدعوته في هذا المجال فيقول: «يا عم! الا ادعوهم الى كلمة يقولونها، تدين لكم بها العرب، وتؤدى اليكم العجم الجزية؟!.. والله لتنفق كنوز كسرى وقىصر في سبيل الله!». .

فهو يغرى قومه بوحدة تجعلهم السادة والقادة، وتفتح امامهم الطريق لتسوية الحساب مع اعداء الأمم، الذين فرضوا عليهم التحديات، وأذلّوهم، وجعلوهم جندا مرتزقا وتابعا في الصراع التاريخي بين الفرس والاغريق والروم..

وفي موطن آخر يجعل من هذه «البشرى» نبؤة التحقيق، فيقول : «ان امتى ستظهر على «الحيرة» وقصور كسرى، وارض الشام والروم، وقصور «صنعاء». وبشر المسلمين بذلك»! (١٢) ..

* وتحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة، بمكة.. وهو أمر قد يراه البعض «دينا خالصا» لا دلالة فيه ولا أثر على الطابع القومى الذى انطبع به الاسلام، في تلك البقعة، في ذلك التاريخ.. ولكننا نرى فيه - وسندنا القرآن الكريم - طابعا قوميا عربيا، ودليلا واضحا على هذا الطابع لا تخطئه حين الباحثين.. بل لقد كان تحويل القبلة هذا تشريعا الهيا تمت حدوده القلوب العربية المسلمة، واشرايت اليه العواطف والأفكار من قبل ابرام الله

(١١) الأنفال: ٢٦.

(١٢) ابن الأثير (الكامل في التاريخ) ج ٢ ص ٦٧، ٢٤، ١٢٣.

له والوحى الى رسوله به.. أليسوا هم الذين تطلّعوا، من الدعوة، الى دين جديد، فسلّكوا اليه بقايا دين جدّهم ابراهيم وابيهم اسماعيل؟!.. وأليست الكعبة ومسجدها الحرام وحرمها الآمن مكة مطمح أبصارهم وملّقى مشاعرهم، وبقعتهم المقدسة، وواديهم الأقدس عبر تاريخهم الطويل؟! ثم أليس جدّهم ابراهيم وأبوهم اسماعيل هما اللذان رفعوا القواعد من هذا البيت العتيق؟!.. فليس بالغريب، اذن، أن يتمنوا على ربهم ان تتحول قبلتهم في الصلاة عن القدس، التى كانت حتى ذلك التاريخ في أسر الرومان البيزنطيين، الى الكعبة.. فلقد كانت «قبلتهم» قبل الاسلام، وهاهم، مع بعثهم القومى الجديد، يريدونها «قبلة» في الدين الجديد أيضا..

والقرآن الكريم يحدثنا عن هذا الحدث الدينى، حدث تحويل القبلة، فنعلم منه أن الرسول وقومه كانوا يرفعون الوجه لله داعين أن يشرع لهم ذلك، وأن تشريعَه هذا.. كان استجابة إلهية يرضاها الرسول والمؤمنون (سيقول السفهاء من الناس : ماؤلاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؟! قل: لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء الى صراط مستقيم، وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا، وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله، وما كان الله ليضيع ايمانكم، ان الله بالناس لرؤوف رحيم. قد نرى تقلب وجهك في السماء وجهك فلمنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره، وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم، وما الله بغافل عما يعملون)٠(١٣)

بل اننا لواجدون في هذه الآيات الكريمة مايفيد بأن استقبال

المسلمين لبيت المقدس، في صلاتهم، انما كان امرا مؤقتا، ومرهونا بإرادة الله أن يختبر طائفة من اهل الكتاب، ليعلم من يستجيب منهم للشرعية المحمدية، ومن ينقلب على عقبيه.. ومن ثم فان تحول القبلة الى ذلك المكان الذى هفت اليه تاريخيا قلوب العرب واحتضنته مشاعرهم هو الطبيعي، والمقرر، سلفا، في علم الله!..

• وحتى يحقق المسلمون ذلك الانجاز التاريخي، فيؤلفون أشتات القبائل في كل قومية واحد، ويتجاوزون التمزق، الذى أتاح للتحديات المعادية ان تقوم وتستمر بوطأتها الثقيلة، الى الوحدة.. كان لابد من صفحة جديدة تحمل الى القوم مفاهيم جديدة عن «العربي» و «العروبة».. فالعصبية القبلية والنعرات الجاهلية كانت بمثابة الثغرات التي سلكتها التحديات، ومن ثم فليقد ألقى الاسلام، أو ألقى جوانبه القومية الى الفكر العربي صياغات فكرية جديدة تستنهض الأمة لتجاوز ذلك الفكر الجاهلي المتخلف، وتبشر بمفاهيم مستنيرة، وغير عرقية، وانما حضارية «للعربي» و «العروبة».. حدث هذا منذ ذلك التاريخ البعيد!..

فالرسول، عليه الصلاة والسلام، ينكر المضمون، «العربي» للعروبة، ويدعو الى اعتماد المضمون الحضاري رابطة ومعيارا لمن هو العربي؟ ومن هم العرب؟ فاللغة، وهي وعاء للفكر والتراث والحضارة والذكريات.. هي المعيار والرباط الذى دعا الرسول الى اعتماده بدلا من «العرق» و «القبلية»، ذلك أن مجتمع شبه الجزيرة كان يضم «عربا باللغة» والحضارة غير «العرب» بالعرق والجنس والدم. ومن ثم فان اعتماد المعيار الحضاري كان سبيلا، لتجاوز النعرات الجاهلية والمفاهيم المتخلفة والمتعصبة فقط، وانما، أيضا، لبناء كيان جديد وأوسع من ذلك الذى يمكن بناؤه على أساس من العرق والجنس.. وهي أيضا قفزة حضارية، وتطور

متحضر هام الى الأمام.. يبشر الرسول بهذا المفهوم الجديد عندما يخاطب في الناس قائلاً: «أيها الناس، ان الرب واحد، والآب واحد، وليست العربية بأحدكم من اب ولا أم، وانما هي اللسان (اللغة)، فمن تكلم العربية فهو عربي!» (١٤).

وتتوالى أحاديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، تنهى العرب عن التعلق بالنعرات الجاهلية والعصبيات القبلية.. «.. ما بال دعوى الجاهلية؟!.. دعوها فانها متنة!..» (١٥) «.. ان الله، عز وجل، اذهب عنكم عيبة - (بضم العين وفتح الباء: الكبر) - الجاهلية وفخرها بالآباء..» (١٦) و «من قاتل تحت راية عمية - (بضم العين وكسر الميم المشددة وفتح الياء المشددة: الأمر الأعمى والمعنى، لا يستبين وجهة) - يغضب لعصبة، او يدعوا الى عصبة، فقتل فقتله جاهلية!..» وليس من امتي!..» (١٧).

والرسول، صلى الله عليه وسلم، يفرق ويميز في هذا الباب من الأحاديث بين حب الانسان لقومه، والولاء لهم - وهو مشروع، والناس مدعوون اليه - وبين الاعانة على الظلم عصبية وتعصبا.. فالأول: ولاء للقوم، يدعوا اليه الطبع ويرضى عنه الرسول، والثاني منهي عنه، اذ فيه نرى عصبية الجاهلية ونعراتها.. وعندما يسأل « واثلة بن الأسقع » الرسول: - يا رسول الله، أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟... - (يحبيه) :-

(١٤) (تهذيب تاريخ ابن عساکر) ج ٢ ص ١٨٩. طبعة دمشق.

(١٥) رواه البخاري والترمذي.

(١٦) رواه أبوداود.

(١٧) رواها مسلم.

- لا، ولكن من العصبية أن ينهر الرجل قومه على الظلم!« (١٨).

ذلك هو معنى «العصبية» الذي نهى عنه الرسول، لأنه بشر بضمون حضارى انساني مستنير للعروبة، بل وجعل العدل شرطا لانتصار الانساني لقومه، فخطا بذلك على درب الفكر القومى المستنير الى الأمام الى ما هو أبعد وأرقى مما صنعت دعوات قومية كثيرة في العصر الذى نعيش نحن فيه! ..

* ولم تقف التجربة الاسلامية بهذا التطور عند حدود الفكر، بل وضعت هذا الفكر في الممارسة والتطبيق، وذلك عندما نهضت باقامة تنظيم «اجتماعى - قومى» جديد «للأمة السياسية» في الدولة الجديدة..

فالرعية و «الأمة السياسية» في دولة المدينة كانت عربية كلها، ولم تكن كلها مسلمة، أى أن المعيار القومى كان ملحوظا في تكوينها .. ودستور هذه الدولة، الذى سمي في مصادر التاريخ بـ (الصحيفة) وبـ (الكتاب) يذكر أنها ضمت، مع المهاجرين، قبائل المدينة، بقطاعاتها التي أسلمت وقطاعاتها التي ظلت على يهوديتها، فكان فيها: «بنو عوف» و «يهود بني عوف» و «بني الحارث» و «يهود بني الحارث»، و «بني ساعدة» و «يهود بني ساعدة»، و «بني جشم» و «يهود بني جشم»، و «بني النجار» و «يهود بني النجار» و «بني الأوس» و «يهود بني الأوس» .. ونص هذا الدستور أيضا على أن المسلمين من رعية هذه الدولة يكونون أمة واحدة من دون الناس - وهي أمة الدين - على حين يكونون مع العرب المتدينين باليهودية «أمة واحدة» كذلك، هي «أمة السياسة والقومية»! .. وبعبارة ذلك الدستور: «.. المؤمنون والمسلمون، من قريش و يثرب، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم: أمة واحدة من دون الناس... وان يهود أمة مع المؤمنين،

(١٨) رواه ابن ماجه وابن حنبل

لليهود دينهم وللمسلمين دينهم!...» (١٩).

فالطابع القومي، الذي يعتمد العروبة، بالمعنى الحضاري، ملحوظ هنا في تحديد رعية الدولة العربية الاسلامية الأولى، ولا يمكن لعين باحث أن تغفله، خصوصا اذا علمنا أن هذه « الأمة » الجديدة « الواحدة » قد شملت مع ذوى الأصول العرقية العربية « الأحلاف والموالي والأتباع »، وهم الذين أصبحوا عربا باللغة والولاء للجماعة القومية العربية، وإن كانوا قد انحدروا من أصول عرقية غير عربية..

ولقد برز هذا المعنى، وتؤكد أيضا في التطبيق، بذلك التنظيم « القومي — الاجتماعي » الذي أدخلت به « الموالي » — وهم الذين تعربوا حضاريا، ولم يكونوا عربا بالجنس — أدخلتهم به هذه الدولة في صلب التنظيم الواحد للامة الواحدة.. واذا كانت دولة المدينة قد جعلت « القبيلة » اللبنة الأولى في « الأمة الواحدة »، بعد أن كانت، قبل الاسلام، كيانا سياسيا واداريا واجتماعيا مستقلا، فانها، في هذا التنظيم، « دججت » موالي كل قبيلة في قبيلتهم، فأصبحت القبيلة ليست فقط « العرب بالعرق والجنس » وإنما « العرب باللغة والهوية الحضارية والقومية ».. وتوالت أحاديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، تدعو وتأمر وتشعر لهذا التنظيم « القومي — الاجتماعي » الجديد.. « مولى القوم منهم » (٢٠).. « الولاء لحمه كلحمه النسب، لا يباع ولا يوهب ».. (٢١)

هكذا تغير مفهوم « العربي » وضمون « العروبة »، فلم يعد المعيار فيها: الجنس والعرق، وإنما أصبح المعيار هو: اللغة والحضارة، والباب الى

(١٩) (نهاية الأرب) ج ١٦ ص ٣٤٨ - ٣٥١.

(٢٠) رواه البخاري.

(٢١) رواه ابوداود والدارمي.

اكتساب ميزات «الأمة الجديدة» هو الولاء لها ولما اكتسبت من قيم جديدة وفكر جديد، ومن ثم فقد ضمنت هذه «الأمة» وعلى قدم المساواة، كل «العرب»، بهذا المفهوم الجديد، والمعيار الانساني الحديث، سواء منهم أولئك الذين انحدروا من أصلاب عربية أو أولئك الذين كانوا في الأصل فرسا أو روما أو زنجيا أو من الأحباش ..

ولقد اتسع الأفق والنطاق بهذا التنظيم « القومي - الاجتماعي » بعد أن أدخلت الفتوحات في حدود الدولة مناطق أخرى لم تكن عربية من قبل، فوجدنا عمر بن الخطاب (٤٠ ق.هـ - ٢٣ هـ - ٥٨٤ - ٦٤٤ م) يكتب إلى عامله بالعراق: « .. وانظر من قبلك من الحمراء - (الموالى ذوى الأصول الفارسية) - فالحقهم بقبائلهم، وإن أرادوا أن يكونوا قبائل مستقلة، فأجهم، وسويينهم وبين غيرهم .. ».

بل إن قصة «الأعراب» - عرب البادية، غير الحضريين - مع هذه الدولة العربية الإسلامية الأولى، وعلاقتهم السياسية بها، هي الأخرى دليل آخر على هذا الذى نقول .. فهم قد «أسلموا» بمعنى أنهم أطاعوا وانقادوا وانخرطوا في هذا البناء « السياسى - القومى » الجديد، وخاضوا المعارك وشاركوا في الغزوات تأسيسا لهذه الدولة ودفاعا عنها .. فعلوا كل ذلك دون أن يكونوا «مؤمنين» بعقائد الدين الجديد وشريعته، «فالايمان» يقين وتصليق قلبى، وهو، بالقطع، أخص من «الاسلام» .. والقرآن الكريم يحدثنا عن هذه الحقيقة فيقول : (قالت الأعراب: آمنا، قل: لم تؤمنوا، ولكن قولوا: اسلمنا، ولما يدخل الايمان في قلوبكم !) (٢٢) .. فهم، اذن، جزء لا يتجزأ من «الامة القومية» التى اسست وبنت الدولة العربية الإسلامية، وان لم يكونوا من «الامة المؤمنة» بعد الدين الجديد ..

(٢٢) الحجرات : ١٤

ومثل «الأعراب» في هذا الأمر مثل «المؤلفة قلوبهم».. فهم عرب أسهبوا في بناء الدولة القومية ، لقاء نصيب تقرر لهم في مصارف الأموال، وذلك دون أن يكونوا «مؤمنين» بالدين الجديد.. فهم كانوا من «أمة السياسة» و «قوم العرب» دون أن يكونوا من «أمة الدين»...

هكذا نهض الرسول ، صلى الله عليه وسلم، وهكذا نهض الاسلام بهذا الانجاز القومى العربى الجديد..

وهنا.. لنستأمل رقين لعامين.. ولنتأمل حال الجماعة العربية في كل منها...

• سنة ٥٧١م ... عام غزوة الفيل.. عندما أحدثت الأخطار والتحديات بالجماعة العربية من الشرق والغرب والشمال والجنوب، وكاد الأحباش أن ينتزعوا القلب والوسط أيضا ويحتووه.. وعندما كان العربى فريسة مهیضة الجناح، يتخطفة الأعداء و ينوشونه فينهشونه...

• سنة ٦٣٢م (سنة ١١هـ) .. عام وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم.. عندما أصبحت العرب «أمة»، وغدت لهذه «الأمة» «دولة» ضمت شبه الجزيرة العربية بأسرها..

هنا ، وفى الأحد عشر عاما التى امتدت من عام الهجرة الى وفاة الرسول، تغير اتجاه الريح، واستدار التاريخ فيمم وجهه شطر هذه الأمة الجديدة.. فبعد أن كانت مزقا وأشلاء يتخطفها الأعداء ويفرضون عليها التحديات ويهددونها بالفناء.. استيقظت روحها، فأثمرت خیرما فى معدنها الأصیل، واختلج جسدها فأبرز قواه الكامنة وعوامل المقاومة فيه، وكان ذلك اجابة ايجابية على التحديات التى فرضها عليها الأعداء.. وسجل التاريخ منذ ذلك التاريخ : أن العرب بتجديد الذات وتوحيدها، وبشحن

عوامل المقاومة للخطر وامكانياتها الكامنة، وبتطوير الفكر وتحديثه، قد استطاعوا أن يتوحدوا، وأن يتولوا زمام القيادة في الشرق بدلا من الفرس، بل وأن يزحفوا مطاردين كلا من الفرس والروم البيزنطيين !..



وعندما زلزلت وفاة الرسول، صلى الله على وسلم، يقين الأعراب الذين يسكنون غير المدينة ومكة والطائف، فظنوا ان التوحيد الديني شيء، وهم لم يغيروا عقائدهم فيه، وأن الوحدة القومية شيء آخر، فخلعوا عن أنفسهم تبعاتها، بعد وفاة النبي الذي دعا إليها وانجزها.. عندما ارتدت قبائل الأعراب هذه عن وحدة الدولة العربية، ونخيل لعمر بن الخطاب ان لاحق لدولة الخلافة أن تقاتلهم ماداموا على التوحيد الديني، فقال للخليفة ابي بكر الصديق (٥١ ق . هـ - ١٣ هـ - ٥٧٣ - ٦٣٤ م) : كيف تقاتلهم وهم يشهدون أن لا اله الا الله؟! لقد قال الرسول : من قال : لا اله الا الله فقد عصم مني دمه وماله؟!.. كانت بصيرة ابي بكر وعبقريته السياسية وحسه القومي قد هداه الى القرار التاريخي الذي جعل تاريخ هذه الأمة يسير في الاتجاه الصحيح.. لقد ربط ما بين التوحيد الديني، والوحدة القومية والسياسية، ورأى في وحدة دولة الخلافة «حقا» يستتبعه و يقتضيه التوحيد في الدين، وأعلن أن الوحدة القومية والسياسية والادارية لم ولن تكون رهنا بحياة الرسول، عليه الصلاة والسلام، وانما هي طريق بدأ العرب، خلف الرسول، السير فيه، ولا بد لهم من مواصلة سيرهم فيه.. فقال لعمر: «والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونها الى رسول الله لقاتلتهم عليها..».

فنهض المسلمون فحصنوا المدينة كي تصمد امام هجوم الأعراب المرتدين، وتراجعت خلافات الصحابة حول الخلافة، فبايع على بن أبي طالب (٢٣ ق . هـ - ٤٠ هـ - ٦٠٠ - ٦٦١ م) ورهط من بني هاشم لأبي بكر

بالخلافة بعد أن أبطأت بيعتهم له عدة شهور.. (٢٣) وخرج أبوبكر الى «ذى القصة» فعقد احد عشر لواءا لأحد عشر قائدا زحفوا بجيوش عربية مسلمة داعين الى عودة الوحدة القومية التي بناها الرسول...

- ١ - خالد بن الوليد (٢١هـ - ٦٤٢م) لقتال طليحة بن خويلد الأسدي، ومن معه من قبائل : اسد، وغطفان، وطىء، وعبس، وذبيان...
- ٢ - وعكرمة بن ابى جهل (١٣هـ - ٦٣٤م) لقتال مسيلمة بن حبيب - (الكذاب) - الذى قاد بنى حنيفة باليمامة، بين نجد والأحقاف.. وهو الذى كانت ردة نموذجاً للردة عن الوحدة القومية عندما يغلفها قائدها بستار مهلهل من «التنبؤ» والادعاء الكاذب للنبوّة، على حين كانت تفضح الأهداف السياسية هذا الادعاء.. فهو الذى برر لأصحابه ردتهم عن الولاء لدولة المدينة بقوله في سجعه : «ياضفدع نقي نقي ، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشا قوم يعتدون»!.. فهو هنا يعلن، صراحة، أن الهدف هو كسر وحدة الدولة.
- ٣ - والمهاجر بن أمية (بعد ١٢هـ - ٦٣٣م) لقتال الأسود العنسي (عيلة) باليمن، وقيس بن المشكوح، وكندة بحضرموت...
- ٤ - وخالد بن سعيد بن العاص (١٤هـ - ٦٣٥م) لقتال أهل الحمقين الذين ارتدوا على مشارف الشام..
- ٥ - وعمر بن العاص (٥٠ ق. هـ - ٤٣هـ - ٥٧٤ - ٦٦٤م) لقتال المرتدين من قضاة ووزيعة والحارث..
- ٦ - وحذيفة بن محصن الغلفاني لقتال المرتدين من أهل دبا..
- ٧ - وابن هرثمة (بعد ٢٠هـ - ٦٤٠) لقتال مهرة.

(٢٣) انظر كتابنا (الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية) ص ٨١ - ٨٧. طبعة بيروت سنة

١٩٧٧م.

٨ - وشرحبيل بن حسنة (٥٠ ق . هـ - ١٨ هـ ٥٧٤ - ٦٣٩م) لقتال قضاة .

٩ - ومعن بن حاجر لقتال سليم ومن معهم من هوازن ..

١٠ - وسويد بن مقرن لقتال تهامة ، باليمن .

١١ - والعلاء بن الحضرمي (٢١ هـ - ٦٤٢م) لقتال اهل البحرين ..

ولقد استطاعت هذه الجيوش ، في أقل من عام ، أن تعيد الى الدولة وحدتها ، وأن تقضى على فتنة الانشقاق القومي .. وكان فتح «الحيرة» سنة ٦٣٣م (سنة ١٢ هـ) بعد أول لقاء مسلح بين الدولة العربية وفارس ايدانا بعودة وحدة شبه الجزيرة الى ما كانت عليه في اواخر حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبشروع هذه الدولة في نقل الصراع الى موقع جديد ، تطارد فيه الدولة الفارسية ، وتستخلص منها مناطق نفوذها التقليدية في «الحيرة» حيث طالما حكمت وتحكمت في العرب اللخمين (٢٤) ..

ثم واصلت الدولة العربية - بعد أن عادت لها ولجماعتها الوحدة - صراعها مع الامبراطوريتين اللتين احتكرتا السيادة على المنطقة لعدة قرون .. فارس والروم البيزنطيين ... فكانت فتوحاتها الشرقية في العراق العربي تحرير من سيطرة فارسية ظالمة ... وكان فتحها لفارس ذاتها ثارا لتاريخ قديم ومرير ، وتأميننا لبوابتها الشرقية ، وانهاء لنظام اجتماعي فاسد ، غدا فسادة ثغرة في جدار الشرق مكنت منه الغزاة البيزنطيين ، وغدت مظالمه قيذا يحول دون اهل فارس ودون الابداع الحضاري الذي اهلهم له التاريخ والتراث الذي يملكون .. وجميع أسباب هذا الفتح سياسية ، تدخل في باب الصراع

(٢٤) انظر أخبار حروب الردة في (تاريخ الطبري) ج ٣ ص ١٣٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦ ،

٢٨٨ ، ٣٠٠ طبعة دار المعارف . القاهرة . (نهاية الأرب) ج ١٨ ص ٧٢ ، ٧٣ وج

١٩ ص ٤٩ ، ٦١ - ٦٥ - ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٦ - ٧٨ ، ٨٠ ..

القومى، لا الدينى ، لأن العرب المسلمين لم يفرضوا عقائد الاسلام بالقتال، وما كان الايمان - وهو تصديق قلبى و يقين للضمير المستكن فى النفس - أن يتحصل بالاكره.. لقد كانت فتوحات سياسية وقومية، شارك فيها مع العرب المسلمين الفاتحين كثيرون من اهل البلاد المفتوحة، وهم على دياناتهم القديمة، وسقطت عنهم لهذه المشاركة تلك الضريبة الزهيدة (الجزية) التى فرضت على المخالفين فى الدين، ممن هم فى سن الجندية، كبذل عن الجندية، اذا استدعت ظروف الأمن فى القتال أن لا يشتركوا فيه أو اذا أرادوا هم ذلك (٢٥)...

وكذلك صنعت الدولة العربية على الجبهة الغربية مع الروم البيزنطيين.. فالحرب التى خاضتها فى الشام، وفى مصر، كانت جميعها ضد الحاميات والجيوش «البيزنطية - الأجنبية - المستعمرة» ، ولم يحدث فى موقعة واحدة أن قاتل اهل البلاد، وهم عرب او قبط ذوو صلات سامية، ضد الجيش العربى الفاتح .. بل على العكس من ذلك، فلقد ساعد قبط مصر جيش عمرو بن العاص فى حربه ضد جيش الاحتلال البيزنطى .. وطلب اهل القدس من عمر بن الخطاب فى العهد الذى اعطاه لهم ان يخرجوا من مدينتهم ثلاث قنات:

- ١ - الروم.. وهم القزاة المستعمرون..
- ٢ - واللصوص.. الذين كانوا يهددون أمن السكان..
- ٣ - واليهود.. الذين كانوا قد تحولوا الى عملاء للروم القزاة! (٢٦) ..

(٢٥) انظر فى المعاهدات التى تثبت اسقاط الجزية عن الذين قاتلوا مع المسلمين، وهم على دينهم القديم: (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ص ٣٢٦، ٣٢٨ - معاهدة أهل «جرجان» ومعاهدة «آذربيجان» جمعها وحققها محمد حميد الله الحيد آبادى. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

(٢٦) المصدر السابق - ص ٣٤٥.

اما العرب، اهل البلاد الأصليون، وكانوا نصارى يشاركون الروم في الدين، ويختلفون فيه مع المسلمين، فقد وقفوا مع «قومهم» المغايرين لهم في الدين ضد «غزاتهم» المتفقين معهم في الدين، فجسدوا بهذا الموقف الطابع القومى لهذا الفتح العربى المبين.. ولقد تصاعد هذا الموقف القومى، أحيانا، الى درجة الاشتراك، مع الجيش العربى المسلم، في قتال الروم.. ففى موقعة «اليرموك» الحاسمة قاتل اهل «حمص»، وهم على نصرانيتهم، مع الجيش المسلم، خلف ابى عبيدة بن الجراح (٤٠ ق. هـ - ١٨ هـ - ٥٨٤ - ٦٣٩) ضد الروم البيزنطيين.. وكذلك فعل الجراجمة، سكان «الجرجمة»، بشمالى سوريا، عندما قاتلوا، وهم على نصرانيتهم، مع الجيش العربى المسلم، تحت قيادة حبيب بن مسلمة الفهرى (٢ ق. هـ - ٤٢ هـ - ٦٢٠ - ٦٦٢ م) ضد البيزنطيين المسيحيين!.. لقد صنع عرب الغرب والشمال ماصنعه عرب الشرق، المناذرة، عندما حاربوا مع الجيش العربى المسلم ضد الفرس، فوقفوا مع «قومهم» ضد «عدوهم»، بصرف النظر عن الاتفاق والاختلاف في الدين (٢٧) .

ومرة أخرى، لتأمل رقم هذا العام: سنة ٦٥١ م (سنة ٣١ هـ)..
فى هذه السنة قتل «يزد جرد» (٦١٧ - ٦٥١ م) آخر أكاسرة الفرس الساسانيين. بعد أن انهارت امبراطوريته أمام العرب الفاتحين..
وقبلها كان العرب قد فتحوا كل الشام ومصر وطرابلس الغرب - (ليبيا) -
(ثم استكملوا تحرير المغرب كله سنة ٦٩٧ م سنة ٧٨ هـ) - فأزاحوا عن الشرق نير الروم، كما أزاحوا عنه نير الفرس - بل ونقلوا مواقعهم الى قبرص، وبدأ
تهديدهم للقسطنطينية ذاتها.. حدث ذلك كله في ثلاثين عاما من تاريخ
الدولة العربية الاسلامية (١ - ٣٠ هـ - ٦٢٢ - ٦٥١ م) ... فى هذه السنوات:

(٢٧) انظر: ابويوسف (كتاب الخراج) ص ١٣٨، ١٣٩. طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ.

- أقام العرب دولتهم.. وبنوا، بمضمون حضارى ومستنير، كيانهم القومى الواحد... .
- واستجمعوا طاقاتهم الكامنة، وقوى المقاومة المستكنة، وطوروا الفكر، وجددوا المفاهيم، ووسعوا الآفاق.
- وتهضوا، تحت رايات الاسلام القومية فحرروا وطنهم واخوانهم، والشرق كله، من سيطرة الفرس والروم.
- وبنوا امبراطورية عربية، تعددت فيها العقائد والاديان، وأصبحت وعاء تمت فيه عملية التعريب، التى اتسعت دائرتها فشملت سكان الوطن العربى الذى نعيش فيه الآن..
- ودخلوا بالتاريخ، أو دخل بهم التاريخ الى طور حضارى جديد.. أصبحت لهم فيه قيادة الشرق، بعد أن كانت للفرس حيناً، وللأغريق حيناً، وللبيزنطيين أحياناً أخرى.. فأين هى خريطة الأرض العربية « الحرة ذات السيادة» سنة ٥٧١م - عام الفيل - من خريطتها بعد ثلاثين عاماً من عودة الروح القومية الى كيانهم القومى الجديد؟!..
- لقد كانت تلك هى اجابة الأمة العربية على التحدى الذى واجهته، والذى بلغ ذروته سنة ٥٧١م عام الفيل! لكن الأعداء كثيرون.. ومتربصون.. والليالى من الزمان حبالى.. يلدن الكثير من التحديات؟!..

الفصل الثاني

الشخصية القومية

تواجه العصبية والعصب

بعد أن نجح الاسلام ودولته العربية نجاحا ملحوظا في وضع اشقات القبائل العربية على طريق الاندماج القومي، وفق المضمون القومي الحضاري والانساني والمستير الذي قدمه الرسول، صلى الله عليه وسلم، لمن هو «العربي» ولما هي «العروبة».. وبعد أن أثمر هذا الانجاز العظيم والتاريخي ثمرات عظيمة وتاريخية أنقذت العرب من القهر، وجعلتهم قادة المنطقة، وحقت لهم بالفتح الثأر من خصوم الأمس، فرسا وروما.. بعد هذا الانجاز. عاد الخطر يطل على الوحدة القومية للدولة العربية من جديد.. واشتد هذا الخطر في ظل الدولة الأموية (٤١ - ١٣٢ هـ - ٦٦١ - ٧٥٠ م) على وجه التحديد..

فالفتوحات التي أنجزها العرب قد شملت، في تلك المرحلة، كلا من العراق والشام.. وسكان هذه البلاد هم عرب، كانوا، قبل هذا الفتح، يرزحون تحت نير الحكم الفارسي او البيزنطي، ومن ثم فلقد كان فتح العرب المسلمين لبلادهم هذه «تحريرا» عربيا اسلاميا لبلاد عربية وأقوام عرب، لاشبهة في طبيعته هذه على الاطلاق.. ولقد شارك عرب هذه البلاد الجيش الفاتح في قتاله ضد حاميات الفرس وجيوش الروم، رغم اختلاف العقائد والديانات.. ومن ثم فلم تكن هناك «مشكلة قومية» خلقها هذا الفتح، ولم يظهر «تناقض قومي» بين سكان هذه البلاد وبين العرب المسلمين الفاتحين.

ولقد شمل الفتح العربى الاسلامى ايضا: مصر، وبلاد الشمال
الافريقى.. ولم تكن هذه المناطق عربية، كالعراق والشام، ولكن مصر
كانت قريبة من العرب، فلها بالسامية والساميين علاقات قديمة، والى
تمت هجرات سامية من شبه الجزيرة على مراحل متتالية ومتباعدة في
التاريخ، وكثيرون يرون في «عروق» أبنائها، يومئذ، وفي لغتها القبطية آثارا
كثيرة للسامية والساميين (١)... ثم ان مصر، ومثلها في ذلك ما فتح من بلاد
الشمال الافريقى، كانت تزرع تحت قهر الروم البيزنطيين، ومن ثم فلقد رأوا
في الفتح العربى حركة «تحرير» للمنطقة من غزاة أجنبي، وكان الفاتحون
العرب أقرب الى قلوب أهل تلك البلاد من الرومان.. فهم، على عكس
الرومان، تركوا لهم حرية الاعتقاد الدينى، فعاد القبط الى مدنهم بعد أن
كانوا قد هجروها الى الصحراء، وبنوا كنائسهم بعد أن حرّموا منها طويلا
وعبدوا الله في الكهوف والمغارات، بل واعتمد عليهم العرب كل الاعتماد في
بناء جهاز الدولة الجديد، وعهدوا اليهم بوظائف الديوان.. ثم ان الحضارة
القبطية كانت قد تلقت على يد الروم البيزنطيين من الضربات ما أضعفها
وأوهن من عزمها، يضاف الى ذلك أن الكثير من مقومات هذه الحضارة
وقيمها، ذات الأصل المصرى القديم، كان قد ضعف بعد تحول مصر الى
المسيحية، بسبب الموقف الذى وقفته الديانة المسيحية من العناصر والمقومات
والقيم الوثنية في ذلك التراث الحضارى.. ومن ثم فلم تكن لقبط مصر الذين
أعادهم الفتح العربى الى ظهر الأرض بعد ان كان البيزنطيون قد أجبروهم

(١) انظر: مكرم عبيد باشا: مجلة (الهلal) عدد ابريل سنة ١٩٣٩ م. و: د. عبد المجيد
عابدين (البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب) للمقرئ. «الملحق» ص ٧٧ -
٩٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م. و: د. أحمد مختار عمر (تاريخ اللغة العربية في مصر)
طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م.

على الاختفاء تحت رمال صحرائها، لم تكن لهم يومئذ حضارة شابة مزدهرة تستطيع ان تنافس الوليد الحضارى الشاب والجديد - الحضارة العربية الاسلامية - فأقبلوا، غير نادمين، على الاسهام بمواريتهم الحضارية في بناء هذا الكيان الحضارى الجديد، وقنعوا بدور المسهم فيه، ولم يقفوا منه موقف المعادى أو النقيض.. ومن ثم فلم يكن أهل هذه البلاد مصدرا لمشاعر قومية معادية للعرب، ولم يعهد أن نشأت في ربوعها أفكار «شعرية» في أية مرحلة من مراحل التاريخ التى أعقبت عصر الفتوحات..

لكن الأمر لم يكن كذلك فيما تم فتحه من البلاد شرقى العراق، وفارس منها على وجه التحديد.. فالفرس والساسانيون لم يكونوا عربا، ولا ساميين.. وبلادهم لم تكن، قبل الفتح، رازحة تحت الاحتلال، بل كانوا هم الغزاة الذين خضعت لهم بلاد عربية كثيرة، دائما أو في فترات متفرقة من التاريخ.. وأكثر من ذلك فلقد كانت لهم قيادة الشرق في صراعه التاريخى ضد الاغريق ثم ضد الروم البيزنطيين، ولأجله قادوا معارك هذا الصراع، وباسمه كانوا يتحدثون.. وأخيرا فان ميراثهم الحضارى كان كبيرا وهاما وحيا ومتميزا، رغم ما أصابه من وهن وشيخوخة لاستبداد أكاسرة الساسانيين ونظامهم الطبقي المغلق وحكمهم بالحق الالهى.. الخ.. ولقد كان طبيعيا، لهذه الأسباب، ان لا يتقبل الفرس فتح العرب لبلادهم كما تقبله الآخرون، والا ينظروا اليه «كحركة تحرير» ولا «كمد تحررى».. بل على العكس من ذلك تماما، فلقد رأوا فيه قهرا عربيا لأمة متميزة وعريقة، واحتلالا أجنيا من قوم اقل منهم تحضرا، وثأرا عربيا لاحتلال فارسى للأرض العربية قديم.. ورأوا فيه كذلك نقطة تحول يتسلم فيها العرب زمام قيادة الشرق كله بعد أن كان ذلك لهم وحدهم طوال تاريخ طويل.. ولهذا اجتمع الفرس واجتمعوا - الا قليلا منهم - على رفض

العروبة والتعرب ، واتخذوا موقف العداء ظاهرا أو مستترا، من الدولة العربية.. وتراوحت مواقفهم، اعتدالا أو تطرفا، داخل هذا الإطار الذى جمعهم جميعا: فالمعتدلون منهم رحبوا بالاسلام، كدين، ورفضوا العروبة، قومية ودولة.. والمتطرفون من بينهم رفضوها معا، اذ ربطوا بين العروبة والاسلام.. وكانت «الشعوبية» سلاحهم واطار تحركات فرقائهم أجمعين.. وكانت منطقتهم هذه الموطن الوحيد الذى ظهرت وازدهرت وعاشت «الشعوبية» فيه!..

واذا كانت الشعوبية تعنى : تحقير العرب، والازدراء بكل ما هو عربى، وتجريد العرب من أى فضل أو ميزة، فضلا عن أى امتياز (٢) .. فإن منهم، كما قلنا، الذين اعتدلوا في رفضهم للعرب والعروبة، فلم يجردوا العرب من كل الميزات، ولكنهم جردوهم من «الفضل»، وقالوا ان العرب ليسوا «شعبا» ، أى ليسوا أمة ولا قومية، ولكنهم مجرد «قبائل» ، أما الفرس فانهم «شعب» من «الشعوب» ، وطالبوا أن تقف العلاقة بين «الشعب» الفارسى «المسلم» وبين «القبائل» العربية «المسلمة» عند حدود «التعارف»، ولا الوحدة ولا الاندماج السياسى والادارى والقومى والحضارى، واستشهدوا لموقفهم هذا بقول الله سبحانه : (ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان أكرمكم عند الله أتقاكم) (٣) .. فهم دعاة مساواة، على اساس من الاسلام، وهم رافضون لفضل العرب وامتيازهم، ومن ثم رافضون لدخول الفرس في إطار التبعية للدولة العربية، ولتولى العرب زمام القيادة، بدلا منهم، في المنطقة..

(٢) انظر: ابن منظور (لسان العرب) طبعة القاهرة. والزغنى (أساس البلاغة) طبعة

القاهرة سنة ١٩٦٠م.

(٣) الحجرات : ١٣.

أما التيار الشعوي الأكثر غلوا فهو الذي لم يقف أصحابه عند حد انكار فضل العرب وامتيازهم، بل ذهبوا الى تحقير العرب وتجريدهم من كل الفضائل، وهم في سبيل ذلك حقروا، لا تاريخ العرب فقط، بل واقعهم وحاضرهم، الفكري منه والمادي، فرأينا من يحقر، بل ويهجو: الجمل، لأنه حيوان الصحراء العربية! وكذلك النخلة! والعصا التي يعتمد عليها خطباء العرب وهم يخطبون! والبداهة والارتجال عند الخطباء! وكذلك أطعمة العرب وأزياءهم.. الخ.. الخ.. بينما يفضلون ويمدحون كل ما هو غير عربي، وبالذات ما كان فارسيا.. ويعيدون ويبالغون في الحديث عن اذلال ملوك الفرس للعرب عبر التاريخ القديم.. ويعثون عقائد الفرس الدينية القديمة - الزرادشتية والمانوية والمجوسية - ويحاولون ادخالها في عقائد الاسلام.. يستخدمون الشك والمجون اسلحة يوهنون بها الدين عند العرب المسلمين.. ولقد استهدف هذا التيار، من تيارات الشعوية، لا المساواة بين الفرس والعرب، ولا حتى انفصال الفرس عن العرب، سياسيا واداريا، بل تحطيم الدولة العربية، واعادة العرب الى وضع التبعية للفرس وتسليم زمام القيادة بالمنطقة للفرس ثانية كما كان الحال قبل الاسلام.. ولقد اصبحت هذه الشعوية، بهذا المضمون، «دينا» يتدين به هذا التيار الفارسي، دين تدور عقائده وشعائره حول محور: بغض العرب بل وقتلهم!.. حتى لقد صدق نصر بن سيار (٤٦ - ١٣١ هـ - ٦٦٦ - ٧٤٨ م) عندما قال عنهم، انهم:

قوم يدينون دينا ما سمعت به	عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فن يكن سائلا عن أصل دينهم	فان دينهم : أن تقتل العرب (٤)!

(٤) عبد الصاحب الدجلي (الشعوية) ص ١٤ طبعة النجف سنة ١٩٦٠ م.

ومن يتأمل كلمات قحطبة بن شديد التي خطب بها اهل خراسان سنة ١٣٠ هـ يستعديهم فيها ضد العرب يجد مصداق ما نقول.. قال لهم: «يا أهل خراسان، هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين.. حتى استولت عليها أذل أمة كانت في الأرض عندهم، فغلبوهم على بلادهم، واستنكحوا نساءهم، واسترقوا أولادهم.. والآن سلطكم الله عليهم، فاطلبوهم بالثأر، وانتقموا منهم، ليكونوا اشد عقوبة!..(٥).

وكانت رأس الحربة الشعبية مصوبة الى دولة بني أمية في الأصل والأساس، ففي بني أمية كانت تتمثل يومئذ عصبية العرب، التي كانت تغالى، تاريخيا، في تفضيل العرب على غيرهم، وتلجأ كثيرا الى نعرات العصبية والتعصب العربى ضد غير العرب، ثم انهم هم الممثلون لأشراف العرب وملاأ قريش القدماء، وكما يقول ابن خلدون فان عصبية قريش تركزت في مضر، وعصبية مضر تركزت في الأمويين!..(٦) كما ان قيام الدولة الأموية بالشام، حيث البيئة العربية الخالصة، وحيث أشرف العرب الذين نصروا معاوية بن ابى سفيان (٢٠ ق . هـ - ٦٠ هـ - ٦٠٣ - ٦٨٠ م) ضد على بن ابى طالب في الصراع على الخلافة، وتركز الموالى في المشرق، بالعراق وفارس، حيث المناطق التي ناصرت عليا في هذا الصراع، قد زاد من فقدان الثقة بين بني أمية وجموع الموالى.. ومن هنا نستطيع ان نفهم معنى الكلمات التي بعث بها الداعية العباسى، المناهض لبني أمية، والمتحالف مع التيار الشعبى : ابراهيم بن محمد بن على بن عبدالله بن

(٥) ابن ابى الحديد (شرح نهج البلاغة) ج٥ ص ٢٩٣. تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم.

طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م.

(٦) (المقدمة) ص ١٧١.

العباس (٨٢ - ١٣١ هـ - ٧٠١ - ٧٤٩ م) الى ابي مسلم الخراساني (١٣٧ هـ - ٧٥٥ م) والتي تقول: «ان استطعت الا تدع بخراسان احدا يتكلم بالعربية الا وقتلته فافعل.. وعليك بمضر، فانهم العدو القريب الدار، فأبد خضراءهم، ولا تدع على الأرض منهم دياراً؟!» (٧). .. وأخيراً فلقد كانت السلطة السياسية، يومئذ، بيد بني أمية، فكان حتماً أن توجه اليهم وإلى دولتهم وإلى عصبيتهم العربية رأس الحربة ونصل الخنجر وكل ما في ترسانة الشعوبية من أسلحة وأدوات قتال ..

وكرد فعل للغلو الشعبي، واتساقاً مع العصبية العربية التقليدية لبني أمية، ذهب الأمويون في عدائهم لغير العرب إلى نهاية الشوط وطرف الخيط وآخر الطريق ..

وشهدت ساحة الدولة والمجتمع العربي الوقائع والمظاهر لأعظم التحديات التي واجهت انجاز الاسلام والدولة العربية الأولى على درب الفكر القومي المستنير والتآلف والوحدة بين ابناء الدولة الجديدة.

❖ فالشعوبيون يصعدون تدمير الموالى واحتجاج فقراء العجم حتى لا يقف عند طلب العدل والانصاف، وانما يذهب إلى طلب فهم وحدة الدولة، وتأريث العداوة والبغضاء لا للسلطة الأموية العربية فقط، وانما لكل ما هو عربي! ..

❖ والأمويون يسقطون اسماء الموالى من ديوان العطاء.. ويشركونهم في الحرب مشاة محرومين من شرف الفرسان.. ويجعلون من جوعهم وقوداً في المقدمة بحجة الحيلولة بينهم وبين الفرار!

ويظلون يجمعون الجزية- رغم ضآلتها المالية، ولكن للاذلال - ممن دخل الاسلام من هؤلاء الموالى، رغم تعارض ذلك مع شريعة الاسلام... ..

(٧) (تاريخ الطبري) ج ٩ ص ١٢٣. و(شرح نهج البلاغة) ج ٣ ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

ويفتحون الباب لسادة العرب وأشرفهم فيشترون أرض الخراج الجيدة - وهو الأمر الذي يخالف التنظيم الذي وضعه لها عمر بن الخطاب، عندما أقر فيها أهلها نظير الخراج - وذلك على الرغم من الأثر السلبي لذلك على خزانة الدولة، لأنها تتحول بملكية العرب لها من ضريبة الخراج الى ضريبة العشر، وهى اقل من ضريبة الخراج!.. فاذا ما غادر الموالي قراهم الى المدن التي يسكنها العرب رأينا واليا أمويا مثل الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ - ٩٥ هـ - ٦٦٠ - ٧١٤ م) يجمعهم، ويحضر أختام الحديد المحساة في النار فيختم بها أقفيتهم، علامة اذلال تتحدد فيها قراهم كي يلزموها ولا يغادروها، قائلا لهم: «أنتم علوج وعجم، وقراكم أولى بكم»!.. بل لقد بلغ الحجاج في التعصب ضد الموالي الى حد منع المسلم منهم أن يصلى اماما اذا كان خلفه عرى في الصلاة!.. والى حد التفريق، بالطلاق، بين المرأة العربية وزوجها اذا تزوجت مسلما غير عرى!.. ووجدنا رجلا مثل نافع بن جبير (٩٩ هـ - ٧١٧ م) اذا مامرت به جنازة، سأل: من هذا، فان قالوا: قرشى، قال: واقوماه! واذا قالوا: عرى، قال: وابلدناه!، واذا قالوا: مولى، قال: هو مال الله، يأخذ ماشاء ويدع ماشاء؟!.. وشاعت بين الناس الحكم والأمثال التي تحقر من الموالي وتزرى بهم، من مثل قولهم: «لا يقطع الصلاة الا ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى (٨)»!.. الخ.. الخ.. وبعد أن رسخ الاسلام وتراث العرب في صدر الاسلام مبدأ المساواة بين الناس، وحصر التفاضل بينهم في التقوى والعمل الصالح، وجدنا من يخص هذه المساواة بالدار الآخرة، وتجاهلوا قول الرسول، صلى الله عليه وسلم: «الناس سواسية كأسنان المشط، لافضل لعرى على عجمي الا بالتقوى»، بل وقرروا ما هو مضاد لمعنى هذا الحديث، فقالوا: «ان العرب اذا ذمت قوما قالوا: سواسية

(٨) ابن عبد ربه (العقد الفريد) جـ ٣ ص ٤١٣ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

كأسنان الحمار»!..(٩) حدث ذلك ومثله كثير، رغم فكر الاسلام، الذى بشر به الرسول، فى المساواة، ورغم تراث التجربة العربية الاسلامية فى دمج الموالى بذوى الاصول العرقية فى كل قومية واحد، ورغم ماتحقق فى هذا الميدان من نجاح.

* ولقد لعب الموقف الاجتماعى دوره فى هذه القضية، فوجدناه «سادة» العجم و «اشراف» الموالى متحالفين مع الدولة الاموية، يساندون ظلمها لجمهور الموالى والأعاجم، لأنهم يقتسمون الثراء المجموع، او على الأقل ينالهم منه نصيب، ولأنهم - كما - قدروا - سيستفيدون من الاضطهاد اذا هو تصاعد فدفع الموالى الى فصم وحدة الدولة، وعند ذلك يعود هؤلاء «السادة» قادة وسادة فى الملك الفارسى من جديد، كما كانوا فى القديم!.. ولم ينتبه متعصبو العرب الى خبث الدهاقين هذا، فرأينا منهم من يصب ذمه وعداءه على «عمامة» الموالى، ثم يمدح «السادة والاشراف».. ويعبر ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦هـ - ٨٢٨ - ٨٨٩م) عن رأى أصحاب هذا الموقف عندما يقول : «.. ولم أر فى هذه الشعوبية ارسخ عداوة ولا اشد نصبا للعرب من السفلة والحشوة واوباش النبط وأبناء أكرة - (اجراء) القرى، فأما اشراف العجم وذوو الأخطار منهم وأهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم، ويرون الشرف نسبا ثابتا»؟! (١٠) ..

* وتصارعت فى ساحة الفكر، بالمجتمع، مؤلفات عن «فضل العرب» و «فضائل» مع تلك المؤلفات الشعوبية عن «مثالب العرب» و «نقائصهم»!...

(٩) ~ (العقد الفريد) ج ٣ ص ٤٠٩.

(١٠) (كتاب العرب) ص ٢٧٠، منشور ضمن (رسائل البلغاء).

• وضاعت الحقيقة، أو كادت، بين عصبية العرب وتعصب الشعوبيين.. وكادت، لهذا كله أن تنطمس المعالم التي ارستها على طريق الوحدة القومية تجربة الخلافة الراشدة في التآليف بين أبناء الدولة الواحدة، على اختلاف أصولهم العرقية ومواريتهم الحضارية، وكادت، لهذا كله أيضا، أن تنطفئ الشعلة المقدسة التي أوقدها الاسلام على هذا الطريق... وكادت، ايضا أن تتمزق وحدة الدولة، ويتكسر الفكر القومي، ويضل الناس طريقهم الى التآلف والاندماج، وتعود العصبية العربية الجاهلية فتقسم وزر هذه الانتكاسة مع التعصب الأعمى للشعوبية والعشوبيين..

لكن الساحة لم تكن وقفا على هذين التيارين، ولم تكن مقصورة على هذين اللونين من ألوان الفكر..

• ففي الميدان الاجتماعي قامت ثورات عدة، ضد مظالم بني أمية واستبدادهم بالسلطة، شارك فيها العرب والموالي على السواء، وانتفى منها الحس العنصري، وألفت بين العرب والموالي فيها وحدة الموقف الاجتماعي، والاشتراك في المصالح، والانطلاق من العوامل والظروف الكثيرة التي كانت قائمة في المجتمع تؤلف وتجمع بين مواطني هذه الدولة، بصرف النظر عن الأصول العرقية والمواريت الحضارية.. فلم يكن واقع المجتمع - لحسن الحظ - قاصرا على العوامل التي تفرق وتمزق، بل كان زاخرا بالفكر الذي يسوى ويؤلف، وبالمصالح التي تجمع وتوحد، بل وبالأخطار التي لا يمكن دفعها عن الجميع الا اذا اتحد الجميع.. ومن هنا كانت الأرضية التي انطلق من فوقها تيار آخر، غير هذين التيارين اللذين غرقا في التعصب والعصبية..

فالشيعية، وهي واحدة من حركات المعارضة لبني أمية، ضمت كلا من العرب والموالي، وان كانت غلبة الموالى والأعاجم على تركيبها، في

بعض المناطق وبعض الفترات، قد جعل صوتها القومى خافتا بعض الشيء، وحسها العربى ليس بالوضوح المنتظر والمطلوب ..

وتيار من المرجئة، وهو التيار الذى عارض بنى أمية، قد انخرط في ثوراته على العرب والموالى على السواء.. حدث ذلك في الثورات التى قامت في «السفد»، بالقرب من سمرقند، وفي «بخارى»، وفي «البصرة».. وهى الثورات التى شارك فيها عدد غير قليل من فقهاء ذلك التاريخ - (القراء).. ووضح ذلك ايضا في ثورة عظيم الأزد الحارث بن سريج (١٢٨هـ - ٧٤٦م) ضد هشام بن عبد الملك (٧١ - ١٢٥هـ - ٦٩٠ - ٧٤٣م) وهى الثورة التى اندلعت سنة ١١٦هـ (١١)...

والخوارج : تحققت في تنظيماتهم وجماهير فرقهم وجيوشهم الثائرة المساواة التامة والتآلف والتأليف بين الناس، بصرف النظر عن الأصول العرقية والمواريث الحضارية، حتى لقد رأيناهم ينصبون واحدا من الموالى اميرا للمؤمنين عليهم، وهو ثابت التماس الذى عقدوا له البيعة بامارة المؤمنين بعد امامهم نجدة بن عامر الحنفى (٣٦ - ٦٩هـ - ٦٥٦ - ٦٨٨م) (١٢).

وكذلك المعتزلة، الذين جاء تنظيمهم منذ نشأته الأولى تجسيدا يترجم عن العوامل والمصالح المشتركة التى تربط مجموع المواطنين في الدولة العربية، ويعلن ان دواعى التآلف والتأليف القومى أكبر وأخطر واعظم من اسباب التنافر العرقى والتمزق القومى.. فاثنان من أبرز قادة المعتزلة ومؤسسى مدرستها وتنظيمها، وهما: واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١هـ - ٧٠٠ - ٧٤٨م) وغيلان الدمشقى (بعده ١٠٥هـ - ٧٢٣م) تلقيا الفكر والعلم في بيت عربى هو بيت محمد بن الحنفية - بن على بن ابي طالب - (٢١ - ٨١هـ - ٦٤٢ - ٧٠٠م).

(١١) انظر كتابنا (الحلقة ونشأة الأحزاب الاسلامية) ص ١٦٩ - ١٧٢.

(١٢) المرجع السابق. ص ١٤١.

ولكنها كانا من الموالى... وعدد كبير من طلائع المعتزلة وقادتها وأئمتها كانوا من الموالى كذلك، ويكفى أن نذكر منهم:

* أبو عثمان عمرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٤ هـ - ٦٩٩ - ٧٦١ م) وهو من موالى بنى العدوية..

* وأبو بكر محمد بن سيرين (١١٠ هـ - ٧٢٨ م) وكان مولى لأنس بن مالك..

* وأبو محمد عمرو بن دينار (١١٥ هـ - ٧٣٣ م) وكان من موالى جمع..

* وهشام بن أبي عبدالله الدستوائي (١٥٣ هـ - ٧٧٠ م) وهو من موالى بنى سدوس..

* ومكحول الدمشقي (١١٣ هـ - ٧٣١ م) وكان مولى لامرأة من هذيل..

* وأبو عبدالله محمد بن اسحاق (١٥١ هـ - ٧٦٨ م) وكان مولى لقيس بن مخزومة بن عبدالمطلب ابن عبدمناف.

* وأبو الهذيل العلاف (٢٣٥ هـ - ٨٤٩ م) وهو من موالى عبدالقيس..

* والجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ - ٨٦٨ م) وكان مولى لأبي القلمس عمرو بن قلع الكنانى ثم الفقيمي (١٣)..

* وأبو الفتح عثمان بن جنى (٣٩٢ هـ - ١٠٠١ م) وكان أبوه مملوكا روميا لسليمان بن فهد الأزدي الموصلى (١٤).

ففي هذه المدرسة الفكرية، التي ضمت العديد من الموالى، والتي لعب دورا بارزا في قيادتها، فكرا وتنظيما، عدد كبير من الموالى، في هذه المدرسة تجسدت معالم التيار الفكرى الثالث، الذى رفض عصبية بنى أمية،

(١٣) انظر في هذه الأسماء وغيرها: المرجع السابق. ص ٢٠٠ - ٢٠٢.

(١٤) انظر كتابنا (نظرة جديدة الى التراث) ص ٦٧ وما بعدها طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م.

ذات الطابع الجاهلي، وتعصب الشعبوية العرقى، وقدم للحركة الفكرية العربية بواكير الفكر القومى، فى صياغاته الحضارية والانسانية والمستنيرة، وكان بذلك المعبر عن نماء البذور الأولى التى ألقى بها الفكر الإسلامى النقى فى هذا الميدان..

وعلى سبيل المثال:

فعلى حين كانت الشعبوية تنتقص من قدر لغة العرب، وتعالى من قدر الفارسية، نجد ابن جنى يقدم فى كتابه (الخصائص) أروع وأعمق دفاع موضوعى عن العربية، ويضع يدنا على الكثير من الأسرار التى تركها وتفسر أهليتها وجدارتها بما بلغت فى ذلك التاريخ كلغة للدين والفكر والفلسفة والعلوم، فى الامبراطورية الغربية، وخارجها.. (١٥).

أما الجاحظ فأننا واجدون عنده بواكير الصياغات النظرية للفكر العربى، بمضمونه الحضارى والانسانى والمستنير، حتى ليحسب المرء أنها من ثمرات العقل المستنير فى عصرنا الحديث!.. فهو:

أولاً : يهاجم التطرف ويدين طرفى النقيض :

فهو يجذله وحواره مع أطراف الصراع حول هذه القضية يحدد بوضوح أنه يمثل موقفاً ثالثاً وتياراً متميزاً غير الموقفين والتيارين اللذين غطى غبار فكرهما ساحة المجتمع العربى عندما أصبحتا طرفى نقيض فى العصبية والتعصب.. فهو يهاجم ويدين كلا من تعصب الشعبوية ضد كل ما هو عربى، وعصبية العرب على كل ما ليس بعربى.. فيتحدث عن الشعبوية قائلاً: ... واعلم أنك لم ترقوما أشقى من هؤلاء الشعبوية، ولا اعدى على

(١٥) المرجع السابق. ص ٩١-١٠١.

دينه، ولا أشد استهلاكا لعرضه، ولا أطول نصبا - (عداوة) - ولا أقل غنا من أهل هذه النحلة.. وقد شفى الصدور منهم طول جسوم الحسد على اكبادهم، وتوقد نار الشنآن - (العداوة والبغضاء) - في قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفائرة، وتسعرتلك النيران المضطربة.. (١٦).

وهو يكشف، ساخرا، عن مدى الغلو الذى بلغته الشعوبية فى عدايتها لكل ماله صلة بالعرب، حتى لقد سفهت من نمط معيشتهم والأدوات التى يستعملونها فى حياتهم، والنباتات التى تطيق أرضهم وتحسن صحرؤاها زراعتها!.. وجعلت من هذه الأشياء رموزا قومية صيرتها أهدافا فى الصراع.. فيقول : «.. وبعد، متى صار اختيار النخل على الزرع يحقد الاخوان؟! ومتى صار تقديم النحلة ملة؟! وتفضيل السنبلة نحلة؟! ومتى صار الحكم للنحلة نسبا، وللكرمة صهرا؟! ومتى تكون فيه ديانة، وتستحكم فيها بصيرة، ويحدث عنها حمية؟!.. (١٧)

ثم يعيب على الشعوبية جهلهم الذى قادهم اليه التعصب والذى جعلهم يغفلون عن العلاقات الطبيعية بين بيئة كل أمة ومواريتها وملابسات حياتها وبين مآلها من تقاليد وعادات.. فالفهم الواعى لأسباب الظواهر والطبائع يضع ايجابيات الأمم فى اطارها ويكشف عن الأسباب الحقيقية لما لها من عيوب وسلبات.. فالشعوبيون «لو عرفوا أخلاق كل ملة، وزى كل لغة! وعللهم فى اختلاف اشاراتهم وآلاتهم وشماثلهم وهياتهم، وماعلة كل شىء من ذلك؟ ولم اختلقوه؟ ولم تكلفوه؟ لأراحوا أنفسهم، ولخفت مؤونتهم على من خالطهم!.. (١٨).

(١٦) (البيان والتبيين) ج ٣ ص ٤٠٥ . طبعة بيروت سنة ١٩٦٨ م.

(١٧) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٢٤٠ . تحقيق عبدالسلام هارون. طبعة القاهرة سنة

١٩٦٤ م.

(١٨) (البيان والتبيين) ج ٣ ص ٤٠٦.

وهو يدين العصبية والتعصب، وينبه على اثره المدمر لكل من الدين والدنيا.. ويشير الى ما وقع فيه العجم من العصبية الشعبوية على العرب، والى ما وقع فيه بعض الموالى - (الذين تعربوا) - من تعاليهم على كل من العجم، الذين لم يتعربوا، وعلى العرب ايضا، لأن هؤلاء الموالى رأوا أنهم قد جمعوا ميراث العجم الى عروبة العرب فافتخروا على الفريقين!.. وهو، يعيب، كذلك، مفاخرة العرب بالأنساب، وما تجلبه من الشر والفساد.. فيستحدث مهاجما «العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم، والحمية التي لا تبقى ديننا الا أفسدته، ولادنيا الا أهلكتها.. وهو ما صارت اليه العجم من مذهب الشعبوية، وما قد صار اليه الموالى من الفخر على العجم والعرب.. وليس أدعى الى الفساد ولا أجلب للشر من المفاخرة بالأنساب..» (١٩).

ومن منطلق العلماء عندما يبصرون طبائع الناس وخصائص الأمم ومميزات الأقوام.. ومن موقع الحرص على التأليف القومى بين الذين جعلتهم الفتوحات يستظلون براية دولة واحدة، ثم فتحت أمامهم امكانيات تطور متحد.. من هذا المنطلق وذلك الموقع ينبه الجاحظ على ذلك الخطأ الذى غرق فيه وأغرق طرفا الصراع: الشعبويون متعصبو العرب، عندما زعم كل طرف ان عرقه وجنسه وأرومته هي المحتكر الاول والأوحد لمحاسن الصفات وحميد الأخلاق والجيد من المميزات، ذلك ان المحاسن والمساوىء، والطيب والردىء، صفات توزعت في الناس جميعا والأمم جمعاء، ولم ولن توجد الامة الخالصة في المحاسن ولا تلك الخالصة للعيوب، ومن ثم فان التفاضل بين الأمم انما يكون بغلبة صفات الخير على صفات الشر، وكثرة الطيبات على السيئات، فالصفات، بنوعها فيض مشاع، وفي التوجه نحو الطيب كثيرا والتجنب للخيث غالبا فلتتنافس الامم والشعوب، كل الامم والشعوب..

(١٩) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٢٠، ج ٢ ص ٢٢.

«فلقد اجتمعت الانس على الصورة، وأقروا بتفريق الأمور المحمودة والمذمومة، من الجمال والدمامة، واللؤم والكرم، والجبن والشجاعة، في كل حين، وانتقالها من أمة الى أمة، ووجود كل محمود ومذموم في اهل كل جنس من الآدميين، فلكل نصيب من النقص، ومقدار من الذنوب، وانما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوىء، فأما الاشتمال على جميع المحاسن، والسلامة من جميع المساوىء دقيقتها وجليلها، وظاهرها وخفيها، فهذا لا يعرف!..(٢٠).

وهو هنا يقول، أيضا، لطرفي النقيض في هذا الصراع ان ما لكل منها من ميزات حقيقية من الممكن ان يتخلق بها الآخر، وخاصة بعد أن أتاحت لها الدولة الواحدة وجود وعاء للتفاعل القومي والحضارى «فانتقال الصفات من أمة الى أمة» حقيقة واردة، ومن ثم فهي طريق مفتوح للتألف والتأليف..

هكذا أدان الجاحظ، ممثلا لتيار فكرى قومى جديد، كلا من طرفي النقيض في ذلك الصراع القومى : تعصب الشعوبية، والعصبية العربية.. على السواء...

وثانيا : يرى في الانصهار القومى استجابة لضرورات موضوعية والجاحظ، ممثلا لهذا التيار القومى، لا ينطلق الى دعوته التأليفية بين العناصر المتصارعة على ساحة الدولة والمجتمع من منطلق «الفكرة» المثالية الخيرة، أو الحلم المثالى - (الطوبائى) وانما يبصر، فى عمق، العوامل الموضوعية الجديدة التى نمت وتنمو فى ذلك الواقع الجديد.. فعصبية العرب

(٢٠) المصدر السابق. ج ١ ص ١٢٦، ٣٧.

تحيسى نعرات الجاهلية وتكبرها، وذلك بعد أن أدانها الاسلام وشجبها الفكر القومى الذى بذر في تربية الدولة العربية منذ عهد الرسول، عليه الصلاة والسلام، وبعد أن تجاوزتها تطورات مامر بالعرب منذ ذلك التاريخ من أحداث - والتعصب الشعبى يقف عند مجد الدولة الاقطاعية الساسانية، وينطلق من حمة الثأر لنظام كان نكبة على الساسانيين والفارسيين بمقدار ما كان قيدا على العرب والشرقيين أجمعين، وبجاهد ليحيى ديانته لا ترقى الى عشر معشار ما يمثله الاسلام من رقى في العقيدة والشريعة لا يدانيه فيها دين من الأديان.. يقف الطرفان، كلاهما، عند أطلال الماضى، وينطلقون الى تعصبهم وعصبيتهم منها، جاهلين أو متجاهلين العوامل الموضوعية، والأخطار الخارجية التي تهيب بالجميع أن يأتلفوا، والتي تجعل من الانصهار القومى استجابة منطقية لضرورات موضوعية، وليس مجرد «دعوة صالحة» وحلم مثالى جميل..

فلقد ولدت في هذا المجتمع ظروف موضوعية جديدة.. وهى ظروف تأليف وتآلف وجمع وانصهار.. وهى ظاهرة موضوعية، ولدت وتنمو على حساب عوامل التمزق والتغاير والتخالف التي تمثل مواريث الماضى، والتي تتجه نحو التقلص والشحوب والذبول.. صحيح ان فروقا لا تنكر لا تزال قائمة، وتناقضات لا تجحد لا تخطوها العين الفاحصة الباحثة، ولكن لنضع كل ذلك في حجمه الصحيح.. ثم لنتنبه أن عدوا لوحدة هذه الأمة ينفخ في أسباب الاختلاف ويدفع في اتجاه الافتراق.. يحدثنا الجاحظ عن ذلك في مقدمة كتابه (مناقب الترك) باعتباره الغرض من تأليف هذا الكتاب، فيقول : « وكتابتنا هذا انما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم التي كانت مختلفة، ولنزيد الألفة ان كانت مؤتلفة، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم، ولتسلم صدورهم، وليعرف من كان لا يعرف

منهم موضع التفاوت في النسب، وكم مقدار الخلاف في الحسب، فلا
يغير بعضهم مغير، ولا يفسده عدو بأبطل مموهة وشبهات مزورة، فإن
المنافق العليم، والعدو ذا الكيد العظيم، قد يصور لهم الباطل في صورة
الحق، ويلبس الاضاعة في ثياب الحزم؟! .. (٢١).

وكما قلنا، فهو لا ينكر الفروق والفوارق بين الجماعات التي كانت
على عتبة الانصهار القومي، وفي مراحلها الاولى، والتي كانت العصبية
والتعصب يجاهدان لردّها عن هذا الطريق.. ولكنه يضع هذه الفروق في
اطارها وحجمها، بل ويدعو الى اتخاذ هذا «التعدد» كميزة، تثرى حياة
هذه الجماعات، وتغنى قسماؤها المشتركة الوليدة، بالتنافس، بدلا من
التناحر.. ذلك انهم اذا عرفوا ما بينهم من تمايز، وما يجمعهم من روابط،
وأبصروا اتجاه حركة نمو «الظاهرة».. ساحت النفوس، وذهب التعقيد،
ومات الضغن، وانقطع سبب الاستئفال، ولم يبق الا التنافس!.. (٢٢).

وفي سبيل وضع الفروق والخصائص الخاصة والمميزة لتلك
الجماعات التي تألفت منها رعية الدولة يومئذ في حجمها الحقيقي، وفي سبيل
الثنائية على غلبة عوامل الاتفاق والتآلف، في سبيل ذلك سلك الجاحظ
دربا لعل الكثيرين من الدارسين لم يفتنوا اليه، فهو قد ألف عددا من
الرسائل، خصص كل واحدة منها للانتصار لطائفة من الطوائف ولتفضيل
جماعة من الجماعات.. وذلك مثل : (مناقب الترك) و (فخر السودان على
البيضان) و (مفاخرة قحطان) و (تفضيل عدنان) .. الخ .. الخ ... حتى
ليحسب البعض ان الرجل اما كان متناقضا، لأنه فضل الجنس ونقيضه

(٢١) المصدر السابق. ج ١ ص ٢٩.

(٢٢) المصدر السابق. ج ١ ص ٣٤.

والجماعة وغرعتها! أو أنه كان «سوفسطائيا» - بالمعنى الدارج - يحتاج للأشياء ونقائضها!.. ولكننا نبرئه من كلا الظنين، ونراه قد سلك هذا الدرب ليثبت لنا، في النهاية، أن كاتباً قديراً وفيلسوفاً مقتدراً مثله يستطيع أن يبرهن على أن الفضل والفضائل هي من نصيب كل جماعة من هذه الجماعات وكل جنس من هذه الأجناس.. وعندما يحدث ذلك، فلا بد لصاحب الرؤية الشاملة والنظرة التي ترى الظواهر من زواياها المختلفة والمتعددة من أن يتساءل: إذا كان لكل فضل، وإذا كانت الفضائل في الجميع، فإن الحقيقة الموضوعية لا بد وأن تكون مع التآلف والائتلاف، للاشتراك في الفضائل، ولشيوعها في الأمم والأجناس والجماعات، ولا بد أن تكون هذه الحقيقة الموضوعية ضد أولئك الذين يتوهمون الفضائل حكراً لفريق، والردائل وقفاً على فريق آخر!..

وثالثاً : يعلن عن ولادة قومية جديدة وجامعة

وإذا كان طرفا النقيض المتعصبان يقفان عند الماضي المتخلف.. وإذا كانت هناك ظروف موضوعية جديدة وجدت وتوجد ونمت وتنمو في هذا المجتمع الواحد - كما نبه على ذلك الجاحظ - وإذا كانت هذه الظروف الموضوعية الجديدة، تنمو، كظاهرة، على حساب الماضي المتخلف.. فإن الجاحظ ينتهي من ذلك إلى تسليط الضوء على الآثار النامية والتأثيرات المتزايدة للقسمات المشتركة والسماوات المتحدة التي أخذت تجمع أبناء المجتمع كلهم، بصرف النظر عن العرق والجنس.. وهو هنا يصل إلى قمة المضمون الانساني والحضاري والمستنير الذي جعله محتوى للفكر القومي الذي قدم بواكير صياغاته النظرية في تراثنا.. فهو يرفض «العرق والجنس» معياراً

«للقوم والقومية»، ويتحدث عن العادات والتقاليد والشماثل وعن اللغة، وعن الولاء للقوم وفكرهم وحضارتهم.. الخ.. يتحدث عن هذه الأشياء والقسمات، باعتبارها الروابط والسمات القومية البديلة لوحدة العرق والجنس، بل وباعتبارها أقوى من وحدة العرق والجنس.. فهذه السمات التي ولدت ونمت في المجتمع العربي، والتي ربطت وألفت بين جماعات عرقية متعددة، قد أصبحت بمثابة «الرحم» الواحد، الذي ولدت منه هذه «الجماعات»، بل «الجماعة» الواحدة ولادة جديدة.. وبذلك أصبحوا «كلا قوميا واحدا»، على حين ابتعدت بهم هذه السمات، قوميا، عن اخوة لهم في النسب لم يكتسبوا مثلهم تلك السمات ..

فالعرب العدنانيون، أبناء اسماعيل بن ابراهيم، هم اخوة في النسب والعرق للبرانيين، أبناء اسحاق بن ابراهيم .. (عليهم السلام) والعدنانيون ليسوا اخوة في النسب والعرق للعرب القحطانيين .. ومع ذلك فان «تعرب» اسماعيل ونسله، قد جعلهم مع القحطانيين جماعة واحدة وامة متحدة تجمعهم جميعا العادات والتقاليد واللغة والثقافة والولاء.. الخ.. الخ.. وليس ذلك حالهم في الروابط والارتباط مع بني عموميتهم في النسب من البرانيين.. فليس العرق والنسب معيارا للقومية، ولا هو من قسماتها وشروطها.. ومن ثم فان الباب واسع والدرب عريض أمام الانصهار القومي والوحدة القومية لهذه الجماعات التي تؤلف المجتمع العربي والرعية في الدولة العربية، لأنهم وان افتقروا الى وحدة العرق والنسب، فان في القسمات التي نمت وتنمو مؤلفة بينهم رحما جديدا وواحدا، يولدون جميعا منه ولادة جديدة، كقومية واحدة، مبرأة من عصبية العروق والأجناس ...

يحدثنا الجاحظ عن هذه القضية الهامة، ويقدم لنا صياغته النظرية لها عندما يقول: «ان العرب قد جعلت اسماعيل، وهو ابن

اعجميين، عربيا، لان الله فتح لهاته (٢٣) بالعربية المبينه، ثم فطره على الفصاحة، وسلخ طباعه من طبائع العجم.. وسواه تلك التسوية، وصاغه تلك الصياغة، ثم حباه من طبائعهم ومنحه من أخلاقهم وشمائهم، وطبعه من كرمهم وأنفهم وهمهم على أكرمها.. فكان أحق بذلك النسب وأولى بشرف ذلك الحسب.. وان العرب لما كانت واحدة فاستووا في التربية وفي اللغة والشماثل والهمة وفي الأنف والحمية، وفي الاخلاق والسجية، فسبكوا سبكا واحدا، وكان القالب واحدا، تشابهت الاجزاء وتناسبت الاخلاط، وحين صار ذلك أشد تشابها في باب الأعم والأخص، وفي باب الوفاق والمباينة من بعض ذوى الأرحام، جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب، وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى، حتى تناكحوا عليها وتصاهروا من أجلها، وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بنى اسحاق، وهو أخو اسماعيل، وجادوا بذلك في جميع الدهر لبني قطحان، وهو ابن عابر.. ففي اجماع الفريقين على التناكح والمصاهرة، ومنعهما من ذلك جميع الامم، كسرى فما دونه، دليل على أن النسب عندهم متفق، وأن هذه المعاني قد قامت عندهم مقام الولادة والارحام الماسة.. وان الموالى بالعرب اشبه، واليهم اقرب، وبهم أمس، لأن السنة جعلتهم منهم.. ان الموالى أقرب الى العرب في كثير من المعاني، لأنهم عرب في المدعى والعاقلة - (العصبية) - وفي الوراثة، وهذا تأويل قول الرسول : «مولى القوم منهم» و«مولى القوم من أنفسهم» و«الولاء لحمه كلحمه النسب».. وعلى شبيه ذلك صار حليف القوم منهم، وحكمه حكمهم» (٢٤)..

هكذا طرح الجاحظ القضية.. وهكذا أعلن ميلاد الشخصية

(٢٣) اللهاة : جزء من أقصى سقف الفم، مشرف على الحلق.

(٢٤) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٢٩ - ٣١، ١١ - ١٤.

القومية العربية الجديدة.. وهكذا نضع يدنا، في صياغاته النظرية هذه، على الشجرة النامية المثمرة، تلك التي وضع بذرتها في تربة الدولة العربية الرسول، صلى الله عليه وسلم، عند ظهور الاسلام.. فالعرب والعروبة ليست عرقا ولا جنسا.. وانما هي حضارة وولاء وسمات تؤلف وتجمع أولئك الذين يمنحون ولاءهم لهذه الحضارة وتلك السمات، وذلك بصرف النظر عن العرق والجنس والدين..

لكن.. لابد من سؤال : لماذا كانت مبكرة تلك النشأة للشخصية القومية العربية، بالقياس الى أمم كثيرة؟؟..

وهنا لابد، كي نجيب ، من الاشارة الى عدد من الحقائق..

• فالتيار الفكري الذي تصدى لعصية الشعوبية وتعصب النعرة العربية الجاهلية، وقدم في صراعة معها، بواكير الصياغة النظرية للفكر القومي بترائنا، كان هو ذات التيار الذي أعلى من شأن العقل وانتصر له وجعله سيدا وحكما بالقياس الى النصوص والمأثورات.. ولقد توزع هذا التيار «القومي - العقلاني» في مدارس فكرية وفرق اسلامية عدة، لكن أبرز فصائله كانوا هم (أهل العدل والتوحيد) ، و (المعتزلة) منهم بوجه خاص.. والجاحظ، الذي ضربنا بفكره المثل على بواكير الصياغات النظرية في فكرنا القومي القديم هو واحد من أئمة المعتزلة وأعلامهم.. فالعقلانية، بمعناها المتميز في ترائنا - والتي سيأتي حديثنا عنها في الفصل القادم - كانت وجه عملة، يمثل الفكر القومي، بضمونه الحضاري والمستنير الوجه الآخر لها.. علا شأنها معا، وأصابتها الانتكاسات معا كذلك..

• ومنذ وقت مبكر، نسيا، شهد واقع المجتمع العربي عوامل موضوعية

أعانت على النشأة المبكرة لهذا التيار القومى وفكره النظرى، وهنا نذكر بما سبقت أشارتنا اليه من مكان هذا الوطن على الطريق التجارة العالمية منذ وقت موغل في التاريخ.. فلقد ادى هذا الموقع الى أن صنعت حركة التجارة لها بأرجاء هذا الوطن طرقا ومسالك صارت أشبه ماتكون بالروابط التى تربط اجزاء هذا الوطن، بل لقد غدت طرق التجارة شرايين تدفع عوامل الوحدة والتآلف بين مدن هذا الوطن وأقاليمه دفع الشرايين للدم الواحد في الجسد الواحد.. فنمت فيه، أكثر من غيره وأسرع من غيره، العادات والتقاليد والقسمات التى تجمع وتوحد بين القاطنين فيه.. الأمر الذى جعل تطوره نحو تبلور الشخصية القومية وظهور الفكر القومى أسرع من سواه..

• ولقد كان طبيعيا، بل وحتميا، أن تنمو مع حركة التجارة النشطة قوى اجتماعية تمارس التجارة وترتبط بطرقها ومدنها وبالنشطة المساعدة في انجازها والمعينة على أعمالها.. وبحكم التفاعل بين هذه القوى وبين أبناء الحضارات الأخرى، فلقد كانت قسمة العقلانية عندها أوضح منها عند سواها.. وبحكم ارتباط ازدهار التجارة ونموها بوحدة الوطن، التى تزيل الحواجز، وترفع المكوس، وتؤمن الطرق، وتيسر الخدمات.. كان ارتباط هذه القوى الاجتماعية بكل ما يوحد الشخصية القومية للمجتمع ويزيل من ساحته الفكر العنصرى، والاقليمى، والضيق الأفق.. شعوبيا كان، أو عربيا جاهليا..

• ولقد أعان هذه القوى الاجتماعية النامية على أن تنجز ما انجزت على درب وحدة الوطن، ومن ثم توحيد الأمة، ان نمط الانتاج الاقطاعى في المنطقة لم يكن كمثيله في أوربا، امارات اقطاعية ذات حواجز كاملة وشاملة، جعلت من حدودها حدودا في الادارة والسياسة والتشريع كما هى حدود في الاقتصاد.. فنمط الانتاج في الشرق الذى حكته المركزية التى

نشأت منذ القدم في أحواض الأنهار، قد جعل الطريق لتوحيد الوطن ووحدة الأمة أكثر يسرا مما كان الحال عليه في ظل امارات الاقطاع الأوربي المغلقة الحدود والعالية الأسوار..

* ولقد كان التجار العرب، هم، غالبا علماء عرب.. والذين يعلمون الدور الأكبر الذي لعبه التجار ولعبته قوافل التجارة في نشر اللغة العربية، ونشر الاسلام، يعلمون الدور الذي لعبه التجار ولعبته التجارة في التقريب والتوحيد بين السمات والقسمات التي غدت، مع الزمن، الروابط القومية الواحدة لهذه الجماعة العربية الواحدة، منذ ذلك الوقت المبكر في التاريخ.

* ومن هنا فليس غريبا، وليست مصادفة أن نجد جمهورا كبيرا من أعلام المعتزلة وعلمائها تجارا وأصحاب حرف وصناعات، ومن ثم أن نجدهم فرسان الفكر القومي العربي، والمنتصرين لمقام العقل في تراثنا.. ولقد كان الجاحظ، الذي قدمنا اشارات لفكره القومي هو صاحب أقدم كتاب عن التجارة في تراثنا - (كتاب التبصر بالتجارة) ! (٢٥) ..

وليس غريبا، وليست مصادفة كذلك أن نجد المدن والخواضر التي انتشر فيها فكر المعتزلة أكثر من غيرها هي المدن والخواضر المرتبطة بطرق التجارة في ذلك التاريخ؟! (٢٦) .. فهذه القوى الاجتماعية كانت أكثر من غيرها، أكثر من بدو الصحراء وأعرابها، وأكثر من فلاح الأرض المتوطن في قريته.. كانت أكثر من هؤلاء ارتباطا مصلحة بوحدة واتحاد المجتمع، وأيضا أوسع أفقا من هؤلاء وهؤلاء.

(٢٥) انظر كتابنا (الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية) ص ٢٢٠ - ٢٢٥.

(٢٦) المرجع السابق . ص ٢٤٠ - ٢٤٧.

* ولقد أعان على هذا النمو المبكر لهذا الفكر القومي، الذي عكس تبلور الشخصية القومية المبكر أيضا، أن دين الاسلام، وهو الذي كان «ايدولوجية» المجتمع في ذلك التاريخ، لم يكن ديناً لعنصر أو قوم أو جنس أو شعب بعينه، كما حال الأديان من قبل، فرسالته الى الناس كافة، ورسوله، صلى الله عليه وسلم، مبعوث للبشر أجمعين.. ووضح هذه القسمة العالمية في الاسلام كانت، بالتأكيد، عوناً للذين ارتبطت مصالحهم وطمحت نفوسهم واستشرفت عقولهم آفاق الدائرة القومية، فهذه الدائرة وإن كانت أدنى من الأفق العالمي والانساني، إلا أنها أوسع من حدود الجنس والعرق والعصبة.. وإذا كان بلوغ الاسلام بأهله دائرة العالمية والانسانية قد عزز على امكانيات ذلك العصر، فلقد أعانهم على تخطي حدود العرق وحواجز العصبية الى رحاب الدائرة القومية، فدخلوها قبل غيرهم، وانطبعوا بطابعها قبل الكثيرين..

وهكذا نجد أنفسنا امام عوامل موضوعية، نمت في المجتمع العربي بعد الفتوحات، أثمرت سمات توحيدية، ونسجت خيوطا موحدة ألفت بين الجماعات التي أصبحت عربية، بالحضارة والولاء، بصرف النظر عن الأنساب والدماء والمواريث المختلفة التي سبقت على فتح العرب المسلمين لبلاد هذه الجماعات..

ونجد، كذلك، الغلبة لهذه السمات القومية في الصراع الذي خاضته ضد طرفي النقيض اللذين اجتهدا وجاهدا لتزريق أوصال الدولة، بالانشقاقات والتفتت، كما كان حال الشعوبية.. وبالقهر، الذي لا بد أن يدفع المقهورين الى الانشقاق، كما كان حال العصبية الجاهلية للأمويين..

وعندما يتأمل المرء هذه الحقيقة يدرك عبقرية هذه الأمة

واصالتها.. فأمام التحدى الذى فرض عليها يومئذ، تحدى العصبية والتعصب، جددت ذاتها، وأبصرت مصالحها، وأحييت خيراً ما في تراثها، فكان أن أبرزت عوامل الوحدة على أسباب التمزق، ورفعت قسّمات التأليف على أمارات الشتات، وكان أن أجابت على ذلك التحدى بهذه الشخصية القومية الواحدة، وذلك الفكر القومى، طوقى نجاة، سبقت بها أمما كثيرة في هذا الميدان..

الفصل الثالث

بالعقل انتصرت

العروبة، وانتشر الإسلام

قبل أن ينقضى القرن الهجرى الأول كانت الدولة العربية قد ضمت أمما وشعوبا تتدين بجميع ماعلى الأرض من ملل ونحل وعقائد ومذاهب وأديان!..

ففى (٩٤ هـ ٧١٢م) كانت الفتوحات قد بلغت السند، فى الشمال الشرقى للمقارة الهندية، والأفغان، وماوراء النهر - هذا فى الشرق - ثم بلغت فى الغرب الى قلب الأندلس.. وبذلك غدت هذه الدولة أكبر امبراطوريات ذلك التاريخ.. وهى لم تضم فقط شعوبا تتدين بكل أديان الدنيا، سماوية ووضعية، بل وضمت رعية أغليبتها العديدة من غير المسلمين!..

فمن رعييتها من كانوا يتدينون بكل مذاهب المسيحية يومئذ: اليعقوبية، والملكانية، والنسطورية.

ومن يتدينون بكل مذاهب اليهودية: ربانيين، وقرائين، وسامره.. ومن يتدينون بمذاهب الفرس - (المجوس) - الدينية: المانوية، والمزدكية، والديصانية، والمرقيونية، والماهانية، والصيامية، والمقلاصية - وهى فروع وفرق للشنوية - وكذلك مذاهب: الزرادشتية، والتناسخية، والكيومرثية، والزروائية، والكينوية..

ومن يتدينون بديانات الهند: هندوسية، وسمنية.. الخ..

ومن يتدينون بديانة الصابئة، المغتسلة، بشمالى العراق، وفيها تمتزج المجوسية بالمسيحية بعبادة الكواكب.

ومن يتدينون بمذاهب روحية، سماهم لها كتاب (الملل والنحل):
«أصحاب الروحانيات»..

ومن يتدينون، أيضا، بعبادة الأوثان.. في مناطق من بلاد الشمال
الافريقى، غربا، وبلاد ماوراء النهر التركية، فى الشمال الشرقى..

هكذا كانت الأوضاع الدينية بالدولة العربية الاسلامية..
امبراطورية كبرى، ضمت، مع الاسلام، كل ديانات الدنيا.. والمسلمون
هم الحكام، وهم الأقلية الدينية بين المحكومين!..

ومنذ البدء اتخذ الاسلام موقفا واضحا، وغير مسبوق، من المتدينين
بالديانات السماوية، فلقد أكد قرآنه الكريم وحدة الدين الالهى، أزلا
وأبدا، عندما قرر أن أصول الدين ثلاثة: الايمان بالألوهية - (وحدانية الاله)
- والايمان باليوم الآخر - (الحساب والجزاء) - والعمل الصالح.. ويجمع هذه
الأصول عنوانان رئيسيان: التوحيد، والطاعة.. والتوحيد هو «الحنيفية»،
والطاعة هى «الاسلام».. فالدين الحق والواحد هو هذا، وكما قال الرسول،
عليه الصلاة والسلام: «ان ذات الدين عند الله: الحنيفية المسلمة...
ومن يعمل خيرا فلن يكفره».. (١) وهذا معنى: (ان الدين عند الله
الاسلام) (٢) و (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما)
(٣) .. وهذا الدين الواحد، أزلا وأبدا، جاء محمد، صلى الله عليه وسلم، فهو
قد جاء - في الدين وأصوله - (مصدقا لما بين يديه) ... (٤).

(١) رواه الترمذى في سننه.

(٢) آل عمران: ١٩.

(٣) آل عمران: ٦٧.

(٤) البقرة: ٩٧، وآل عمران: ٣، وقاطر: ٣١.

أما في «الشريعة»، أى النهج والطريق والمذهب الذى يسلكه الانسان كى يتدين عن طريقه بأصول هذا الدين الواحد.. فلقد جاء الاسلام بشريعة جديدة، دعا اليها الناس أجمعين، وثنيين كانوا أم أهل كتاب.. لكن قرآنه الكريم قد ميز بين المشركين، الذين يجحدون أصول الدين، وبين أولئك الذين يتدينون بالدين الالهى، ويسلكون اليه شرائع الانبياء والامم السابقة، دون شريعة محمد وأمة الاسلام، فسامهم أهل الكتاب، بل وألح الى أن بقاءهم على شرائعهم لا يخرجهم من دائرة التدين التى تضمن لصاحبها النجاة.. فاليهود (عندهم التوراة فيها حكم الله) (٥) والله سبحانه أنزل (التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار) (٦).. وبالنسبة للنصارى: ف (ليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) (٧).. (ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) (٨).. (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين، الا من رحم ربك، ولذلك خلقهم) (٩).. والمفسرون يقفون امام هذه الآيات فيقولون ان معناها أن الله « جعل التوراة لأهلها، والانجيل لأهله، والقرآن لأهله، وهذا فى الشرائع والعبادات. والأصل: التوحيد، لا خلاف فيه.. (١٠) » ويقولون فى تفسير الاشارة الواردة بقوله سبحانه (ولذلك خلقهم): «ان الاشارة للاختلاف، أى للاختلاف خلقهم!» (١١).

(٥) المائدة : ٤٣.

(٦) المائدة : ٤٤.

(٧) المائدة : ٤٧.

(٨) المائدة : ٤٨.

(٩) هود : ١١٨، ١١٩.

(١٠) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٦ ص ٢١١.

(١١) المصدر السابق . ج ٩ ص ١١٥.

وهو يؤكد نجاة كل المتدينين بأصول الدين الالهى الواحد، رغم تعدد شرائعهم التى ينجونها سبلا لهذا الدين، فيقول القرآن الكريم: (ان الذين آمنوا، والذين هادوا، والنصارى، والصبايئين، من آمن بالله، واليوم الآخر، وعمل صالحا، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون). (١٢).

اذن، فموقف الاسلام من أهل الكتاب يتعدى التسليم بحقهم في حرية العقيدة والضمير، المؤسسة على قاعدة (لا اكراه في الدين) (١٣)، والناבעة من طبيعة «الايان»، باعتباره تصديقا قلبيا وبقينا داخليا لا يمكن تحصيله بغير الاقتناع الحر، ويستحيل الحصول عليه بالاكراه.. يتعدى الاسلام هذا الموقف، ويرتقى فوقه الى حيث يقرر وحدة الدين الالهى، أزلا وأبدا، وتعدد الشرائع الالهية، أزلا وأبدا كذلك، ومن ثم فان التعدد في الشرائع واقع مقرر وقائم، وهو سنة من سنن الله في الكون.. وتبعاً لذلك فان الاسلام لا يعرف الحرب الدينية التى تكبره الآخرين على التمدد بشريعته، وكذلك فان دولته التى صنعت اكبر الفتوح العسكرية وأسرعها، والتى أسست أكبر الامبراطوريات في القرن الأول من عمرها قد ضمت واحتضنت كل الذين تدينوا بديانات السماء!.. وفي البداية كانت هذه الحرية مقررة لليهود، والنصارى، والصبايئة، وهم الحنفاء، الذين استبدلوا بالوثنية العربية ما استطاعوا الكشف عنه وتأليفه من توحيد ابراهيم الخليل، عليه السلام.. ولكن الاعتبار السياسية سرعان ما استفادت من

(١٢) البقرة: ٦٢.

(١٣) البقرة: ٢٥٦.

روح التسامح الاسلامى فاتسعت بنطاق هذه الحرية كى تشمل
المجوس بفرقهم ومذاهبهم - عندما اعتبروهم أهل كتاب قديم ضيعوه
بانحرافاتهم عنه وتبديلهم له، كما روى عن الامام الشافعى -.. (١٤)
وكى تشمل أيضا مغتسلة حران وشمالى العراق، الذين تسموا باسم
الصابئة!... وفى عهد بنى أمية حرص الكثير من الخفاء والولاة وجباة
الضرائب على جمع الأموال أكثر من حرصهم على نشر الاسلام - بل
لقد ظلوا يجمعون الجزية ممن دخل فى الاسلام ! - فرأوا فى أخذ الجزية
من وثنيى بلاد ما وراء النهر، وبربر الشمال الاقريقي، وأصحاب
الديانة الوضعية، غير السماوية، فى السند، أمرا أفضل مما سواه،
فعاملوهم معاملة أهل الكتاب.. وهكذا أقرت الدولة بحرية جميع
هؤلاء الرعايا، المتدينين بكل ديانات الدنيا ومذاهبها، وأمنتهم على
«مللهم وشرائعهم»، كما أمنتهم على «أنفسهم وأموالهم» فى نظير
ضريبة زهيدة وهى «الجزية»، يدفعها القادرون على أداء واجب
«الجنديّة»، اذا منعت دواعى الأمن من اشراك غير المسلمين فى
القتال، أو اذا رغب هؤلاء فى عدم الانخراط فى الجيش..

ولنا أن نتصور، فى امبراطورية مترامية الاطراف كهذه
الامبراطورية، ووسط رعية أغليبتها العديدة من غير المسلمين، وفى طول
بلادها وعرضها تنتشر مؤسسات دينية قديمة ومراكز لاهوتية عريقة ومدارس
للفكر الدينى مرت على نشأتها قرون وقرون.. ومارس أحبارها ورهبانها
وعلمائها الجدل والبحث والدرس، وغدت لهم فيه تقاليد وموارث..
وتسلحوا فى عملهم هذا بأسلحة فكرية عديدة، فى مقدمتها منطق أرسطو
وفلسفة اليونان وحكمة الهنود وتراث الفارسيين.. لنا أن نتصور وضع الاسلام

(١٤) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٨ ص ١١١.

والمسلمين، وهم قلة، في هذا المحيط المتلاطم بالنظريات والأبنية الفكرية المركبة والمعقدة، والمسلح ملاحوه بفكر لاهوتي قديم وعريق، وأيضاً بأدوات للجدل والحجاج ذات طابع عام، يتخطى خصوصيات الدين ومحليات الأمم والأقوام، هي موارد اليونان المنطقية والفلسفية.. وعندما نتصور ذلك، علينا أن نتساءل: أى تحد، خطر وعظيم، ذلك الذى واجهه الاسلام والمسلمون؟؟!!..

لقد كان المسلمون، بالمدينة في صدر الاسلام، يشكون من تعالى نفر من اليهود عليهم وشموخهم بأنوفهم لأنهم أهل الذكر وأصحاب الكتاب والعالمون بالتراث في الديانات.. وكان اليهود، يومئذ فئة واحدة، وقليلة، ولم تكن معرفتهم بالكتاب، حتى كتابهم، بالتى تمثل تحدياً فكرياً ذا وزن أو خطر.. (ومنهم أمميون لا يعلمون الكتاب الا امانى وان هم الا يظنون)!(١٥).. فما حال المسلمين في امبراطورية هم فيها الأقلون عدداً؟! وتجاه كل ديانات السماء والأرض؟! وفي مواجهة أعرق مؤسسات اللاهوت وفلاسفته؟! وفي الصراع الذى تسليح فيه خصوم الاسلام بحكمة القدماء جميعاً، ومنطق أرسطو وفلسفة اليونان على وجه الخصوص؟؟!!..

باليقين، لقد واجه المسلمون يومئذ واحداً من أخطر التحديات التى واجهتهم بعد انجاز الفتوحات...

ولقد زاد من جدية هذا التحدى وخطره أن العرب المسلمين كانوا يسعون لبناء حضارة واحدة لرعية الدولة كلها، على اختلاف الأديان والمعتقدات، ويسعون كذلك الى الاستفادة من الموارد الحضارية التى وجدوها في البلاد المفتوحة في صنع المعالم الأساسية لهذه الحضارة الواحدة..

(١٥) البقرة : ٧٨.

ومن ثم فإن التواصل والتزامن والتفاعل مع أهل الديانات الأخرى هو أمر لا مفر منه، بل هو واجب يجد إليه المسلمون ويسعون.. وفي هذا التلاحم والاتصال لا بد من أن تتصارع العقائد وتتحارب الأفكار.. وأيضاً، فإن المسلمين، وإن كانوا لا يستخدمون القوة والدولة في فرض عقائدهم الدينية، فهم في شوق - نابع من شوقهم للجنة - إلى نشر دينهم الخفيف بين ربوع كل تلك البلاد، ومن ثم فلا بد من الجدل والصراع مع كل تلك الديانات، وما لها من أسلحة ومؤسسات..

ولن يستطيع المرء أن يدرك جدية هذا التحدي وخطره إلا إذا تمثل عدداً من الحقائق.. مثل :

- اعتزاز كل مؤمن، من أي دين، بعقيدته الدينية، هذا إذا كان من الصفوة المستنيرة، أما من عداها فانهم، غالباً، ما يتعصبون لما به يدينون!..
- استفادة أهل الأديان الأخرى من الحرية الدينية التي قررها الإسلام وألزم بها أهله تجاه الديانات الأخرى وأهلها.. وحتى ندرك إلى أي الحدود كانت هناك فرص حقيقية لهذه الحرية نشير إلى حقيقة قد تبدو غريبة، ولكنها هي الحق والواقع، وهي : أن المجتمع العربي الإسلامي قد وفر، في كثير من الأحيان، لغير المسلمين، قدراً من الحرية الدينية لم يتوفر لكثير من الفرق والتيارات الفكرية الإسلامية؟!.. ذلك أن تراث المسلمين الديني كان يحض على الوحدة والاتحاد بين المسلمين، ويدين الخروج والمروق عن وحدة الأمة، ومن هنا - عندما اختلف المسلمون فرقا وأحزاباً - زعم كل طرف أنه الأمة والفرقة الناجية، واستحل اضطهاد سواه، وتسنى للقوى، ولمن بيده سلطان الدولة وجهازها، أن يمارس قهر التيارات المعارضة.. هذا بين المسلمين بعضهم والبعض الآخر.. على حين ظلت تعاليم الإسلام قاضية بحق أهل الأديان الأخرى في الأمن على « أنفسهم ومللهم

وشرائعهم وأموالهم» ، وكذلك وصاياهم بالاحسان اليهم ورعاية ذمتهم وجدالهم بالتي هي أحسن..: ظلت هذه الوصايا وتلك التعاليم مرعية دائما، أو في غالب الأحوال والأحيان.. فلم يحدث أن جرد المسلمون سيوفهم ضد أصحاب الأديان الأخرى كى يدخلوهم الى الاسلام، على حين امتلأت صفحات تاريخهم، وكذلك سنواته، بالصراعات المسلحة بين الفرق والأحزاب والتيارات التى توزعت واستقطبت المسلمين!..

وإذا شئنا مثلا يشهد لهذه الحقيقة فان في موقف الخوارج، وهم أشد الناس غيره - بلغت حد التشدد المغالى - على الاسلام، في موقفهم المثل الذى يشهد على ما نقول.. فلقد ظفرت جماعة منهم يوما بمسلم ونصراني، فقتلوا المسلم وتركوا النصراني، بل أوصوا به خيرا قائلين: «احفظوا ذمة نبيكم»!..(١٦) وهم يجدون في القرآن، بزعمهم، ما يحل لهم دم رجل صالح مثل عبدالله بن خباب، لأنه خالف رأيهم في على بن أبى طالب بعد أن قبل «التحكيم» في صراعه مع معاوية، ورأيهم في عثمان بن عفان في سنوات حكمه الست الأخيرة، فأمسكوا عبدالله بن خباب، وفي عنقه مصحف، وقالوا له: «ان هذا الذى في عنقك ليأمرنا أن نقتلك!».. وقتلوه.. وكان على مقربة منهم بستان نخل لرجل نصراني، فذهبوا يبتاعون منه بلحا، فعرض عليهم البلح دون مقابل، فأبوا ذلك، واستنكروه قائلين: «ما كنا لناأخذه الا بثمن! «فعجب النصراني وتعجب قائلا: «ما أعجب هذا!.. أتقتلون مثل عبدالله بن خباب، ولا تقبلون منا جنى نخلة؟!»(١٧)..
ومثل ذلك قصتهم مع امام المعتزلة واصل بن عطاء، فلقد أدركته جماعة منهم، وهو في عدد من أصحابه، فلما استشعر الخطر طلب من أصحابه أن يدعوا له

(١٦) المبرد(الكامل) - باب الخوارج ص ٥٠ طبعة دمشق سنة ١٩٧٢.

(١٧) المصدر السابق - ص ٥٠ ، ٥١.

أمر التصرف والحوار مع الخوارج، فدار بينهم وبينه حوار استهلوه:

— ما أنت وأصحابك؟

— مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله و يفهموا حدوده!

— قد أجرناكم !

— فعلمونا !

فجعلوا يعلمونهم مبادئهم وأحكامهم.. ثم قالوا لهم:

— أمضوا ، مصاحبين، فانكم اخواننا !

— ليس ذلك لكم، فالله يقول: (وان أحد من المشركين استجارك

فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه (١٨))، فأبلغونا مأمننا!..

فنظر الخوارج بعضهم الى بعض، ثم قالوا :

— ذاك لكم !

فساروا بجمعهم حتى أبلغوهم المأمن...؟! (١٩)

فالحفاظ على المشركين، وإبلاغهم مأمنهم الذى يريدون.. والعدل

مع النصراني في حبات من البلح.. والقتل لمسلم صالح مثل عبدالله بن

خبيب!.. ففى المشركين نزل قرآن لاسبيل الى تأويله.. والنصراني هو ذمة

النبي بنص الحديث.. أما عبدالله بن خبيب، حامل المصحف في عنقه، فلقد

تأولوا القرآن حتى زعموا «ان هذا الذى فى عنقك ليأمرنا بقتلك!»..

الى هذا الحد بلغ الاسلام، وأيضا بلغ المسلمون في صيانة حرية

أهل الديانات الأخرى في الاعتقاد، وممارسة شعائر الاعتقاد.. ولقد كان

طبيعيا أن يتيح هذا الوضع رجحان الكفة لهذا المحيط من العقائد غير

الاسلامية وهذا الخضم من أصحابها في الصراع الفكرى ضد الاسلام

(١٨) التوبة : ٦.

(١٩) (الكامل) : للمبرد . ص ٨ ، ٩.

والمسلمين..

ولقد زاد من خطورة هذا التحدى وجديته ان المسلمين لم يكن لهم عهد بالكثير من أدوات الجدل والاحتجاج التى برع فيها أبناء تلك الديانات، ولم تكن لهم خبرة ولا دربة ولا ممارسة في أدوات المنطق والفلسفة منها بالذات..

صحيح ان القرآن فيه المحكم وفيه المتشابه.. والمتشابه منه لا يدرك الا بنمط من الفكر العقلى المتأمل، وهو نمط الى صناعة الفلسفة ونهج الفلاسفة قريب.. وصحيح أن فيه اشارات تستوقف الصفوة وتلفت انظار الراسخين في العلم كى يبحثوا عن ما استكن وراء ظواهر النصوص، وهى اشارات ومواطن تمثل بداية الطريق لبناء الفلسفة وتحصيل مناهجها.. ولكن حياة العرب البسيطة، فى شبه الجزيرة، قبل اتمام الفتوحات الكبرى، ووضوح الغايات وبساطة الوسائل، وجو التسامى الدينى الذى صنعه حياة الرسول، صلى الله عليه وسلم، كل ذلك، وغيره مثله، قد وقف بالحياة العقلية العربية الاسلامية، حتى ذلك الحين، عند الاحتكام فى المشكلات، غالبا، الى النصوص والمأثورات.. وهم جميعا مؤمنون، يقدسون هذه النصوص ويحجلون هذه المأثورات، ومن ثم فان تلاوة النص حاسمة فى الاقتناع والاعتقاد.. ولم تكن الحياة قد طرحت عليهم، بعد، تلك المشكلات التى لا تجد حلولا فى النصوص والمأثورات، ولا فى القياس على هذه النصوص والمأثورات..

أما بعد أن تمت الفتوحات الكبرى.. وقامت الامبراطورية.. فلقد وجد المسلمون أنفسهم أقلية دينية فى محيط من المتدينين بكل ديانات السماء والأرض، يخوضون صراعا فكريا قاسيا ضد مؤسسات كهنوتية وتيارات لاهوتية ذات تراث عريق فى الجدل الفكرى والصراعات الدينية،

ومسلحة بما هو أكثر من «اللاهوت» وعلومة، مسلحة بحكمة القدماء، ومنطق أرسطو وفلسفة اليونان.. على حين كانت أدوات المسلمين في الصراع هي النصوص والمأثورات، وهي أدوات لا تفيد الا اذا كان الخصم مؤمنا بها، ومصداقا بقدسياتها.. فاذا حاور المسلم أخاه، فوارد في الحوار أن يحسمه أحدهما بآية من آيات القرآن الكريم، لأن الآخر مؤمن بأن هذا القرآن قد بلغه محمد الى أمته، ومؤمن بأن محمدا رسول، وأنه رسول الله.. فالقرآن هنا ثمرة، والايمان به كحجة مترتب على الايمان بنبوة محمد ورسالته، والايمان بالاله الواحد الذى أوحى اليه بالقرآن.. أما الذين لا يؤمنون بشيء من هذه المقدمات، فغير وارد ولا معقول أن نجادلهم ونحاججهم، فضلا عن أن نفحمهم بآيات ونصوص لا يؤمنون هم، اصلا، بأن لها تلك القدسية والحجية التى نعتقها نحن فيها..

وهنا كان المأزق، وكان التحدى عندما انعدمت «الأدوات المشتركة» للصراع الفكرى بين المسلمين وخصومهم الفكرين.. وزاد الأمر حرجا رجحان كفة هؤلاء الخصوم، لأنهم كانوا يملكون، غير «اللاهوت» أدوات المنطق والفلسفة، وهي أدوات عالمية، لا تختص بدين أو حضارة، وصالحة للصراعات الفكرية جميعا، على حين كانت أدوات «القراء والفقهاء» المسلمين هي من النوع الذى لا يؤتى ثماره خارج اطار المؤمنين بشرية الاسلام..

واذا شئنا قصة من قصص صراعات الفكر في ذلك العصر تجسد لنا عمق ذلك التحدى وجديته وخطره فان قصة المعاظرة التى دارت بين قاضى بغداد وزعيم طائفة «السمنية» ببلاد السند دليل جيد البرهنة على ما نقول..

فلقد زعم «السمنى» - وطائفته تنكر الرسالات السماوية، وترى

أن أصحابها قد سبوا الحروب الدينية وأوجدوا العداوة بين الناس! - زعم في حديثه الى مليكه - ملك السند - أن دين الاسلام لابقاء له الا بقوة السيف وسلطان الدولة، وان أهله يعجزون عن اثبات صدقه بالعقل والمنطق.. بل ودعا مليكه الى أن يرسل الى الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٤٩ - ١٩٣هـ - ٧٦٦ - ٨٠٩م) فيتحداه أن يبعث من عملاء الاسلام من يعاظر زعيم « السمنية»، على أن يتبع المغلوب عقيدة الغالب!.. فلما جاءت رسالة الملك الى الرشيد بعث اليهم بقاضى بغداد.. واستبشر زعيم السمنية خيرا عندما علم أن القاضى من «الفقهاء» وليس من «الفلاسفة - علماء الكلام»!.. وهناك دارت المناظرة بين زعيم السمنية وبين القاضى الفقيه، على هذا النحو:

السمنى : أخبرنى عن معبودك، هل هو قادر؟

القاضى : نعم ..

السمنى : فهل هو قادر على أن يخلق مثله؟!..

القاضى : هذه المسألة من الكلام - (علم الكلام)، والكلام بدعة، وأصحابنا ينكرونه!

السمنى : ومن أصحابك ؟

القاضى : محمد بن الحسن، وأبو يوسف ، وأبو حنيفة..

وعند هذا الحد من المناظرة التفت زعيم السمنية الى مليكة وقال له: « قد كنت أعلمتك دينهم، وأخبرتكم بجهلهم وتقليدهم، وغلبتهم بالسيف!.. » فصادق الملك على قوله، وبعث الى الرشيد رسالة قال فيها: «انى كنت ابتدأتك، وأنا على غير يقين مما حكى لى، والآن قد تيقنت ذلك بحضور هذا القاضى!»..

ففى هذه القصة يتجسد التحدى الذى فرضته على الاسلام، وعلى

دولته وحضارته، تلك الديانات والمذاهب المسلحة بأدوات المنطق والعقل، عندما استخدمت في صراعها معه تلك الأدوات، على حين وقف الفقهاء عند النصوص والمأثورات التي لا تلزم الحجة الا من كان، سلفاً، متديناً بهذا الدين..

ولقد استاء الرشيد، وغضب، وثارت ثائرته لهذا الذي حدث، ولما قرأ في رسالة ملك السند.. وفي هذه الثورة رأيناه يعبر عن هذا التحدى الذى يواجه الاسلام والمسلمين بتساؤله قائلاً: «أليس لهذا الدين من معاصر عنه؟!».

ويستكمل الرواة وقائع القصة فيقولون ان نفرا من حاشية الرشيد لفتوا نظره الى أن من يعاظر، عن الاسلام، مثل هؤلاء الخصوم لابد وأن يكون عارفا بأدواتهم في الجدل والاحتجاج، أى عالماً بالفلسفة والمنطق، وأن للاسلام وللمسلمين علماء وهم في هذا الميدان، وهم علماء الكلام، ولكنهم - وكانوا هم المعتزلة يومئذ - لعدائهم للشعوبية التى غلبت على الدولة العباسية في سنواتها الأولى، كانوا مبغضين، بل وكان أئمتهم وأعلامهم في السجون.. فبعث الرشيد فأحضر عددا منهم، وعرض عليهم معاظرة السمنى مع قاضى بغداد، فقال له واحد من شباب علمائهم، هو معمر بن عباد (٢١٥ هـ - ٨٣٠ م) : يا أمير المؤمنين، ان سؤال السمنى - هل يقدر الله أن يخلق مثله؟ - سؤال محال، لأن الله قديم بالضرورة، والمخلوق حادث بالضرورة.. والحادث لا يمكن ان يكون مثل القديم، فلقد أخطأ السمنى عندما سأل هذا السؤال!..

و بمقدار قوة البساطة في اجابة معمر بن عباد.. كانت ضخامة العجز عند قاضى بغداد!.. وأدرك الرشيد يومئذ أن الحديد لا يفله الا الحديد.. ولن يناظر الفلاسفة الا المتكلمون، فلاسفة الاسلام، فبعث بعدد من علماء المعتزلة، وعلى رأسهم معمر بن عباد، لمناظرة زعيم السمنية،

فناظروه وانتصروا عليه..(٢٠). وبدأت الدولة العباسية تقترب من عملاء الكلام وتقرب المعتزلة، وخاصة بعد انحسار المد الشعبي بنكبة البرامكة (١٨٧ هـ ٨٠٣)..

لكن ادراك العرب والمسلمين لهذه الحقيقة لم يبدأ بادراك الرشيد لها.. فلقد سبق ذلك عهد الرشيد، بل ودولة بني العباس بزمان غير قصير.. وكانت نقطة البدء عندما استشعرت هذه الأمة جدية التحدي وخطره، ساعة واجهت بفكرها الشاب وعقيدتها البسيطة النقية موارد الأمم التي أصبحت تشاركها في الدولة، موارد يثها في الفلسفة واللاهوت والمنطق وأدوات الصراع ذات الطابع العقلي.. منذ تلك اللحظة غاصت روح هذه الأمة الى العمق، وفتشت عن تراثها الأولى والبسيط في المحكمة، ويممت وجهها شطر قرآنها الكريم، وانخرط نفر من طلائع أبنائها على درب التأمل الفلسفي، وتجاوزوا ظواهر النصوص الى ما وراءها، واجتازوا الحدود التي توقف عندها الفقهاء والنصوصيون.. فبدأت تظهر، منذ ذلك التاريخ المبكر، قسّمات البناء الفكري الذي تمثلت فيه عبقرية هذه الأمة في الفلسفة، والفلسفة الالهية بالذات، وهو علم الكلام..

وإذا كان هناك اتفاق على أن عهد العرب بالترجمة قد بدأ بالأمير الأموي خالد بن يزيد (٩٠ هـ ٧٠٨ م) فإن الاتفاق قائم على أن ما ترجمه العرب يومئذ قد اقتصر على بعض «علوم الصنعة» التي تطلبتها الحياة «العملية»، مثل الكيمياء والطب والنجوم.. وعلى أن بداية عهد العرب «بالفلسفة»، كما عرفها اليونان، وطلائع وعيهم بأرسطو، كفيلسوف، انما جاء على يد أول فلاسفة العرب المسلمين: الكندي، أبو يوسف يعقوب بن

(٢٠) قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٥٢، ٢٥٣،

٢٥٥. تحقيق: فؤاد سيد. طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م.

اسحق (٢٦٠هـ - ٨٧٣م) .. (٢١) أما ما قبل هذا التاريخ فان فلسفة هذه الأمة وابداعها الخاص في العلوم العقلية تمثل في «علم الكلام» .. وهو العلم الذي بدأ مبكرا، ومنذ أن واجهت هذه الأمة ذلك التحدى على جبهة الفكر، والفكر الدينى على وجه الخصوص.

فقبل الكندى بأكثر من قرن من الزمان بدأ يتبلور التيار العقلانى للعرب والمسلمين.. وروت، أوثق المصادر أن رجلا عربيا من قبيلة جهينة هو معبد الجهنى (٨٠هـ - ٦٩٩م) قد تزعم، فى البصرة، تيارا فكريا بدا غربيا عن المألوف والشائع فى ذلك الحين، فلم يقنع أصحاب هذا التيار بما تحصل من ظواهر النصوص، فأخذوا فى التأمل الفلسفى، وذهبوا يغوصون وراء ظواهر النصوص والمأثورات. ولقد عرض «يحيى بن يعمر» أمر هذا التيار الفكرى على الصحابى عبدالله ابن عمر بن الخطاب (٧٣هـ - ٦٩٢م) قائلا: «انه قد ظهر قبلنا - (عندنا) - ناس يقرؤن القرآن، و يتقفرون العلم! «أى يطلبونه، و يتتبعونه، و يبحثون عن غامضه، و يستخرجون خفيه، و يغوصون الى القاع، فيأتون منه بالغريب!..» (٢٢)

فاذا كان عبدالله بن عمر قد توفى سنة ٧٣ هـ على حين قتل معبد الجهنى، بعد اشتراكه فى احدى الثورات، ضد الحجاج بن يوسف سنة ٨٠هـ فاننا نستطيع أن نوّرخ بمنتصف القرن الهجرى الأول لنشأة هذا التيار الفلسفى الاسلامى، تيار علم الكلام.. وهو التيار الذى تمثل فى المعتزلة، فرسان العقلانية العربية الاسلامية، والذى كان معبد الجهنى واحدا من

(٢١) ابن النديم (الفهرست) ص ٢٤٢. طبعة ليزج سنة ١٨٧١م. والجاحظ (البيان والتبيين) ج ١ ص ٣٢٨. تحقيق: عبدالسلام هارون. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨م. و: أوليرى (مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب) ص ٢٦٥، ٢٤١، ترجمة د. تمام حسان. طبعة مكتبة الانجلو. القاهرة.

(٢٢) (صحيح مسلم) وكذلك (سنن الترمذى) و (سنن أبى داود).

طلائعهم السابقين على هذا الطريق - فلقد رَووا انه كان اول من دعا بالبصرة الى مذهبهم في حرية الانسان واختياره.. (٢٣) أى أن هذا التيار قد بدأ يتبلور منذ أن استشعرت هذه الأمة، على درب حياتها الفكرية، الخطر الذى تمثل في تسليح خصومها بأسلحة عقلانية لاعهد لها بمثلها، فكان في هذا التيار العقلانى الاسلامى الرد الايجابى على الخطر والتحدى اللذين فرضهما عليها هؤلاء الخصوم..

ورغم البداية المبكرة لهذا التيار، وسبقه على ترجمة انسانيات اليونان، وخاصة فلسفتهم، بل وسبقه على تمثل العرب المسلمين للكنوز الفكرية في المواطن التى افتحوها.. الا أن هذا التيار لم يبدأ من فراغ.. فهو قد بدأ فلك طريق التأمل في العقائد والكون والمأثورات والنصوص، وشرع «يفلسف» كل ذلك، واستعان على ذلك كله بوصايا القرآن والسنة التى تعلّى من شأن العقل كأداة للبرهنة والهداية وثق فيها الدين كل الثقة وفوضها كل التفويض، ودعا اليها الراسخين في العلم كسبيل لا يستطيع أن يسلكه عامة الناس..

• ولنبدأ بالقرآن الكريم، وماتضمنته آياته الكريمة من انتصار للعقل والعقلانية، يدعوا، ولاشك، أمة السلام الى أن يكون لها على هذا الدرب بناؤها الفكرى الذى تباهى به الأمم وتصد بواسطته تحديات الخصوم..

لقد تميزت شريعة الاسلام، وامتازت، عن الشرائع التى سبقتها بقسمتها العقلانية، واعلاؤها سلطان العقل، لا في أمور الدنيا فحسب، بل وفي الكثير من أمور الدين.. وهى في ذلك قد جاءت مستقة مع المرحلة التاريخية التى جاءت فيها، مرحلة بلوغ الانسانية سن رشدها، وتجاوزها عهد

(٢٣) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٨٥..

الطفولة الانسانية، ومناسبة كذلك لكون هذه الشريعة هي ختام شرائع السماء الموحى بها الى الانسان، ومن هنا كانت ضرورة أن تفتح الباب واسعا للعقل الانساني كي يمارس دوره في عصور قادمة ستشهد اشتداد عوده واتساع مجالاته أكثر فأكثر، وعلى نحو لم يسبق له مثيل..

ولن يقلل من موضوعية هذه الحقيقة أو يقدر فيها أن تراثنا الديني والحضاري لم يشتمل على مصطلح «الفلسفة»، التي تندرج تحتها المباحث التي تعلو سلطان العقل، وتعتمده أداة في البرهنة والنقض والاثبات، ذلك أن تراثنا قد استخدم مصطلح «الحكمة»، في أغلب الأحيان، للدلالة على ما يدل عليه مصطلح «الفلسفة» من معاني ومضامين..

ومن هنا، فإن انظارنا لا بد وأن تلتفت الى ذلك الموقف القرآني الذي يعلمنا، في أكثر من موضع، وفي آيات بلغت التسع عشرة آية، أن ما أوحى الله به الى الله رسوله ليس «الكتاب» فقط، وإنما «الحكمة» أيضاً؟!.. أي أن الاسلام لا يركن فقط الى «النص والنقل»، وإنما يعتمد أيضاً على «العقل وبرهانه».. ولا نعتقد أن شريعة سبقت شريعة الاسلام قد جعلت «الحكمة» - بهذا المعنى - جناحاً من جناحيها اللذين طار بها وحي السماء الى الانسان!...

فابراهيم واسماعيل، عليهما السلام، يدعوان ربها أن يرسل في العرب رسولا منهم - هو محمد، صلى الله عليه وسلم - (يعلمهم الكتاب والحكمة).. (٢٤) والله يتحدث الى المسلمين عن رسالة نبيه ومهامه، فيقول لهم: (..) ويعلمكم الكتاب والحكمة).. (٢٥) ويعرفهم ماهية وحية

(٢٤) البقرة: ١٢٩.

(٢٥) البقرة: ١٥١.

اليهم، فيقول : (واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة..) (٢٦).. (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة..) (٢٧) وفي معرض تعداد الله لنعمه على رسوله يقول له : (.. وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة، وعلمك ما لم تكن تعلم..) (٢٨) وفي معرض تعداد نعمه على العرب يقول سبحانه : (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين).. (٢٩) وهو يتحدث ، في القرآن، الى نساء النبي، فتعلم أن ما كان يعلمهن الرسول اياه لم يكن « نقلا » و« كتابا » فقط، بل « حكمة » أيضا : (.. واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله، والحكمة..) (٣٠) وما أوحاه الله الى نبيه ليس « نقلا » فقط، بل و« حكمة » كذلك : (.. ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة).. (٣١)

وأخيرا يضع القرآن الكريم يدنا على السر الذي جعل « الحكمة » بعضا من وحيه.. فهو، كما أشرنا، قد جاء الى انسانية قد بلغت سن رشدها، وتجاوزت عهد طفولتها، ومن ثم فان من هذه الانسانية من يناسب هديهم «برهان العقل، أى الحكمة»، ومنهم من يناسب هدايته أسلوب «الجدل» والحجاج، ومنهم جمهور يكفى في هديهم « الخطابة والوعظ والارشاد».. فمستويات الناس في المدارك العقلية والاستعدادات الفطرية والمكتسبة

(٢٦) البقرة : ٢٣١.

(٢٧) آل عمران : ١٦٤.

(٢٨) النساء : ١١٣.

(٢٩) الجمعة : ٠٢.

(٣٠) الأحزاب : ٣٤.

(٣١) الاسراء : ٣٩.

متفاوتة، ومن ثم فإن سبل هدايتهم متفاوتة كذلك بتفاوت هذه المستويات.. والقضية التي طرحها أبو الوليد بن رشيد (٥٢٠-٥٩٥هـ ١١٢٦-١١٩٨م) عندما قال : ان « الناس في الشريعة على ثلاثة أصناف :

صنف ليس هو من أهل التأويل أصلا، وهم الخطابيون، الذين هم الجمهور الغالب..

وصنف هو من أهل التأويل الجدلي، وهؤلاء هم الجدليون، بالطبع فقط، أو بالطبع والعادة..

وصنف هو من أهل التأويل اليقيني، وهؤلاء هم البرهانيون، بالطبع والصناعة، أعني صناعة الحكمة» (٣٢)!

هذه القضية قد فصل فيها القرآن الكريم من قبل عندما حدد للرسول، صلى الله عليه وسلم، سبل دعوة الناس الى الدين، فاذا هي سبل ثلاث، وفق أصناف هؤلاء الناس، واذا بـ «الحكمة» واحدة من هذه السبل الثلاث : (ادع الى سبيل ربك بالحكمة، والموعظة الحسنة، وجاد لهم بالتى هي أحسن..) (٣٣).

هكذا، وعلى هذا النحو، احتلت «الحكمة» مكانها في القرآن الكريم.. وكان ذلك زادا ومنطلقا وتراثا لطلائع هذه الأمة على درب الفلسفة وطريق «علم الكلام»..

والسنة النبوية هي الأخرى اتساقا مع القرآن الكريم - قد حفلت بعشرات الأحاديث التى أعلنت من شأن «الحكمة» وزكيتها طريقا للمعرفة

(٣٢) (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص ٥٨. دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٧٢م.

(٣٣) النحل : ١٢٥.

وهداية الإنسان.. فنحن نطالع أحاديث الرسول التي تقول : «نعم المجلس مجلس ينشر فيه الحكمة» (٣٤) .. و «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن» (٣٥) ... وإذا كانت « النبوة » صدق واصابة بالوحي، فإن « الحكمة » - الفلسفة - هي الصدث والاصابة بالبرهان العقلي والتأمل الفلسفي، والرسول يحدد هذين الطريقتين من طرق الحق والاصابة عندما يقول : « .. والحكمة : الاصابة في غير النبوة » (٣٦) وهو، لذلك، يضم عبدالله بن عباس (٣ ق . هـ ٦٨ هـ - ٦١٩ - ٦٨٧ م) الى صدره، ويدعوله قائلاً : « اللهم علمه الحكمة » (٣٧) .. ويعلمنا أن «الحكمة» لا تصلح الا لأهلها .. «ولا تحدث الحكمة للسفهاء» (٣٨) ! لأنهم، فضلاً عن عجزهم عن الارتقاء الى براهينها، فهم يحسدون أهلها، اذ «لا حسد الا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، وآخر آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها» .. (٣٩) ولكنه يوصي أهلها بالسعي لتحصيلها : « عليك بالحكمة، فإن الخير في الحكمة » (٤٠) .. و « ليس هدية أفضل من كلمة حكمة » (٤١) .

ولقد كان هذا الهدى النبوي، في الحكمة، زادا وتراثا ومنطلقا لطلائع علماء الكلام على الدرب الذي سلكوه لبناء فلسفة هذه الأمة، التي تتمثل فيها نظرتها للكون، ورؤيتها المتميزة لقضايا الدين والدنيا، والتي كانت لها سلاحا نازلت به خصومها في الفكر والدين ..

(٣٤) رواه الدارمي .

(٣٥) رواه الترمذي وابن ماجه .

(٣٦) رواه البخاري .

(٣٧) رواه البخاري .

(٣٨) رواه الدارمي .

(٣٩) رواه البخاري .

(٤٠) رواه الدارمي .

(٤١) رواه الدارمي .

والذين يتأملون بعض صفحات تراث العرب القديم، ماسبق منه الاسلام وما أبدعوه في عصر النبوة والصحابة، لن يعدم هؤلاء الأسلاف تراثا في هذا الميدان.. ميدان «الحكمة»... فلقد كان للعرب في جاهليتهم حكماء، من مشاهيرهم: قس بن ساعدة الايادي (٢٣ ق. هـ - ٦٠٠ م) وأكثم بن صيفي (٩ هـ - ٦٣٠ م).. ومن يقرأ (نهج البلاغة) لعلي بن أبي طالب لابد واجد نفسه أمام «حكمة» و «فلسفة» لعل نوعية الجمهور وبساطة الحياة والناس قد منعتهما أن تظهر كاملة ومفصلة الى الناس!.. وغير علي بن أبي طالب نجد ذلك الحكيم أبو ذر الغفاري (٣٢ هـ - ٦٥٢ م) وهو الذي وصل الى عقيدة التوحيد، بالتأمل الفلسفي، وعبد الله الواحد وصلى له، قبل ظهور الاسلام بسنوات ثلاث.. وهو الذي أشار على بن أبي طالب الى ما عنده من «حكمة» حجبها نقص استعداد الجمهور، فقال: «لقد وعى أبو ذر علما عجز الناس عنه، ثم أوكأ عليه فلم يخرج منه شيئا!..» (٤٢) وبشير بن كعب يشير الى أن ذلك العصر، عصر الصحابة، كانت فيه صحف ومدونات في الحكمة، فقتادة بن دعامة السدوسي (٦١ - ١١٨ هـ - ٦٨٠ - ٧٣٦ م) يروي فيقول: «سمعت أبا السوار يحدث أنه سمع عمران بن حصين يحدث عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «الحياء لا يأتي الا بخير».. فقال بشير بن كعب: انه مكتوب في الحكمة: أن منه وقارا، ومنه سكينه، ومنه ضعفا!.. فقال عمران: احدثك عن رسول الله، وتحدثني عن صحفك؟! (٤٣).. فمن الصحابة، اذن، من كانت لديه مدونات وصحف في «الحكمة»!.. الأمر الذي يؤكد أن بداية طلائع المتكلمين على

(٤٢) انظر كتابنا (مسلمون ثوار) ص ١٨. طبعة بيروت، الثانية، سنة ١٩٧٤ م.

(٤٣) رواه البخاري، ومسلم، وابن حنبل.

هذا الدرب لم تكن من لاشيء ولا من فراغ.. فهم عندما تجاوزوا ظواهر النصوص والمأثورات، استجابة لحاجات الامة التي فرضت عليها التحديات في الصراع الفكرى والعقائدى انما كانوا يستجيبون، أيضا، للنهج القرآنى الذى جعل الحكمة سبيلا من سبل الهدى والارشاد، وللسنة النبوية التى أعلت قدرها.. بل وينفذون وصية الرسول، صلى الله عليه وسلم، عندما علم أمته أن من يرد منهم الوقوف على أسرار القرآن ومكنوناته فليتجاوز ظاهر نصوص آياته، وليقلب هذا الظاهر، وصولا الى الأعماق: «من أراد العلم فليثور» (من أراد العلم فليثور القرآن) و «أثيروا القرآن، فان فيه خبر الأولين والآخرين»! (٤٤)..

هكذا كانت البداية.. وتلك كانت الدوافع.. من قبل أن تعرف هذه الأمة تراث اليونان في الفلسفة، بل ومن قبل أن تعرف لغتها ومصطلح «الفلسفة».. ومن قبل أن يتمثل عرثها المسلمون الأول تراث البلاد المفتوحة في هذا الميدان..

وغير الموقف القرآنى، وموقف السنة المنحازين «للحكمة».. فلقد أعان طلائع «الحكماء - المتكلمين» على مهمتهم هذه موقف القرآن والسنة من «العقل».. فمأثوراتها ونصوصها لم تقف فقط عند «النقل»، بل لقد أعلت من شأن «العقل»، وجعلت له سلطانا أى سلطان!..

واذا كان «العقل» في لغة العرب: هو التثبت في الأمور، و«العاقل»: هو الجامع لأمره ورأيه.. فلقد جعلوا العقل، أيضا، القوة التى يتميز بها الانسان عن الحيوان.. وكذلك جعلوه حصن هذا الانسان، وقالوا:

(٤٤) انظر مادة «ثار» في (لسان العرب) لابن منظور.

ان هذا هو السبب في تسمية « الحصن » بـ « العقل »! (٤٥) .. والقرآن يعرض لمادة « العقل » في تسع وأربعين موطنا من آياته الكريمة، وفيها يجعله مناط التكليف، والمسئولية، ومن ثم مناط تحقق انسانية الانسان! .. وأيضاً، وذلك هام وجدير بالتأمل فان القرآن يصنع مع « العقل » صنيعه مع « الحكمة »، عندما يحدثنا عن أنه سبيل متميز عن سبيل « النقل » والنص والمأثور. .. فهناك ما هو مسموع من الأدلة « النقلية »، وهناك ما هو « معقول » من البراهين الحكيمة الفلسفية. .. وأهل النار عندما يندمون في الآخرة يتذكرون كيف قصرُوا في السعى على كل من الطريقين، طريق « النقل » - السمع - وطريق « العقل »، فيقولون : (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في اصحاب السعير) .. (٤٦) والقرآن يقرع المشركين الذين عجزوا عن الاهتداء بواحد من السبيلين، « العقل » و « النقل »، رغم الآيات الكونية الناطقة الشاهدة، فيقول : (أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) .. (٤٧).

وغير الآيات التي تتحدث عن « عمل العقل » بلفظه، يتحدث القرآن عن « عمله » مستخدماً اسماً من أسمائه، وهو « اللب » .. والعرب يقولون ان لغتهم قد أطلقت على « العقل » كلمة « اللب » لأنه « يمثل جوهر الانسان وحقيقته »! (٤٨) .. ويأتى ذكر هذا المصطلح ومشتقاته بالقرآن الكريم في ست عشرة آية من آياته، تتحدث عن أولى الألباب، الذين

(٤٥) المصدر السابق. مادة « عقل ». وانظر كذلك هذه المادة في (معجم ألفاظ القرآن الكريم) وضع مجمع اللغة العربية. طعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

(٤٦) الملك : ١٠.

(٤٧) الحج : ٤٦.

(٤٨) (معجم ألفاظ القرآن الكريم) ج ٢ ص ٥٦٠.

من سماتهم وصفاتهم الذكر والتذكر والفكر والتفكير في آيات الله وسنته التي أودعها هذا الكون وطلب من الانسان، ذى اللب، أن يتفكر فيها..

وكما تحدث القرآن عن «العقل والتعقل» تحت مصطلح «اللب»، كذلك صنع عندما تحدث عنه، في آيتين، تحت مصطلح «النهى» - بضم النون مشددة، وفتح الهاء - .. و «النهى» جمع، والمفرد: «نهي» ، و«النهية»: «العقل»، وسمى بذلك لأن استخدمه يصل بالانسان الى نهاية المأمور به، والحدود التي لا ينبغي تجاوزها (٤٩)... فهو الزمام، والقائد، وهو الذي يحدد الحدود!..

ولنفس المعاني التي دلت عليها مصطلحات «العقل» و «اللب» و«النهية» جاءت مصطلحات «التدبر» - في أربع آيات - و «الاعتبار» - في سبع آيات - .. فانه يطلب منا، لا أن «نسمع» القرآن فقط، بل وأن «نتدبر» «مانسمع من آياته : (أفلا يتدبرون القرآن)؟! (٥٠).. (أفلم يدبروا القول) (٥١)؟! .. (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليتدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب).. (٥٢) وكذلك «الاعتبار» الذي هو: الاستدلال بالشيء على الشيء ، والتدبر، والنظر، والقياس!.. (٥٣).

أما السنة النبوية فان حديثها عن العقل، واعلاءها لشأنه حديث طويل.. فالامام الغزالي يروى في كتابه (احياء علوم الدين) قول الرسول،

(٤٩) - (لسان العرب) مادة «النهى». وانظر كذلك (معجم ألفاظ القرآن الكريم) ج ٢ ص ٧٦٩.

(٥٠) النساء : ٨٢ ، محمد : ٢٤.

(٥١) المؤمنون : ٦٨.

(٥٢) ص : ٢٩.

(٥٣) (لسان العرب) مادة «عبر».

صلى الله عليه وسلم: «أول ما خلق الله : العقل، فقال له : اقبل ، فأقبل . ثم قال له : أدبر، فأدبر. ثم قال عز وجل: وعزتي وجلالي ما خلقت أكرم على منك، بك آخذ وبك اعطي، وبك أثيب ، وبك أعاقب».. (٥٤)

وأنس بن مالك يروى فيقول: « أثني على رجل عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بخير، فقال: كيف عقله؟.. قالوا: يا رسول الله، ان من عبادته.. ان من خلقه.. ان من فضله.. ان من أدبه.. فقال: كيف عقله؟!.. قالوا: يا رسول الله، نشئ عليه بالعبادة، وتسلنا عن عقله؟!.. فقال رسول الله: ان الأحق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر، وانما يقرب الناس من رهم بالزلف على قدر عقولهم»..

وابن عباس يروى فيقول : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم: « لكل شيء آلة وعدة، وان آلة المؤمن العقل. ولكل شيء مطية، ومطية المرء العقل. ولكل شيء دعامة، ودعامة الدين العقل. ولكل قوم غاية، وغاية العباد العقل. ولكل قوم داع، وداعى العابدين العقل. ولكل تاجر بضاعة، وبضاعة المجتهدين العقل.. ولكل أهل بيت قيم، وقيم بيوت الصديقين العقل. ولكل خراب عمارة، وعمارة الآخرة العقل. ولكل امرئ عقب ينسب اليه و يذكربه، وعقب الصديقين الذي ينسبون اليه و يذكرون به العقل. ولكل سفر فسطاط، وفسطاط المؤمنين العقل..».

واذا كان ابن عباس قد روى قول الرسول: « ودعامة الدين العقل».. فان على بن أبي طالب عندما سأل النبي عن سنته؟ كان من جوابه له قوله، صلى الله عليه وسلم: «.. والعقل أصل ديني»؟!..

وهنا يفتح هذا القول وهذا الموقف لهذه الأمة فتحا جديدا،

(٥٤) الغزالي (احياء علوم الدين) ج ١ ص ١٤٢ . طبعة دار الشعب . القاهرة.

و يسلك بها طريقاً لم يسلكه من قبلها أهل أى دين من الأديان!..

فأهل العقل الذين تدينوا بما سبق الاسلام من شرائع دينية قد استخدموا «العقل» وبراهينه فيما هو خارج عن عقائد الدين وأصوله، ولم يعهد في شريعة من تلك الشرائع استخدام «العقل» في تحصيل «الايان»، وإنما وقفت جميعها عند «المعجزات» والخوارق والنصوص والمأثورات، سبلاً لتحصيل الايمان.. وهذه الحقيقة يؤكدها القديس أنسلم Anselme (١٠٣٣ - ١١٠٩م)، رئيس أساقفه كنتربرى، بانجلترا، وأحد مؤسسى الفلسفة المدرسية، عندما يقول: «يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك، بدون نظر. ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت. فليس الايمان في حاجة الى نظر عقل»؟!.. (٥٥) وحتى «اللاهوتيون» الذين تصدوا للاسلام وأهله بأسلحة المنطق الأرسطى وفلسفة اليونان، فأنهم انما كانوا يدافعون بأدوات العقل عن بناء فكرى لاهوتى منعوا استخدام العقل في تحصيل عقائده وأصوله، فهم قد استعانوا بالعقل في الدفاع عن بناء غير مؤسس على العقل، وكان مثلهم مثل المجتمع الذى أوهن الفساد عزمه وأوهى من دعائمه، ومع ذلك فان له جيشاً ظاهر العزم وبادى القوة يدفع عنه المغيرين!..

ولم يكن ذلك حال العرب المسلمين عندما بدأ سعيهم على هذا الطريق.. نعم كانوا قلة عديّة.. وكانوا في بدء مسعاهم على درب الحكمة والفلسفة وعلم الكلام.. ولكنهم انطلقوا من دين العقل أصله.. فالألوهية هى أصل الدين وجوهره وبدايته.. وتحصيل الايمان بالله لن يتأتى بواسطة «النص» الموحى به، لأن التصديق بالنص فرع عن التصديق بالرسول والتصديق بالرسول فرع عن التصديق بالذى أرسل هذا الرسول!.. ومن ثم

(٥٥) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عوده) ج ٣ ص ٢٦٢.

فلا بد من سبيل آخر، غير «النقل» لتخصيل الإيمان بالالوهية، التي هي أصل أصول الدين.. وهذا السبيل عند المسلمين، دون سواهم، هو «العقل»، حتى لقد غدا ذلك امراً مقرباً.. لا عند الخاصة، فقط بل وعلى السنة الجمهور والعوام الذين قالوا ويقولون: «ربنا عرفوه بالعقل»!..

ولأن الأساس متين، والبداية صادقة، والمنطلق مؤسس الدعائم، فسرعان ماتبلور ونما لهذه الأمة بناؤها العقلي، وهو علم الكلام، وسرعان ماتحول تيارها العقلاني من موقف الدفاع الى وضع الهجوم، فأرأينا جيش اللاهوتيين وقد نزع سلاحه، فأضيف هذا «السلاح العقلي» الى ترسانة المتكلمين بعد ترجمة الفلسفة اليونانية الى العربية، وأصبحت له يومئذ فعالية لم تكن له في يد علماء اللاهوت، لأنه قد أصبح بيد جيش تتسق جهوده العقلية مع الدين المؤسس على العقل، وأبصر الذين فقها تلك الحقيقة، عرباً ومستشرقين أن علم الكلام الاسلامي، الذي اسسه المعتزلة، فرمان العقلانية في تراث المسلمين وفكرهم، هو الذي تجسدت فيه عبقرية العرب المسلمين الفلسفية، لأنه هو الذي استخدم «العقل» في الانتصار للدين المؤسس على العقل، ومن ثم فلقد جاء بناء متوازنا ومتسقاً أيضاً.. ففيه تفلسف الدين، وتديننت الفلسفة!.. وفيه تجلت قوة هؤلاء الرواد وعبقريتهم، وكما يقول الفريد جيوم -Guillume, A- فإن «قوة الحركة الاعتزالية مردها جهود أولئك الذين حاولوا اقصي ما في طوقهم اقامة علم الكلام الاسلامي على أسس ثابتة من الفلسفة، مصرين، في الوقت نفسه، على أن تكون تلك الأسس منطقية، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة التي يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية»!(٥٦).

(٥٦) (الفلسفة وعلم الكلام) بحث منشور بكتاب (تراث الاسلام) ص ٣٧٩. ترجمة جرجيس فتح الله. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

وأمام عبارة جيوم، هذه التي تبدو توليفة غريبة ومتناقضة لدى غير المسلمين، نتذكر ما سبقت اشارتنا اليه، في فصل سابق، من حديث عن الطابع المتميز الذي تميزت به حضارة هذه الأمة، طابع التوازن والموازنة بين طرفي النقيض في عدد من القضايا، وقطبي الظاهرة في كثير من الأمور.. ففي فلسفة هذه الامة (علم الكلام) وضحت هذه الموازنة، وظهر ذلك التوازن أيضا..

• أى لاهوت ، وأى دين ذلك الذي جمع بين « الشك » وبين « اليقين »؟!.. وفي أى فلسفة دينية، غير علم الكلام الاسلامي، عقدت أوثق الصلات وقامت أقوى الروابط ، روابط العضوية، بين « الشك المنهجي الخلاق » وبين « الايمان - اليقين »؟!..

صحيح ان الحضارة الأوربية المسيحية قد عرفت « الشك المنهجي » على يد ديكارت . Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠م) ولكن أوربا هذه هي أوربا « العلمانية »، وبالمعنى المناقض والمناهض للاهوت المسيحي، ولا زالت المسيحية ولاهوتها ينكران « الشك » ، منهجيا كان أو غير منهجي، ولا زالت عبارة « القديس انسلم » هي القانون: يجب أن تعتقد أولا بما يعرض على قلبك بدون نظر.. فليس الايمان في حاجة الى نظر عقل..!..

أما في الاسلام، وفي علم الكلام الاسلامي، فاننا واجدون فيه، وفيه وحده، تلك العلاقة التي بلغت جد التزاوج والتعايش، بل والعضوية ، وحتى علاقة المقدمة بالنتيجة بين « الشك » وبين « اليقين »!..

ففي القصص القرآني، الذي يسوقه القرآن للعبارة والتأني والاعتناء، يعلمنا الله سبحانه أن ابراهيم الخليل، عليه السلام، قال لربه:

(أرني كيف تحيي الموتى) فسأله ربه: (أأولم تؤمن؟) فقال إبراهيم: (بلى، ولكنني ليطمئن قلبي)...! (٥٧) فهو هنا يشك، ويريد أن يطمئن قلبه ويتحصل له اليقين، ولم ير إبراهيم، ولا رأى مولا، سبحانه، تعارضا بين شكه وبين سعيه تحصيل اليقين، لأن شكه هذا ليس فوضويا «لأدريا»، وإنما هو واقع موضوعي لا يستطيع أن يتجاهله، وهو منهجي، بمعنى أنه منظم وموظف في السعي الى بلوغ الحقيقة وتحصيل اليقين..

وفي السنة النبوية يروى أبو هريرة، وتروى عائشة، ويروى عبدالله بن عمر - كل بلفظه وعن طريقه - كيف قام الشك لدى جماعة من الصحابة على عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، والشك في ماذا؟ في الذات الالهية!.. وكيف أرقهم هذا الشك وأقضى منهم المضاجع وأزعج فيهم الطمأنينة والاطمئنان.. ولكنهم لم يجدوا حرجا في أن يصارحوا رسول الله بما يجدون، فقالوا له: «يا رسول الله، ان أحدنا يحدث نفسه بالشئ ما يجب أنه يتكلم به وان له ما على الأرض من شئ!.. انا لنجد شيئا لو أن أحدنا خر من السماء كان أحب اليه من أن يتكلم به!» .. هكذا شكوا، وهكذا استعظموا خطر الشك وموضوعه... ولكن الرسول، صلى الله عليه وسلم، بروح البشير المذكر، يبصر أن من «يشك» هو من يعمل عقله، ومن «يشك» متأملا ومفكرا، وشكا منظما وموظفا في سبيل اليقين، هو ذلك الساعي الى تحصيل الايمان الحقيقي، البالغ مرتبة «التصديق واليقين»، ولذلك فهو لا يصددهم عن الشك، ولا ينهاهم، لأنه من الواقع يبدأ وينطلق وبه يقر ويعترف، بل يصل عمقه وتحليقه الى الحد الذي يسمى هذا الشك باسم النتيجة والثمره التي لا بد وأن يفضي اليها، فيقول لصحابته هؤلاء عن

(٥٧) البقرة: ٩.

شكهم هذا: «ذاك محض الايمان(٥٨)»؟!..

ولذلك فان علم الكلام الاسلامى - وهو فلسفة هذه الامة - عندما اعتمد الشك طريقا الى اليقين ، وعندما قرر أن الشك المنظم والمنهجى يجب أن يكون غاية يقصد اليها المتكلم - الفيلسوف - قصدا، وعلمنا يسعى الى تعلمه عامدا، لأنه اكثر الطرق الآمنة لتحقيق اليقين الحقيقي ، «ومحض الايمان».. عندما صنع ذلك علم الكلام فام منطلقه الى ذلك ومصدره في هذا انما كان اسلاميا خالصا، ومن ثم فان تعبيره عن روح الاسلام في هذه القضية لا تلحقه شائبة من الشوائب بحال من الأحوال..

ومن بين متكلمي التيار العقلانى الاسلامى نجد الجاحظ يتناول هذه القضية.. فهو يدعو الى الشك.. والى معرفة مواطنه ومواضعه.. والى اكتشاف أسبابه.. بل و يدعو الى تعلم هذه الأمور، أى تعلم الشك، باعتباره علما يقصد الى تعلمه العلماء! فيطلب ذلك من قارئه قائلا: «... فاعرف مواضع الشك، وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين، والحالات الموجبة له، وتعلم الشك في المشكوك! فيه تعلما، فلولم يكن في ذلك الا تعرف التوقف، ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج اليه..»!

(٥٩)

فهو يدعونا الى التبصر عند النظر، فاذا عرضت لنا قضية يراد لنا أن نحكم فيها فلا بد من «التثبت»، واذا كننا امام «شبهة» فلا بد من «التوقف».. ثم يطلب منا أن نرفض منهج الذين يجيبون، في مثل هذه المواقف بـ «لا» او بـ «نعم» فقط، لأن للحقائق زوايا وقسمات، تستدعى

(٥٨) رواه مسلم وابن حنبل.

(٥٩) (الحيوان) ج ٦ ص ٣٥.

الاجابة العلمية عن مسائلها الربط بين هذه الزوايا والقسمات، فلربما كانت الاجابة في بعض نواحيها بـ «نعم» وفي بعضها الآخر بـ «لا»!.. وهو يعرض هذا الموقف المنهجي باعتباره منهجه في كتابه (الحيوان)، فهو يرفض التذهب الذى جعل الناس فرقا وشيعا أراح عقول المتماذيين بها من عناء النظر في كل معضلة وقضية ومسألة عندما «ترك الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة والتتب عند الحكمة جديدا» وأضربوا عنه صفحا، فليس الا : لا ، أو : نعم . الا أن قوهم : «لا» موصول منهم بالغضب . وقوهم : «نعم» موصول منهم بالرضى!.. وينبه الجاحظ على أن هذا المسلك المعيب قد حرم الناس من استخدام نعمة «الحرية»، فلم يكتشفوا بوساطتها، الحلال من الحرام، ولا الحسن من القبيح! إذ قد «عزلت الحرية جانبا» - كما يقول - بمسلكهم هذا.. (٦٠)!

ثم نجدنا الجاحظ عن أن العلماء والمفكرين - (خاصة) - هم حيال الحقائق والمسائل حالات ثلاث : الكذب والرفض ، أو التصديق ، أو الشك، وهو درجات، وطبقات.. بينا العذمة والجهلاء لا يعرفون الا : لتكذيب ، أو : التصديق . لأنهم مقلدون، لا يستخدمون منكاتهم العقلية كما ينبغي للانسان الراقى أن يستخدمها. فكأنما الشك المنهجي علامة مميزة لعقلانية الانسان العاقل .. يقول : «والعوام أقل شكوكا من الخواص ، لأنهم لا ينوقفون في التصديق والكذب، ولا يربابون بأنفسهم، فليس عندهم الا الاقدام على التصديق المجرد، أو على التكذيب المجرد، وألغوا الحالة الثالثة من حال الشك، التى تشتمل على طبقات الشك، وذلك على قدر سوء الظن وحسن الظن بأسباب ذلك، وعلى قدر الأغلب..» (٦١).

(٦٠) المصدر السابق . ج ٧ ص ٨

(٦١) المصدر السابق . ج ٦ ص ٣٦ ، ٣٧

ولقد كان الجاحظ، في هذا الموقف - موقف الربط والموازنة بين «الشك» وبين «اليقين» - واحدا من تيار عريض، هو تيار علماء الكلام العقلانيون - وهو نفسه ينبها على أنه ليس وحيدا في القول بهذا.. فأستأذه النظام أبو اسحاق ابراهيم بن سيار (٢٣١هـ - ٨٤٥م) له تجارب في الجدل مع الملحدين جعلته يفضل أهل الشك على الجاحدين، فيقول، : «نازعت من الملحدين: الشاك، والجاحد، فوجدت الشكاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود..» الأمر الذي جعله يقطع بحتمية سبق الشك لليقين، وبعبارة: «.. ولم يكن يقين قط حتى كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بينها حال شك»! (٦٢).

بل لا ينسى الجاحظ أن يحكى لنا فخر العلماء بالشك.. فعندما «قال ابن الجهم للمكى: أنا لا أكاد أشك! قال المكى: وأنا لا أكاد أوقن! ففخر عليه المكى بالشك في مواضع الشك، كما فخر عليه ابن الجهم باليقين في مواضع اليقين»! (٦٣)

وعند امام آخر من أئمة علم الكلام، وعلم من أعلام المعتزلة، هو ابو هاشم الجبائي (٢٤٧ - ٣٢١هـ - ٨٦١ - ٩٣٣م) يبلغ الايمان بهذا المنهج القمة.. فأبوه: أبو علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٤هـ - ٨٤٩ - ٩١٦) - وهو من أئمة المعتزلة أيضا - قد رأى أن الواجب الأول على الانسان هو «النظر»، بما في هذا النظر من يقين أو شك يقود الى اليقين.. اما أبو هاشم فلقد رأى أن الشك هو الواجب الأول على الانسان.. (٦٤) لأنه - كما تقدم - «لم يكن

(٦٢) المصدر السابق . ج ٦ ص ٣٥ . ٣٦.

(٦٣) المصدر السابق . ج ٦ ص ٣٥ .

(٦٤) د . علي فهمي ختم (الجبائيان: ابو علي وأبو هاشم) ص ٣٣٣ طبعة طرابلس . ليبيا سنة

١٩٦٨م.

يقين قط حتى كان قبله شك ..

هكذا تعايش «الشك» و «اليقين»، بل ارتباطا ارتباطا المقدمة بالنتيجة، والأسباب بالمسببات، والطريق والنهج بالمقاصد والغايات.. وهكذا وازنت فلسفة الاسلام بين ما كانا ولا يزالان نقيضين لاسبيل الى التوفيق بينهما في غيرها من فلسفات الشرائع والأديان.. فامتازت وتميزت في ذلك، عن غيرها من فلسفات الأديان...

* ثم .. أين هي الفلسفة الدينية - (اللاهوت).. غير علم الكلام الاسلامي، تلك التي طرقت أصعب الدروب عندما ذهبت فحاولت التوفيق بين مالمذات الالهية من ارادة وقدره فاعلة في هذا الكون، وبين ما في الطبيعة وظواهرها وما في الأشياء، بالطبع، من قوى فاعلة، تؤثر وتفعل عندما تتوافر لها الظروف والشروط؟..

ان فلسفات كثيرة، ومنها الحديثة، وبعضها ليس بالديني أيضا، ذهبت وتذهب الى انكار الوجود الموضوعي للأشياء في الحقيقة والواقع، وقالت انها موجودة، فقط، في الفكر والذهن الانساني، وأنه هو الذي يضمن عليها ما نحسبه وجودا موضوعيا متحققا لها خارج الذهن والتفكير.. وفي لاهوت الشرائع غير الاسلامية يرجعون الوجود الحقيقي والتأثير الحاسم للمادة والظواهر والأشياء الى ما يصدر عن ارادة الخالق سبحانه، والى ما تفيضه هذه الارادة على هذه الظواهر والأشياء.. ومن ثم فلقد أقام هذا اللاهوت تناقضا حادا بين «الألوهية» وبين «الطبيعة» وقوانينها وفعل ظواهرها وتأثير ماداتها.. وذهبوا في ذلك الى حد انكار العلاقة الضرورية للسببية، فأروا أن لاعلاقة ضرورية بين وجود الأسباب ووجود المسببات، وأن ما بينهما لا يعدو أن يكون مجرد «اقتران» جرت العادة أن يحدث بحدوثه التأثير!.. كما ذهبوا الى أن الأشياء لا تكون «حسنة»، لأنها بطبيعتها، حسنة، ولا تكون

«قبيحة» لأنها، بطبيعتها، قبيحة، وإنما هي هذه أو تلك لأن هناك نصا ومأثورا وحكما، من خارج هذه الاشياء، هو الذى جعلها كذلك!.. كما أقاموا تعارضا حادا بين ان تكون المادة قديمة والعالم قديما. وبين ان يكون لهذه المادة ولهذا العالم خالق قادر فعال لما يريد!..

ولقد نبئت أو انتقلت آراء من هذه الى البيئة الاسلامية بعد عصر تبلور علم الكلام ونشأته الأولى، وبعد أن طوى التاريخ صفحة الازدهار الأولى للقسم العقلانية في حضارتنا، فوجدنا من يقيم تناقضا بين أن نؤمن بإرادة الله الفاعلة في هذا الكون وبين أن نؤمن بعلاقة الضرورة، التى لا تتخلف، بين الأسباب والمسببات، ورأينا اماما عظيما مثل الغزالى ينكر ان تكون النار هى التى تحرق القطن عندما يشتعل بها، وان يكون السيف هو الذى قطع عنق المقتول به، وأن يكون الثلج هو الذى أحدث البرودة في الماء الموضوع فيه، وأن يكون الأكل هو الذى يحدث الشبع والماء هو الذى يحدث الرى للانسان؟! (٦٥)...

اما علم الكلام الاسلامى، كما تبلور على يد التيار العقلانى في حضارتنا، وكما تجسدت فيه ابداعات هذه الأمة في الفلسفة المتدنية، فانه قد أبرز الى الوجود أكثر محاولات الفكر الانسانى توفيقا - وليس تلفيقا - بين ماعده اللاهوتيون متناقضات لاسبيل الى الجمع بينها، فضلا عن التوفيق..

فلأشياء وجود موضوعى وحقيقى خارج الفكر والذهن، بل ان هذا الوجود هو الذى يصدر منه العلم الانسانى والفكر منعكسا على الذهن، وتغير هذا العلم والفكر وتطورهما مرهون بما يحدث من تغير وتطور فى «الموجود» خارج الأذهان.. وبعبارة ابن رشد: «.. ان علمنا معلول للمعلوم به، فهو

(٦٥) انظر آراء الغزالى هذه في (تهافت الفلاسفة) ص ٦٥ - ٦٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م.

وانظر رد ابن رشد عليها في (تهافت التهافت) ص ١٢٢ - ١٢٣. طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م.

محدث بحدوثه، ومتغير بتغيره.. ووجود الموجود هو علة وسبب لعلمنا....
والكليات، المعلومة عندنا معلولة أيضا عن طبيعة الموجود..» (٦٦)

والتناقض بين الألوهية - (التوحيد) - وبين الاعتراف للطبيعة بدور
وأثر، تناقض مفتعل ومزعوم، لأنه يتجاهل أن تأثير الطبيعة والمادة وفعلها إنما
هو قانون نابع من خصائصها الذاتية، وأنه، كغيره من القوانين، هو واحد
من سنن الكون التي تحكمه وتسيره، وأنه، أيضا، جزء من كل أراد الله
سبحانه أن يكون كذلك وأن يفعل هذا في العمل والتأثير.. وبعبارة الجاحظ
التي تلمس هذه القضية، مع الاعتراف بخطرها وصعوبات استيعابها على غير
أهلها،.. «...» فان المصيب هو الذي يجمع تحقيق التوحيد، واعطاء
الطبائع حقها من الاعمال. ومن زعم أن التوحيد لا يصلح الا بإبطال
حقائق الطبائع فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد! وكذلك اذا
زعم أن الطبائع لا تصح اذا قرنها بالتوحيد. ومن قال هذا فقد حمل
عجزه على الكلام في الطبائع! وإنما يئأس منك الملحد اذا لم يدعك
التوفر على التوحيد الى بخش حقوق الطبائع، لأن في رفع أعمالها رفع
أعيانها، واذا كانت الأعيان هي الدالة على الله، فرفعت الدليل، فقد
أبطلت المدلول عليه!. ولعمري ان في الجمع بينها لبعض الشدة؟!..
وأنا أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمزقناقي بابا من الكلام صعب
المدخل، نقضت ركنا من أركان مقالتي! ومن كان كذلك لم ينتفع
به..» (٦٧)

فالجاحظ في هذا النص الهام يعلن ان صعوبة التوفيق بين التوحيد
وبين «الطبائع» لا تبرر دعوى التناقض بينهما، لأن هذه الدعوى هي ثمرة

(٦٦) (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص ٧٥، ٧٦، ٤٠).

(٦٧) (الحیوان) ج ٢ ص ١٣٤، ١٣٥.

العجز عن التوفيق، الذى هو ممكن وضرورى، لأنه هو الحقيقى!.. وهو، أيضا، اضافة من اضافات علم الكلام الاسلامى الى الفلسفة الدينية واللاهوت..

وانطلاقا من الاقرار للأشياء والظواهر بخصائصها الذاتية.. وإيماننا بقدرة العقل الانسانى على الحكم والتمييز في نطاق هذه الأشياء المادية، قال المتكلمون بأن «الحسن» و «القبح» في هذه الأشياء ذاتى، وبأن العقل قادر على ادراك ذلك والحكم به دون ان يتوقف ذلك على النصوص والمأثورات، طالما كان الأمر في نطاق ماتدركه العقول الانسانية، مما هو خارج عن نطاق الغيب وما اختصت به علوم الوحي الالهى الى الرسل والانبياء..

وانحاز المتكلمون، أيضا، الى الموقف الذى يربط، ربطا ضروريا، بين الأسباب والمسببات.. وفاضت آثارهم الفكرية بصفحات وصفحات تقرر هذه الحقيقة وتبرهن على صدقها..

وفي الموقف من العالم، أقدم هو؟ أم حادث؟ قدموا فكرا لعله غير مسبوق في نطاق الالهيات.. فالمعتزلة، مثلا، ينكرون ان يكون هناك «زمن» قد كان فيه العالم عدما؟! - مع ملاحظة أن «الزمن» مرتبط بالحركة، وهى مرتبطة بـ «الوجود»! - وهم يقولون ان ما يسمى بـ «العدم» هو فى الحقيقة «شئ».. وهذا الشئ هو الذى يسميه ابن رشد «الوجود بالقوة» - وان عملية «الخلق» هى عملية دائمة ومستمرة في هذا الكون، فالموجود بالقوة ينتقل، بالخلق، ليصبح موجودا «بالفعل»، والتحول - الذى نسميه «فناء» - هو الانتقال بالموجود «الفعل» الى حال الوجود «بالقوة»، وهكذا باستمرار... ولذلك رأينا ابن رشد ينبه على أن سببا هاما من أسباب

الصراع بين الذين قالوا بقدوم العالم وبين الذين قالوا بحدوثه هو حسابهم أن «القدم» و «الحدوث»، في هذا المبحث، متقابلان في المعنى ومتضادان في المحتوى وحقيقة المفهوم، بينما «الأمر ليس كذلك؟» و «الاختلاف في هذه المسألة بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعا للاختلاف في التسمية، وبخاصة عند بعض القدماء!..» (٦٨)

هكذا طرق المتكلمون المسلمون، والتيار العقلاني منهم بخاصة، ذلك المبحث الصعب، وارتادوا هذا الدرب الأصعب.. فن قبلهم كانت الفلسفة، وعند اليونان خاصة، لا تلقى طويلا بال الى تقديم التصورات التي تجمع بين منطقاتها وحقائقها وبين التصورات «الإيمانية» للكون وللظواهر، وفي الطرف الآخر كان اللاهوتيون ينكرون تصورات الفلسفة لهذه الأمور، وحتى عندما كانوا يستعيرون أدوات الجدل الفلسفي للدفاع عن تصوراتهم فانهم كانوا يقفون غالبا من الفلسفة عند الأدوات!.. أما علم الكلام الاسلامي فانه طرق باب «التوفيق» - لا التلفيق - بين الحكمة والشرعية، وقرر - كما قال ابن رشد - أن الشريعة أخت الحكمة «وأن النظر البرهاني لا يؤدي الى مخالفة ما ورد به الشرع، فان الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له!» (٦٩) ..

صنع المتكلمون ذلك وانجزوه.. بل لقد كان صنع ذلك وانجازه هو الشرط الأول والضروري كي يشرف الواحد منهم بانخراطه في عداد أفذاذ المتكلمين.. وكما يقول الجاحظ: «.. وليس يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام، متمكنا من الصناعة، يصلح للرئاسة، حتى يكون الذي يحسن من

(٦٨) (فصل المقال) ص ٤٢ ، ٤٠ . وانظر في آراء ابن رشد حول هذه القضايا كتابنا (المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد) طبعة دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٧١م.

(٦٩) (فصل المقال) ص ٣١ ، ٣٢ .

كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة..» (٧٠) فنها جاء المزيج - (علم الكلام) - وبينها قامت المصالحة، الى حد كبير، وتم التوفيق في عدد من القضايا والتصورات..

وأخيرا.. فان انجازا كهذا ما كان له أن يتم بغير اعلاء شأن العقل وتكريمه، والثقة في مناهجه وبراهينه، والاعتماد عليه سبيلا للهدى والرشاد بالنسبة للإنسان..

وكما سبقت اشارتنا فان التيار العقلاني في حضارتنا لم ينطلق الى اعلاء شأن العقل وتأكيده سلطانه من فراغ، فلقد كان هناك القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وحكمة العرب القدماء، وكلها تزكى الانطلاق الى هذه الغاية وتحث على السعى في هذا الطريق.. ولكن هذا التيار اضاف الكثير، وفصل المجمل، ووضع المبدأ العام في صورة منهج عقلي، وقام بتطبيقه على المشكلات وموضوعات الجدل وقضايا الصراع..

فتجاه «النصوصيين»، الذين يقفون عند النصوص والمأثورات وحدها، أو يقفون عند ظواهرها فقط، منكرين «التأويل» .. قطع العقلانيون باستحالة التعارض بين «الكتاب» وبين «العقل» .. ووجدنا ذلك التصوير الرائع الذي حدثنا عنه الجاحظ، فجعل «الكتاب» دليل الله وحجته لدى الانسان.. و«العقل» كذلك - غريزيا أو مكتسبة أو هما معا - «وكيل الله» ودليله وحجته لدى الانسان.. فهما دليلان، خلقهما خالق واحد، واستهدف منها معا تحقيق الهداية والرشاد - كل في مجاله - للانسان.. ومن ثم فان تعارضهما وتناقضهما هو أمر مستحيل! (٧١) واذا بدأ أن هناك

(٧٠) (الحيوان) ج ٢ ص ١٣٤.

(٧١) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٩٦، ٩٢.

تعارضاً بين النص والمأثور وبين معطيات البرهان العقلي ، قطع العقلانيون ، وهم في الاطمئنان على درجة اليقين أن لا تعارض على الإطلاق ، وأن التأويل - المحكوم بقوانين اللغة وقواعد الأسلوب العربي - للنص سيجلي الحقيقة و يظهر الاتفاق التام بين برهان العقل وبين النص المأثور.. وعن هذا اليقين يتحدث ابن رشد فيقول : «.. ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدى إليه البرهان ، وخالفه ظاهر الشرع ، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي.. بل نقول : انه مامن منطوق به في الشرع ، مخالف بظاهره لما أدى إليه البرهان الا اذا اعتبر وتصفحت سائر أجزائه ، وجد في ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل ، أو يقارب أن يشهد.. وهذه القضية لا يشك فيها مسلم ولا يرتاب بها مؤمن!..» (٧٢).. ذلك ان مجيء الشرع بما يعارض العقل ، عندهم ، مستحيل ، بل ان ما جاء به الشرع اما أن يكون واجبا بالعقل أو جائزاً في نظره « فلم يرد الشرع الا بما أوجبه العقل أو جوزه ، ولم يرد بما حظرة العقل أو أبطله.. » وهكذا كانت حجج العقل وبراهينه حاكمة على حجج السمع وقاضية في أمرها ، وبعبارتهم : « صارت حجج العقول قاضية على حجج السمع ، ومؤدية على علم الاستدلال ، ولذلك سمي كثير من العلماء العقل : أم الأصول ! » (٧٣).

وتجاء «النصوصيين» الذين استبعدوا «العقل» عند تحديدهم «للأدلة» ، وقصروا دوره على الحاق «الفروع» «بالأصول» في عمليات «القياس» ، وقالوا : ان الأدلة هي : الكتاب والسنة ، والاجماع ، على هذا الترتيب.. تجاء هؤلاء اتخذ التيار العقلاني موقفاً متميزاً وبالغ الجرأة ، عندما قرر أهله أن «العقل» دليل مستقل ، وأنه ليس رابع هذه الأدلة الثلاثة ، بل

(٧٢) - (فصل المقال) ص ٣٣.

(٧٣) (أدب القاضي) ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥. تحقيق محي هلال السرحان. طبعة بغداد سنة

هو أولها من حيث الترتيب... ذلك أن الصراع مع خصوم لا يؤمنون بنصوص الكتاب والسنة يستحيل أن تكون أدوات النصوص التي لا يؤمن بها هؤلاء الخصوم.. وكذلك يستحيل أن يكون أداة هذا الصراع هو الاجماع، لأنه اجماع المؤمنين بهذه النصوص التي يرفض الخصم حجيتها، وهو اجماع مؤسس، ايضا، على هذه النصوص.. ومن ثم فلا بد لهذا الصراع من أداة ذات طابع انساني، تتخطى حجيتها الأديان والحضارات، والسلالات والقوميات، وهذه الأداة هي العقل بمناهجه وبراهينه.. فتحن اذا شئنا، مثلا أن نهدي ضالا الى الايمان بأن لهذا الكون خالقا مبدعا وقادرا. فليس السبيل الى متاخرته تلاوة النصوص وتفسيرها، لأن ذلك انما يصلح لمن يؤمن بأن هذه النصوص هي وحي، ووحى الى رسول هو مؤمن به سلفا، وأن الله هو الذى أوحى بها الى هذا الرسول.. أما اذا كان الخصم منكرا للمصدر الأصلي للنص، أى الله - والعياذ بالله - فان الأمر يتطلب أداة جدل وسبيل اقناع، غير النص، نثبت بها، أولا، عقيدة الألوهية، ووحداية الذات الالهية، ثم نتدرج الى الوحي، بالنبوة والرسالة، فصدق هذه النصوص..

وهذا المنطق، ومن هذا المنطلق جعل العقلانيون الأدلة أربعة، وجعلوا «العقل» أولها في الترتيب.. ولما كانت النصوص والمأثورات، بعضها محكم وبعضها متشابه، ومنها ما هو قطعى الرواية وما هو ظنى فيها، ومنها ما هو قطعى الدلالة وما هو ظنى فيها، ومنها ما يختلف فيه تأويل المتأولين وتفسير المفسرين.. رأى العقلانيون ضرورة جعل «العقل» وبراهينه حكما تعرض عليه المأثورات عند الاشتباه والاختلاف، ومن هنا قالوا انه الأصل في جميع الأدلة أيضا!.. وهذا المنطق، ومن هذا المنطق، وهذه الأسباب قالوا: «ان الأدلة أولها: دلالة العقل: لأن به يميز بين الحسن والقبيح، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة، والاجماع، وربما

تعجب من هذا الترتيب بعضهم، فيظن ان الأدلة هي : الكتاب، والسنة، والاجماع ، فقط. أويظن أن العقل، اذا كان يدل على أمور، فهو مؤخر، وليس الأمر كذلك، لأن الله تعالى لم يخاطب الا أهل العقل، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة، والاجماع ، فهو الأصل في هذا الباب. وان كنا نقول: أن الكتاب هو الأصل، من حيث أن فيه التنبيه على ما في العقول، كما أن فيه الأدلة على الأحكام. وبالعقل يميز بين احكام الافعال وبين أحكام الفاعلين، ولولاه لما عرفنا من يؤخذ بما يتركه او بما يأتيه، ومن يحمده ومن يذمه، ولذلك نزول المواقفة عن لاعقل له. ومتى عرفنا بالعقل الها منفردا بالالهية، وعرفناه حكما، نعلم في كتابه أنه دلالة، ومتى عرفناه مرسل للرسول، ومميزا له بالأعلام المعجزة من الكاذبين، علمنا أن قول الرسول حجة، واذا قال الرسول ، صلى الله عليه وسلم: «لا تجتمع أمتي على خطأ ، وعليكم بالجماعة»، علمنا أن الاجماع حجة ..» (٧٤)

فالعقل هو أول الأدلة، وليس ذلك فقط، بل هو أصلها الذي به يعرف صدقها، وبوساطته تستبين حجية الكتاب والسنة والاجماع..

وكذلك الحال في معرفة الاصول الشرعية، فهم يرون أن العقل هو سبب معرفتها ، بل السبب شبه الوحيد في معرفة هذه الأصول، لأن المرء لا يحتاج ، مع العقل ، في معرفة الأصول الشرعية الا الى حذق اللسان العربي عندما يتعلق الأمر بحجج السمع خاصة، وهم في هذا يقولون : اما وقد «ثبت وجوب النظر في الأصول الشرعية، فالسبب المؤدى الى معرفتها والعمل بها شيان: أحدهما: علم الحس، وهو العقل ، لأن حجج العقل

(٧٤) (فضل الاعتراف وطبقات المعتزلة) ص ١٢٧.

أصل لمعرفة الأصول، اذ ليس تعرف الأصول الا بحجج العقول.
والسبب الثاني : في معرفة الأصول الشرعية: معرفة لسان العرب، وهو
معتبر في حجج السمع خاصة..» (٧٥)

هذا عن مقام العقل عند التيار العقلاني من المتكلمين.. وهذه هي
احدى الاضافات التى صنعوها على درب تطور الفكر الانسانى. فبعد أن
كان مقام العقل عاليا، فقط، فى الفلسفة، ومستبعدا تماما، او الى حد كبير،
فى الالهيات.. انتقلوا به، وهو فى سلطانه العظيم ومقامه العالى، الى الالهيات
أيضا، وعالجوا على ضوء براهينه قضايا العقيدة أيضا، حتى لقد رأيناهم
يتسعون بنطاق العلوم العقلية، المؤسسة على براهين العقل ونظره، بعد أن
كانت الديانات، والشرائع السماوية لا تعرف غير العلوم الشرعية المؤسسة على
الوحي وحده.. بل سمو « العلوم العقلية » - ومنها « العلم الالهى » - بالعلوم
الحقيقية!.. وقالوا عنها: انها « لا تنغير بتغير الملل والأديان! » (٧٦).

ولما كانت هذه القسمة العقلانية، فى الحضارة العربية والتراث
الاسلامى، لم تنشأ ترفا فكريا ورياضة ذهنية مجردة لقلّة من الصفوة
المستنيرة فى صفوف العلماء والمفكرين، وانما نشأت استجابة لضرورة ملحة
وقاهرة فرضها ذلك التحدى الفكرى الذى فرضته الديانات، والمذاهب والملل
والنحل غير الاسلامية على الاسلام وأهله، فى الدولة العربية، عندما كان
المسلمون قلة عديّة بين المتدينين بتلك الأديان.. لما كان الأمر كذلك، فان
هذه القسمة العقلانية لم تقف عند حدود فكر الخاصة وابداع الصفوة
المستنيرة، وانما أصبحت سلاحا فى يد المتكلمين للدفاع عن الاسلام.. لقد

(٧٥) الماوردى (ادب القاضى) ج ١ ص ٢٧٤، ٢٧٥.

(٧٦) التهانوى (كتاف اصطلاحات الفنون) ج ١ ص ٤٦ - ٦٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م.

ولدت ونمت وتبلورت سلاحا في معركة، واستمرت ، الى أمد طويل، حصنا لهذه الأمة وسلاحا لها تصدت به لمواجهة التحدى الفكرى الذى فرضه عليها خصومها الفكريون..

واذا كان فرسان العقلانية، من متكلمى المعتزلة، هم الذين ناظروا زعيم «السمنية» - فى القصة التى رويناها - وأفحموه ، فانهم ، ايضا، هم الذين نهضوا بالعبء الأكبر فى نشر الاسلام والدفاع عن عقائده، وخاصة بين أبناء الأمم والملل التى شاع فيها قدر من التراث العقلانى، ومنطق أرسطو ، وفلسفة اليونان.. لأنهم كانوا، قبل غيرهم ، المؤهلين لذلك، ولأنهم ، دون سواهم، كانوا هم المسلحون بالعقلانية، التى تفوقت على الأدوات العقلانية والمنطقية لهؤلاء الخصوم.. لقد اكتشفوا سر تفوق الخصم، وامتلكوا هذا السر، وعلى يدهم وبابداعهم تطور فأصبح سلاحهم فى تقرير عقائد الاسلام، ودفع شبهات خصومه، وكسب الانصار الى الايمان بهذا الدين الحنيف..

ولما كان المعتزلة هم فرسان العقلانية العربية الاسلامية، وأهم فرقها ومدارسها، فان فرقة من فرق الاسلام لم تتصد لمناهضة خصومه كما تصدت لهم المعتزلة.. فالخوارج - والعقلانية فى فكرهم ملحوظة - كانوا فى شغل عن ذلك بالحرب المتصلة التى لا تدع وقتا ولا جهدا للفكر النظرى ومجادلة خصوم الاسلام.. والشيعية - وهم عقلانيون فى جوانب عديدة من عقائدهم - كانوا قد شغلوا باتقاء اضطهاد الأمويين، وبتجسيد أحزانهم ومأساتهم كى تتحول الى رباط عاطفى يكسب الأنصار ويديم لفرقتهم البقاء.. والمرجئة والجبرية الأموية كانوا «أهل حشو» يقفون عند ظواهر النصوص، ومن ثم فلا جلد لهم ولا قدرة على جدل خصوم المسلمين بمنطق أرسطو وحكمة الفرس وفلسفة الهند واليونان - ولم تكن الفرق الأخرى قد

• ظهرت بعد في الحياة الفكرية الاسلامية ... أما المعتزلة فقد كانوا هم فلاسفة الاسلام الالهيين، الذين تغلف عنهم الدين وتديننت لديهم الفلسفة، ومن ثم كانوا هم الفرقة الاسلامية التي تصدت للدفاع عن الاسلام ضد خصومه، بل واتخذت موقع الهجوم ووضعته ضد هؤلاء الخصوم.. واذا كان تراثهم في أغلب الميادين، وفي هذا الميدان بالذات، قد أتت عليه الاحداث غير المواتية فأبادته، فان هناك شواهد على أنهم كانوا أبرز من تصدى لمحاولات بعث عقائد الفرس القديمة - الشنوية، وفروعها - تلك التي بعثها الشعوب في السنوات الأولى لحكم العباسيين.. وكما يقول جب Gibb (١٨٥٦ - ١٩٠١م) فان المعتزلة هم الذين «استطاعوا أن يقارعوا الشنوية حجة بحجة، وان يفحموهم، وأن يسندوا، بل نقول: ان ينشؤا، الفلسفة الاخلاقية المستمدة من القرآن..» (٧٧).

ويكفي أن نشير الى ان الجزء الخامس من كتاب (المغنى في أبواب التوحيد والعدل) الذي ألفه قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد، قد أفرد للرد على الديانات والفرق والمذاهب غير الاسلامية، لا على النحو الذى نجده في كتب (الملل والنحل) عند غير المعتزلة، كالبغدادى (٤٢٩ هـ - ١٠٣٧م) والشهرستانى (٤٧٩ - ٥٤٨ هـ - ١٠٨٦ - ١١٥٣م) وابن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ - ٩٩٤ - ١٠٦٤م) وانما على النحو الذى يشعرا بحماسة المعركة التى بخاضها المعتزلة، بفكرهم العقلانى، ضد هؤلاء الخصوم الفكرين في ذلك الصراع الفكرى الحضارى الطويل..

ومن الذى يستطيع أن ينكر دلالة ما روى في سيرة امام المعتزلة أبو الهذيل العلاف (٢٣٥ هـ - ٨٤٩م) - وهو الذى تبلورت في عصره نظريتهم

(٧٧) دراسات فى حضارة الاسلام ص ١٦، ترجمة الدكتور احسان عباس، الدكتور محمد نجم،

الدكتور، محمد زايد. طبعة بيروت ١٩٦٤م.

الفكرية في «أصولهم الخمسة» - فلقد قالوا انه قد مارس الدعوة الى الاسلام بين أولئك الذين ورثوا تراثا عقلانيا من أبناء البلاد المفتوحة، وأن الذين أسلموا على يديه وحده قد زادوا عن ثلاثة آلاف!.. اما بشرين المعتمر (٢١٠هـ - ٨٢٥م) - وهو من أئمة المعتزلة أيضا - فقالوا انه قد نذر الله نذرا ان يكسب الى الاسلام اثنين في كل يوم! فاذا لم يتحقق له الوفاء بالنذر في يوم من الأيام عده ديناء، واجب القضاء، فقضاه؟!.. (٧٨)

اذن.. فهذه القسمة العقلانية في حضارتنا وتراثنا كان تصدى أمتنا للتحدي الفكرى الذى فرضه عليها خصومها الفكريون..

وبالتيار العقلانى في هذه الحضارة كان الدفاع عن الاسلام، وكان انتشاره أيضا.. الأمر الذى جعل المسلمين أغلبية في رعية الدولة، وفي القومية التى تبلورت على أرضها، والذى جعل الاسلام على ما أصبح عليه.. دنيأ يزهو، لابنصوصه الشريفة ومأثوراته المقدسة فقط، وانما بالعقلانية التى أصبحت، للمرة الأولى، درعا للدين وقسمة تمتزج بعقائده وأصوله وتعايش معها فى الغالب من الأحيان..

واذا كان حقا ان الاسلام، كدين، لم ينتشر بالسيف.. فان من الحق، كذلك أن نقول: انه قد انتشر انتشاره الأكبر بالعقل والعقلانية، وخاصة عندما تكون الدعوة اليه بين الذين يحترمون سلطان العقل ويجلون ماله من براهين.. وأن نقول أيضا: ان أعظم صفحات تاريخ هذه الأمة هى صفحة ازدهار حضارتها العربية الاسلامية.. وان أبرز قسّمات هذه الحضارة

(٧٨) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٢٥١.

قد تمثلت في تبلور الشخصية القومية الواحدة للأمة.. وفي الثراء الفكري
الذي أبدعه العقل العربي المسلم.. وهما قسمان، وأوجهان لعملة واحدة،
صنعها التيار العقلاني في تاريخنا وتراثنا، ذلك التيار الذي جعل العقل
أشرف سبيل لأشرف المقاصد والغايات..

الفصل الرابع

الفروسية العربية تواجه الفرسان الصليبيين

لكل شيء اذا ما تم نقصان فلا يغر بطول العيش انسان؟!!

وهذا المعنى، الذى عبر عنه الشاعر العربى بهذا البيت، هو الذى نجده عند ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ - ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م)، فى فلسفة التاريخ وال عمران، عندما يتحدث عن دورات الدول والحضارات، ولادة، فشابا، فترفا وشيخوخة واضمحلالا..

ثم.. ماذا حدث للأمة العربية، وحضارتها، ودولتها بعد أن صارع التيار «العقلانى - القومى» خصومها جميعا: الشعبويين، وأصحاب العصبية العربية الجاهلية، وأصحاب الشرائع والملل والنحل غير الاسلامية، فأحرز فى صراعه هذا العديد من الانتصارات، و«سك» لهذه الأمة «عملتها» الحضارية، وعلى أحد وجهيها قسمتها القومية الواحدة، وعلى الثانى الطابع العقلانى لحضارتها التى بلغت قمة التأثير والعطاء والازدهار؟؟.. ماذا حدث لهذه الأمة، وحضارتها، ودولتها بعد ذلك؟؟..

نحن نعلم أن التيار «القومى - العقلانى» قد كسب جولة كبرى فى صراعه مع الشعبوية والثنوية قبل عشر سنوات من انتهاء حكم هارون الرشيد، بنكبة البرامكة (١٨٧ هـ - ٨٠٣ م). ومنذ ذلك التاريخ اقترب التيار «القومى - العقلانى» من الدولة وجهازها.. وفى عهد الخفاء العباسيين الثلاثة: المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ - ٨١٣ - ٨٣٣ م) والمعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ

٨٣٣ - ٨٤٢ م) والواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ ٨٤٢ - ٨٤٧ م) بلغ التيار «القومي - العقلاني» مرحلة امتلاك قمة جهاز الدولة - فلقد كان هؤلاء الخلفاء على مذهب المعتزلة - فاستخدمة في نشر فكريته ومذهبه.. وشهد عصر هؤلاء الخلفاء قمة ازدهار الحضارة العربية الاسلامية، وأروع صفحاتها، وأنجزت فيه أعمال حضارية وفكرية أساسية، آتت أكلها فيما بعد ذلك من السنوات..

ونحن نعلم ان المعتزلة كانوا، في النشأة والتطور، تيارا سياسيا، لهم جمهور واسع وعريض.. ولكن الاهتمام المتزايد بالمباحث العقلية، وخاصة بعد ترجمة الفلسفة اليونانية، قد تحول بهم، أكثر فأكثر، الى تيار فلسفي، و«فلاسفة الهيين»، فغدوا، بالقياس الى «الجمهور» و«العامة»، يمثلون «الاستقراطية الفكرية» الى حد كبير..

أما خصوم المعتزلة، من الفقهاء وأهل التقليد، ممن يقفون عند المأثورات وظواهر النصوص، فانهم كانوا أقرب الى مستوى «العامة» وفكر «الجمهور».. ومن هنا شعر المعتزلة، رغم وجود السلطة في أيديهم، بأن قوة خصومهم، المستندة الى «العامة»، قد غدت تهدد سلطانهم الفكري وتعوق السيطرة المذهبية التي يريدون.. وبدلا من حل هذه المعضلة عن طريق حصر الجدل حول «الالهيات» و«المقولات الفلسفية» في اطار «الخاصة»، وافساح المجال لحرية الخلاف والاختلاف، سعى فريق من المعتزلة الى صبغ المجتمع كله بمذهبهم العقلاني المتقدم والمستنير، واستخدموا لذلك: «العقل» و«السلطة» معا؟!.. وعندما حدثت بعض التجاوزات، ووقع بعض الاضطهاد على نفر من خصومهم، وخاصة بصدد القول «بخلق القرآن»، لجأ خصوصهم الى «العامة»، واستنصروها للدفاع عن عقائدها الموروثة ومفاهيمها الشائعة وتصوراتها البسيطة، ثم انتقلوا بها من مواقع الدفاع الى مواقع التربص والهجوم..

فثلاً.. يشكو الجاحظ من قلة عدد العوام «في صفوف المعتزلة، وكشرتهم في معسكر الخصوم!» (١).. وينبه الى أن خصوم المعتزلة، من الفقهاء، قد جمعت بينهم وبين العامة: النفرة من الفكر الفلسفي العقلاني المركب، والاستئناس الى ظواهر النصوص وتبسيط الأفكار وتسطيحها، من مثل اختيار «التشبيه» بدلا من «التنزيه والتجريد».. الخ.. الخ.. كما ينبه الى أن هؤلاء الخصوم قد استهدفوا قيادة «العامة» واستخدامها في تحقيق طموحات سياسية، فهم - بعبارة - قد «أملوا أن ينالوا بذلك بشاشة العامة، حتى تستوى لهم الرياسة على طعام الناس ورعا عهم!» (٢).. وهو، كذلك، يحذر أعلام المعتزلة وعلماءها من الاغترار بكثرة «المهادنين والمسايرين»، لأن ذلك لا يعدو خلق النفاق ومظاهره، ولم ينقص من عدد الخصوم «فان عدد الجماجم على حاله! وضمير أكثرهم على ما كان عليه، والذين ماتوا قليل من كثير؟! ونحن لا ننتفع بالمنافق! ولا نستعين بالمرتاب، ولا نشق بالجائح! وان كانت المبادأة قد نقصت فان القلوب أفسد ما كانت!.. وهم اليوم الى المنازعة أميل، وبها أكلف؟!» (٣).

وعندما وضحت للمعتزلة، ودولتهم، ان قيادة خصومهم للعامة تتدعم وتتأكد استشعروا الخطر «فالعوام اذا كانت نشرا - (متفرقة) - فأمرها أيسر، ومدة هيجها أقصر، فاذا كان لها رئيس حاذق ومطاع مدبر، وامام مقلد، فعند ذلك يموت الحق، ويقتل الحق؟!» (٤).

وحق لا «يموت الحق، ولا يقتل الحق» - كما قال الجاحظ -

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٧٣.

(٢) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٣٣٩.

(٣) المصدر السابق. ج ٢ ص ١٢٦.

(٤) المصدر السابق. ج ١ ص ٢٨٣.

ارتكبت المعتزلة ودولتها خطأها الأكبر، فاستخدمت جهاز الدولة في محاولتها «إقناع» الخصوم بما لها من أفكار وآراء!..

وأمام القلاقل المتظرة والسخط المتوقع والغضب الموشك على الانفجار، من هذه الأزمة الداخلية في المجتمع، سعت الدولة الى زيادة الاعتماد على القوة العسكرية - الجيش - واتخذت الخطوات الى تنمية حجم هذه الأداة من أدوات الحكم والسلطان.

وأيضاً.. كانت الدولة العربية الإسلامية قد بلغت يومئذ أقصى حدودها في الانتشار والتوسع فبعد أن ملك العرب من الأندلس، على حدود فرنسا الغربية، حتى الحدود الغربية للصين، شرعوا يهددون جنوب أوروبا ويتزعون منها جزرها في البحر الأبيض المتوسط.

• وفي (١٩٥ هـ - ٨٠٩ م) فتح العرب واحتلوا جزيرة «كورسيكا»..

• وفي (١٩٦ هـ - ٨١٠ م) فتحوا واحتلوا جزيرة «سردينيا»..

• وفي (٢١٠ هـ - ٨٢٥ م) فتحوا واحتلوا جزيرة «كريت»..

• وفي (٢١٢ هـ - ٨٢٧ م) بدأ فتحهم لجزيرة «صقلية»..

• وفي (٢٥٦ هـ - ٨٧٠ م) كان فتحهم واحتلالهم لجزيرة «مالطة»..

• وفي تلك الحقبة تجاوزوا فتح الجزر وحروب البحر، فاقحموا

الجنوب الأروني في إيطاليا، ونزلت جيوشهم (٢٣١ هـ - ٨٤٦ م) بميناء

«أوستيا»، وهو المرفأ البحري لمدينة روما، واستمر تهديدهم لها سنوات

ثلاث، بكل ما عناه ذلك من اقتحام المعقل الذي ظل طويلاً مركز الخطر

الروماني الذي احتل الشرق وأقام لنفسه الدول بالشمال الأفريقي ومصر

والشام، ثم استخدم نصرانية الحبشة في محاولة القضاء على البقعة العربية

التي افلست من سيطرته، بمحاولته غزو مكة عام الفيل، بعد أن احتلت اليمن ردحا طويلا من الزمان.

• وحتى بعد انحسار هذا التهديد العربي لروما (٢٣٥هـ - ٨٤٩م)، عادوا فحاولوا غزوها (٢٥٨هـ - ٨٧٢م).. واستمر تهديدهم لها ولايطاليا حتى (٣٠٤هـ - ٩١٦م).. وأثناء تلك الفترة فرضوا الجزية على روما، وسجل التاريخ أن البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢م) ظل لعاملين، يدفع للعرب جزية سنوية مقدارها ٢٥٠٠٠ رطل من الفضة!.. (٥) وبقدر ما كان ذلك مظهر بأس وعنوان قوة، فلقد كان حملا ثقيلا على القلب، جعل المركز والعاصمة وجهاز دولة الخلافة يحملون ما هو أزيد من الطاقة الطبيعية لهم، وزاد من ثقل العبء أن الكثير من أطراف هذه الدولة لم تكن قد تعربت تماما بعد، ومن ثم فلم تكن «القومية الواحدة» بقسماتها الواحدة ولا «الحضارة الواحدة» بسماها المتحدة قد غدت لهذه الأطراف خيوطا وشرابين تؤلف بينها وبين السلطة المركزية والقطاع الذي تعرب من البلاد، فكان «جهاز الدولة» هو الرباط الوحيد بين القلب وهذه الأطراف، الأمر الذي زاد الحمل ثقلا على سلطة الخلافة المركزية في ذلك التاريخ..

ولذلك ، فلم يكن غريبا - وان استغربه البعض - أن تظهر في قمة ازدهار الحضارة العربية الاسلامية، وفي لحظات الذروة من تألق قسمتها القومية والعقلانية، أن تظهر واضحة، بل ومحنة؛ ظاهرة التجزئة والانقسام واستقلال الامارات والولايات عن السلطة المركزية، وخاصة في الأقاليم والأطراف!..

فغير الأندلس التي استقل بها الامراء الامويون منذ أن تأسست

(٥) انظر في ذلك: فيليب حتى (تاريخ العرب) «المطول» طعة بيروت سنة ١٩٥٣م.

الدولة العباسية في المشرق.. وغير قبرص التي استردها البيزنطيون قبل خمس وعشرين عاما من نهاية القرن التاسع الميلادي، انتشرت وتناثرت على خريطة أطراف الامبراطورية دويلات الأسر التي استقلت، رسميا أو عمليا، بحكم العديد من الامارات، من دون خلفاء بني العباس في بغداد..

- فنوساج : في أذربيجان ومراغة وداغستان..
- والأدارسة : في مراکش وغربي الجزائر..
- والأغالبة : في شرقي الجزائر وتونس وطرابلس..
- والبربر والتبو: في شمالي الصحراء الافريقية..
- والنوبيون : في جنوب مصر..
- والطولونيون : في مصر والحجاز وعسير والشام..
- وبنو زياد : في زبيد..
- وبنو يعفر : في صنعاء..
- وبنو نرس : في صعدة..
- وبنو الجلندي : في عمان..
- والزنج : في البصرة..
- والعلويون.. أبناء علي — الزيدية - في طبرستان..
- والصفارية : في سجستان وأفغانستان..
- والطاهرية : في مرو ونيسابور..
- وأحمد بن أسد: في ما وراء النهر..
- والسامانيون : في بخارى..

تجزئة وانشقاقات قاربت العشرين شهدا ذات القرن الذي شهد ذروة الازدهار للحضارة العربية الاسلامية..

وأمام هذا الخطر، أيضا، وجدت دولة الخلافة نفسها مدفوعة الى زيادة حجم القوة العسكرية - الجيش - فأتخذت في هذا السبيل خطوات وخطوات...!

وكانت الحضارة والرفاهة والازدهار وطيب العيش ولين الحياة قد ابتعدت بالعنصر العربي الأول عن خشونة الجند التي عرف بها في عصر الفتوحات، يوم أن كان العرب جيشا، وأشبه ما يكونون «بالاسباطيين»!.. كما أن أحلام الموالي، ذوى الاتجاه الشعوى، كانت لا تزال لبقاياها حياة، الأمر الذى صرف الدولة عن أن يكونوا هم القوة الأساسية في الجيش الذى سعى الخليفة المعتصم الى تكوينه كى يواجه به «أزمة القلب» وانسلاخ الأطراف وما خلفها من مخاطر واحتمالات.

لقد كون المعتصم، ضمن الجيش الذى أنشأه، فرقة «الجند المغاربة» من موالى حوف مصر وحوف اليمن وحوف قيس.. وفرقة «الفراغنة» من أهل فرغانة.. وفرقة «الأشروسية» من أهل أشروسنة.. ولكنه سعى فارتكب أعظم أخطاء الدولة في عصره عندما أخذ يكثر من شراء المماليك الأتراك، وقيم لهم المعسكرات، ويجعلهم القوة الكبرى والرئيسية في جيش الدولة.. حتى لقد أقام لهم مدينة كاملة وجديدة هي «سامراء»!..(٦)

لقد ظن المعتصم أنه باتخاذ الجند الغريب، حضاريا وقوميا، عن المجتمع، سيحصل على أداة القمع الأسهل قيادا، والتي لا أمل لها في السلطة، ولا مصلحة في الصراعات الناشئة من حولها، وانه بذلك سيقم القوة الضاربة التي يحافظ بها على التوازن بين العرب والموالي وغيرهما من العناصر

(٦) السعدي (مروج الذهب) ج ٢ ص ٦٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦.

والأجناس المتصارعة والمتنافسة.. ولكن تضخم هذه القوة العسكرية الجديدة سرعان ما جعلها مركز ثقل وقوة جذب ومصدر توجيه.. فالمدينة التي بنيت لها معسكرا تابعا للعاصمة بغداد تحولت منذ (٢٢١هـ ٨٣٦م) الى عاصمة للدولة، انتقلت اليها الخلافة، وأصبحت بغداد تابعة لها!.. وهؤلاء الجند الذين أرادهم المعتصم قوة بيد الخلافة، سرعان ما أصبحت الخلافة لعبة بيدهم، يولون من أطاع ويعزلون من عصى، بل ويسجنون ويقتلون من يتمرّد على أوامر الممالك الأتراك؟!..

وبسبب من أن هذه المؤسسة الجديدة والكبيرة هي : جند وجيش .. كانت بعيدة عن الاهتمامات الحضارية.. وبسبب من غربتها عن العروبة وتخلف قادتها، بداهة، عن نمط التفكير العقلي والفلسفي كانت أميل الى «العامّة»، وأمعن في عدائها للفكر الفلسفي والآراء المستتيرة والتيار العقلاني.. وهكذا تحولت الأداة التي أرادها المعتصم حصنا للحضارة العقلانية، ضد «العامّة»، تحولت الى حصن للفكر المتخلف انطلقت منه «العامّة» وفقهاؤها ليصيبوا ذلك المد الحضاري العقلاني بالتوقف، فالجمود، فالتراجع، وذلك بمجرد استيلاء الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ - ٨٤٧ - ٨٦١م) على السلطة، بعد موت الخليفة الواثق!..

ولقد رضيت العامّة، وفقهاؤها من النصوصيين، لقصر نظرها، عن هذا الانقلاب.. ولكن سرعان ما أفاق على صوت ناقوس الخطر الأشد.. فلقد استأثر الجند الأتراك بخيرات المجتمع المادية، بعد أن أحكموا قبضتهم على سلطة الدولة السياسية.. وتركوا العامّة وفقهاؤها يسعدون بزوال دولة المعترلة وانحسار فكرها العقلاني، ويتشفون في خصوم الأمس الذين أصبحوا رهن المتافى وغيابات السجون!..

لقد عم الاضطهاد، منذ عهد المتوكل، كلا من المعتزلة والعلويين، ومن لم يوضع في السجن من قادتهم جرد من «حقوقه المدنية» - بلغة عصرنا - عندما أسقطت شهاداتهم أمام القضاء، وسلبت حقوقهم الاقتصادية، وأصابهم الكثير من التمييز في المراسم الاجتماعية والعلاقات الانسانية.. (٧) وذلك فضلا عن تجريم فكر المعتزلة وتجرمه بمراسيم هي أشبه ماتكون بقرارات المجامع الكنسية الكهنوتية، الغريبة عن روح الاسلام!.. (٨) ..

وفي ظل هذا الاضطهاد كانت قيادات الدولة بيد رجال أسماؤهم من مثل : «وصيف» و «بغا» و «كيغلق» و «ياجور» و «بايكباك» و «بكالبا» و «يارجوخ» و «اصفجون» و «طاشتمر» و «كنجور» و «تكين» و «أغرتمشر» و «كنجور» و «تكين» و «اعرتمش» و «ابن كندا جيق» و «اساتكين»؟! .. واستأثرت هذه القيادة، مع مماليكها وأعوانها باقطاعات الدولة وثرواتها، دون العامة، بل وزادت أثرها فاستأثرت بهذه الثروة أحيانا دون عامة الجند والممالك؟! ..

ولقد تصاعدت سطوة قادة الجند الأتراك فبلغت الذروة عندما قتلوا الخليفة المتوكل في ٣ شوال سنة ٢٤٧ هـ ١٠ ديسمبر سنة ٨٦١ م)، فأصبح منصب الخلافة لعبة مستباحة، يتناولونها بالعرل والتولية، وأيضا بالسجن، بل وبالسّم والقتل لمن غضبوا منه أو عليه من الخلفاء! ..

وبعد المتوكل ولي الخلافة المنتصر بالله، محمد بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ - ٨٦١ - ٨٦٢ م) .. وكان شابا في الخامسة

(٧) انظر (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٦٧ و: المقرئزي (الخطط) ج ٣، ٢٧١، طبعة دار التحرير القاهرة.

(٨) آدم مّزّ (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري) ج ١ ص ٣٨١ - ٣٨١٨٣ - ٣٨٣. ط . بيروت سنة ١٩٦٧.

والعشرين من عمره، ذا طموح لاستعادة سلطات الخليفة والعودة بالخلافة الى سلطانها وسلطاتها.. وبعبارات المسعودي: «فلقد كان المنتصر واسع الاحتمال، راسخ العقل، كثير المعروف، راغباً في الخير، سخياً، أديباً، عفيفاً وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق، وكثرة الانصاف، وحسن المعاشرة، بما لم يسبقه خليفة الى مثله!..» (٩)

وكان المنتصر يدرك جيداً أن أية سلطة يرغب في استردادها لنفسه كخليفة لابد من انتزاعها من بين قبضة قادة العسكر الأتراك، وأنه، لكي يضمن ذلك، لابد له من قوى بديلة يعتمد عليها ويستمد منها العون والتأييد. فشرع يتقرب الى العلويين، ورفع عنهم مظاهر المحنة التي كانوا يعيشون فيها منذ انقلاب المتوكل، فلم تعد زيارة قبر الحسين، وغيره من مشاهدهم، امراً محرماً، ورد اقطاع «فدك» - بالقرب من المدينة - الى ذرية الحسن والحسين، بعد ان كانوا قد حرّموا منه، واعاد أوقاف آل ابي طالب الى ذويها.. واعلن في الناس، عامة، «الأمان»!.. وحتى عندما انتصر جيشه على الخوارج الذين ثاروا وسيطروا على اليمن والبوازيج والموصل (١٠)، وجاءوا اليه بقائد الخوارج، أبو العمود الشاري، أسيراً، عفا عنه، «وأخذ عليه العهد وخلي سبيله.. وقال: ان لذة العفو أعذب من لذة التشفى، وأقبح أفعال المقتدر الانتقام!»..

وسار المنتصر، في جمهور الناس، سيرة العدل والانصاف، فحقق الكثير من الأهداف التي ابتغاها من وراء هذا الانعطاف الجديد، وبعبارة المسعودي، فإنه «أظهر الانصاف في الرعية، فالت اليه قلوب الخاصة والعامة، مع شدة الهيبة منها له!»..

(٩) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٢٦.

(١٠) البوازيج بلد بالقرب من تكريت، قريب من مصب نهر الزاب الأسفل.

ولقد بلغ من وضوح هذا التحول الذى أحدثه المنتصر الى الحد الذى أصبح فيه موضوعا لدلائع الشيعة العلوية، الذين كانوا بالأمس خصوما للخلافة وشوارا عليها.. وشاعرها يزيد بن محمد المهلبى يعبر عن ذلك عندما يخاطب المنتصر فيقول:

ولقد بررت الطالبة بعدما	ذموا زمانا بعدها وزمانا
ورددت ألفه هاشم فرأيتهم	بعد العداوة بينهم اخوانا
أنست ليلهم وجدت عليهم	حتى نسوا الأحقاد والأضغانا
لو يعلم الأسلاف كيف بررتهم	لراوك أثقل من بها ميزانا

ولقد أراد المنتصر أن يستثمر تلك القوة التى حققها له «السلام» مع المعارضين والثوار، والعدل مع الرعية فى تحرير جهاز الدولة من استبداد قادة الجند الأتراك.. فطلب الى «وصيف» - وهو أحد اثنين تركزت بأيديهما السلطة والسلطان - أن يترك العاصمة، على رأس جيش، لقتال الروم!.. وأسر الى خاصته أنه عازم على التخلص من قادة الجند الأتراك، وعندما أبصر «بغا» - صنو «وصيف» وشريكه - يختال فى قصر الخلافة ومن حوله الأتراك، قال للفضل بن المأمون: «قتلنى الله ان لم أقتلهم وأفرق جمعهم!» (١١).. هؤلاء قتلة الخلفاء (١٢)!!..

ولكن الاتراك عاجلوا الخليفة المنتصر قبل أن يعاجلهم.. وكما يقول المسعودى: «فلما نظرت الأتراك الى مايفعل بهم، وماقد عزم عليه، وجدوا منه الفرصة» بأن أوعزوا الى طبيبه (الطيفورى) فقتله باستخدام

(١١) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٢٦ - ٤٢٨.

(١٢) (تاريخ الطبرى) ج ٩ ص ٢٥٢.

مشرط مسموم في اجراء « حجارة » له، فلقى مصير المتوكل في ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ، بعد خلافة لم تتعد ستة أشهر؟ (١٣).

وبعد التخلص من المنتصر، أجلس الاتراك على عرش الخلافة خليفة ضعيفا مستسلما هو المستعين بالله، احمد بن محمد بن محمد بن هارون الرشيد (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ - ٨٦٢ - ٨٦٦ م)، واستعادوا تحت رايته ما حاول المنتصر أن ينتزع منهم من السلطة والسلطان، حتى لقد وصف الشاعر الخليفة المستعين، وصور مكانه بين «وصيف» و «بغا» فأجاد الوصف عندما قال :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قال له كما يقول الببغا!

ولقد امتدت يد الاتراك بالاضطهاد، قتلا ونفيا وسجنا وحرمانا، الى حاشية الخليفة السابق، المنتصر، وتصاعدت مظالمهم وزادا استبدادهم بالخلفاء.. فلم يكفهم ما اظهره الخليفة المستعين من ضعف وخضوع، فخلعوه، ثم قتلوه، فشاع في الناس رعب وفرع، عبر عنها الشاعر البحري (٢٠٦ - ٢٨٤ هـ - ٨٢١ - ٨٩٨ م) عندما قال :

لله در عصاة تركية ردوا نوايب دهرهم بالسيف.
قتلوا الخليفة أحمد بن محمد وكسوا جميع الناس ثوب الخوف
وطغوا فأصبح ملكنا متقسما وأما لنا فيه شبه الضيف! (١٤)

فالملك قد اقتسمه كل من «وصيف» و «بغا»، أما نصيب الخليفة (الامام) فهو نصيب الضيف!.. اما الرعية فنصيبها الرعب والفرع والحرمان!..

(١٣) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٢٢٦.

(١٤) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٣٣، ٤٥٠، ٤٥١.

وبعد المستعين تولى الخلافة: المعتز بالله، الزبير بن جعفر المتوكل (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ - ٨٦٦ - ٨٦٩ م) فكان مصيره نفس مصير المستعين، خلعه، وجنسه، ثم قتلوه في سجنه بعد خلعه بستة أيام!.. وقال الشعراء في رثائه، ضمن ما قالوا:

أصبح الترك مالكي الأمر والعا لم ما بين سامع ومطيع! (١٥)
وبعد المعتز ولي الخلافة: المهدي بالله (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ - ٨٦٩ - ٨٧٠ م) فراودته مطامع التغيير والعدل التي راودت الخليفة المنتصر، بل لقد تطلع الى أن يكون في بني العباس كما كان عمر بن عبدالعزيز (٦٢ - ١٠١ هـ - ٦٨١ - ٧٢٠ م) في بني أمية! وقال لخاصة أقربائه: «يا بني هاشم، دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبدالعزيز، فأكون فيكم مثل عمر بن عبدالعزيز في بني أمية!..»

لكن عمر بن عبدالعزيز قد سلك مسلكه بالتغيير الجذري العميق، على حين كان المهدي أسير الاستبداد الذي جعل السلطة حكرا على قادة الجند الأتراك.. ولقد جادلوه، محذرين إياه من السعي في هذا السبيل، لأنهم وجنودهم لا يرغبون في العدل ولا يبيحون لأحد السعي نحو تحقيقه!.. ودار بينهم وبينه حوار بدأوه متسائلين:

- أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها؟!.
- أريد أن أحملهم على سيرة الرسول وأهل بيته والخلفاء الراشدين!
- ان الرسول كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة، كأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم، وانت انما رجالك ما بين تركي وخزري وقرغاني ومغربي وغير ذلك من أنواع الأعاجم، لا يعلمون ما يجب

(١٥) المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٥٧، ٤٦١.

عليهم من أمر آخرتهم، وإنما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا،
فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة» (١٦) ..

ولما استشعر الناس بما يبيت قادة الأتراك ضد المهتدى حاولوا
الحركة لمساندة الخليفة الراغب في العدل والتغيير، وكان توزيع الرقاع -
(المنشورات) - الداعية لمساندة الخليفة واحد من مظاهر حركتهم هذه، وفي
واحد من هذه المنشورات التي وزعت عندما شرع الأتراك في خلعه وتعذيبه
كتبوا:

«بسم الله الرحمن الرحيم. يامعشر المسلمين، ادعوا الله لخليفكم
العدل الرضى، المضاهى لعمر بن الخطاب، أن ينصره على عدوه، ويكفيه
مؤنة ظالمه، ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه، فإن الموالى قد
أخذوه بأن يخلع نفسه، وهو يعذب منذ أيام.. رحم الله من أخلص النية،
ودعا وصلى على محمد، صلى الله عليه وسلم!» ..

بل إن قطاعا كبيرا من عامة الجند قد حاولوا الدفاع عن الخليفة
المهتدى، ضد قادتهم الذين استأثروا، دونهم، بالعطاءات والاقطاعات،
ووجه هؤلاء الجنود «رسالة الى المهتدى شكوا فيها سوء حالهم، وتأخر
أرزاقهم، وما صار من الاقطاعات الى قوادهم التي أجحفت بالضيايع
والخراج، وما صار لكبرائهم من المعاون والزيادات من الرسوم القديمة مع
أرزاق النساء والدخلاء الذين استغرقوا أكثر أموال الخراج! ..

ثم تجمهروا وتقدموا بمطالبهم :

• رد السلطة للخليفة .

• ورد رسومهم الى ما كانت عليه أيام المستعين بالله.

(١٦) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٦٦، ٤٦٣.

- * ووضع نظام جديد لتنظيمهم.
- * واسقاط أنصبة النساء والزيادات والمعاون من عطاء القواد.
- * وأن لا يدخل الموالي فى سلك «الملتزمين» - (القبالات) - أى الوسطاء بين الدولة والفلاحين، وكانوا بمثابة الاقطاعيين .
- * وأن يكون عطاء الجند كل شهرين.
- * وابطال الاقطاعات التى منحت للقواد.. (١٧)

لكن قادة الترك نجحوا، فأوقفوا تحرك العامة، واحتوا حركة الجند وتجمهرهم.. ثم قتلوا الخليفة المهتدى بالله بعد خلافة لم تتعد أحد عشر شهرا؟!.

على هذا النحو كانت حال الدولة.. والى هذا الحد بلغ تيجر قادة الأعاجم الأتراك.. لقد سدوا على الخلفاء المصلحين مسالك الاصلاح، واغلقوا السبل امام كل من راودته آمال الاصلاح من خلال جهاز الدولة، بعد أن سيطروا عليه السيطرة كلها واستبدوا بشئونه كل الاستبداد!..

وعندما اغلقت الابواب امام الاصلاح ودعاته فتحت السبل للكثيرة امام الثورة والثوار؟!.. لقد بدأت ساحات المجتمع وأقاليمه تشهد، منذ تخلص الأتراك من الخليفة المنتصر، اندلاع الانتفاضات والتمردات والثورات التى قادها، على وجه الخصوص ، ثوار علويون..

* ففى سنة ٢٤٨هـ ثار، بالكوفة، ابو الحسين يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن عبدالله ابن اسماعيل بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب.

(١٧) (تاريخ الطبرى) ج ٩ ص ٤٤٣ - ٤٤٦.

- ❖ وفى سنة ٢٤٩ هـ بدأت الجولة الاولى للثورة التى قادها على بن محمد - ثورة الزنج - والتى استمرت حتى سنة ٢٧٠ هـ.
 - ❖ وفى سنة ٢٥٠ هـ ثار، بطبرستان، الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، وامتدت ثورته الى جرجان، واستقرت دولته بهما حتى سنة ٢٧٠ هـ.
 - ❖ وفى سنة ٢٥٠ هـ ثار، بالرى، محمد بن جعفر بن الحسن، كى يضم «الرى» الى الدولة العلوية التى تأسست بطبرستان..
 - ❖ وبعد فشل ثورة الرى، التى تزعمها محمد بن جعفر بن الحسن، ثارها، ثانية، احمد بن عيسى بن على بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب..
 - ❖ وفى سنة ٢٥٠ هـ ثار، بقزوین، الكركى (الحسن بن اسماعيل بن محمد بن عبدالله بن الحسين بن على بن أبى طالب..)
 - ❖ وفى سنة ٢٥٠ هـ، ثار، بالكوفة، الحسين بن محمد بن حمزة بن عبدالله بن الحسن ابن على بن أبى طالب..
- ولقد أدى اندلاع هذه الثورات، من جانب ، وانتشار ظاهرة التجزئة والاقليمية وانسلاخ الولايات، والأقاليم عن الخلافة المركزية من جانب آخر، الى ضعف الحركة التجارية الداخلية، والدولية التى تتخذ المنطقة طريقاً لها، الأمر الذى اضعف قواها الاجتماعية، التى كانت تارخياً، وبحكم المصالح والاستتارة واتساع الأفق، طليعة القوى العاملة على وحدة الدولة واستكمال قسَمات الشخصية القومية لرعيها، فترك ذلك آثاره السلبية على المد القومى، وتحول بخطه البيانى من حركة الصعود الى حركة الهبوط.. ونفس الشيء قد حدث مع القسمة العقلانية للحضارة العربية

الاسلامية، ففي ظل دولة العسكر الأتراك، الغربية عن روح القومية العربية، انتكس الطابع العقلاني مع انتكاسة الوجه الثاني للعملة، وهو الطابع القومى.. فبدأت بذلك مرحلة التوقف، فالجمود، فالتراجع للحضارة العربية الاسلامية، وانفتحت فى جبهتها الثغرات التى أغرت بها أعداءها التاريخيين التقليديين..

ومر قرن من الزمان - الرابع والخامس الهجريين - العاشر والحادى عشر الميلاديين - قبل أن تبدأ ثانية الغزوات الخطيرة والطويلة والعنيفة التى شنها الغرب الأوروبى على الوطن العربى، تحت شعارات المسيح وأعلام الصليب.. وفى هذين القرنين كانت بعض الدويلات الاقليمية - والعربية منها بخاصة - قد عوضت، بقوتها وطابعها القومى وعمقها الحضارى وقسمتها العقلانية، بعض ما فقدته الامة نتيجة ما أصاب السلطة المركزية فى بغداد من ضعف وعجمة وتخلف وجمود بلغ ذروته عندما خضعت هذه السلطة، واقعيا وعمليا، وحتى رسميا، لتسلط دويلات انفصالية، مثل البويهيين (٣٣٤هـ - ٩٤٥م) والسلاجقة (٤٤٧هـ - ١٠٥٥م).. وفى مقدمة هذه الدول العربية التى أبطأت بدخول الحضارة العربية الاسلامية دور الانحطاط، وناوشت الغزاة المتأهبين فأجلت اجتياحهم لقلب الوطن العربى: الدولة الفاطمية (٢٩٧ - ٥٦٧ هـ - ٩٠٩ - ١١٧١م) والدولة الحمدانية (٣٣٣ - ٤٠٦ هـ - ٩٤٤ - ١٠١٥م) فى الشام.. لكن هذا الأمر كان فى اطار التأجيل والابطاء، لا فى اطار التجديد والانبعاث الذى يعيد الخط البيانى لظاهرة الحضارة العربية الاسلامية ودولتها من الهبوط الى الصعود، والصعود المستمر.. لأن الدولة الحمدانية لم تعد أن تكون امارة صغيرة وقفت بها طاقاتها عند حدود الصحوة الفكرية القومية، ومناوشة البيزنطيين واستنزافهم وتأخير اجتياحهم للشام.. أما الفاطميون، فرغم امكاناتهم العظيمة،

وانجازاتهم الكبيرة، والطابع القومى والعقلانى لتجربتهم، الا أن مذهبهم الشيعى قد جعل اجتماع الأمة - وأغلبها سنية المذهب - حولهم أمرا بعيد الاحتمال.. وهكذا كان الفاطميون والحمدانيون، ودويلات أخرى لعبت أدوارا مشابهة وقرينة، بمثابة الصحوة التى تسبق الاحتضار!..

وفى هذه الصحوة واصل السلاجقة (٤٧٠ - ٧٢٨ هـ - ١٠٧٧ م) مهمة الحمدانيين فى قتال البيزنطيين، وأحرزوا انتصارا كبيرا ضدهم فى معركة «منزكرت» - (ملاذكرد) - (٤٦٣ هـ - ١٠٧١ م) وأسروا يومها الامبراطور البيزنطى «رومانوس ديوجنس» (١٠٦٨ - ١٠٧١ م).. كما عاد الفاطميون فواصلوا تهديد ايطاليا، بعد أن اتخذوا من «صقلية» (٣٠٤ هـ - ٩١٧ م) قاعدة لهجماتهم البحرية ضد الشواطىء الجنوبية لأوربا، فوصلت حملاتهم الى «البندقية» و «جنوى» (٣٢٣ هـ - ٩٣٥ م) ..

ووجدت أوربا، وعلى رأسها البابا والكنيسة الكاثوليكية، انهم امام خطر ذى شعبتين: مناوشات حربية وغزوات بحرية متقطعة.. وهم قد أفلحوا فى صدها.. ولكن الذى لم يفلحوا فى صده كان ذلك الخطر المتمثل فى الفكر العربى الاسلامى العقلانى والمستنير.. فلقد كانت الدوائر الكنيسة الكاثوليكية فى أوربا - وهى وحدها دوائر الفكر والثقافة هناك - تقيم أمتع الحاجز ضد ما كانت ترخربه المنطقة العربية من علوم وفنون وأفكار ونظريات.. كانت أوربا تعيش قمة ظلام عبورها المظلمة على خين كنانة القاهرة تنعم بأضخم مكتبة عرفت عواصم تلك القرون، وبدور الحكمة والمراصد والفكر العقلانى والجدل النظرى الذى يعلى من قدر العقل فيحقق المعنى الحقيقى لإنسانية الانسان..

ولكن هذه الدوائر الكنسية، التى افلحت فى ضد جيوش العرب الغازية، قد اخفقت فى تحصين العقل الأوربى ضد الفكر العربى،

فحدثت وعملت عملها قوانين تلك « السنة » الكونية التي تكررت على مر العصور: تحدث الصراعات المسلحة وتنتهى، وتنجح الحملات الحربية وتنفق، وتقوم الدول وتضمحل.. ولكن الأبقى والأدوم والأفضل هو، دائما وأبدا، التأثيرات الفكرية والحضارية التي تستفيد منها الأمم والشعوب من خلال عنف هذه الصراعات!.. ولذلك فإن التاريخ يسجل أن النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى هو الذى شهد طلائع التأثير الأوروبى بالفكر العربى، وهو التأثير الذى أصبح المنطلق الحقيقى الذى انطلقت منه أوربا، عبر قرون عدة وأحداث كبرى، الى عصر النهضة والتنوير..

هـ فقسطنطين الافريقى (المتوفى سنة ١٠٨٧م) هو الذى ارتاد حركة ايقاف الأوربيين على الثمار العقلية للحضارة العربية الاسلامية.. وهو مفكر طلائعى، خلف وراءه أربعة وعشرين كتابا.. ولقد جاء قسطنطين الافريقى وفكره ومصنفاته ثمره لعالمين رئيسيين:

أ- رحلته التعليمية والعلمية التي زار فيها كلا من : خراسان، والهند، وبغداد، والشام، ومصر، والقيروان، حيث درس وتعلم ووقف على البناء الفكرى والحضارى العملاق.

ب- الدراسة والتخرج فى أول مدرسة طيبة قامت بايطاليا، وهى مدرسة (سالرنو) التي تأسست فى القرن التاسع الميلادى، والتي كان تأسيسها بداية اسهام العرب المسلمين فى ايقاظ أوربا، عن غير طريق الأندلس، فلقد أسس هذه المدرسة - التي التحق بها قسطنطين الافريقى سنة ١٠٦٠م - أربعة رجال : لاتينى، ويونانى، ومسلم، ويهودى!. فكانت أول مدرسة خارج الاتدلس تعلم الناس الطب فى أوربا

• وفى تلك الفترة اقتحمت علوم العرب على الايطاليين أسوار جامعة «بولونيا»، فبدأت عنايتها بهذه العلوم سنة ١٠٧٦م..

ووجدت الرجعية الكنسية فى أوربا نفسها ودولتها مهددة بخطر عظيم.. فالجيوش العربية ترى على ايطاليا وتهدد روما ذاتها.. والفكر العربى، العقلانى والمستنير، يقتحم الأسوار التى فرضتها على العقل الأوربى لعدة قرون، وهوى يفعل ذلك من الأندلس، غربا، ومن الجزر التى احتلها العرب فى البحر المتوسط تجاه الشاطئ الجنوبى.. ولاح فى الأفق أن روما وأوربا تواجه المأزق الذى واجهته مكة يوم أن زحف عليها الأحباش لاحتوائها عام غزوة الفيل.. ويومئذ استجمعت الكنيسة مالدنيا من طاقات، وشحذت مافى جعبتها من اسلحة واستنهضت أوربا الاقطاعية لانتهاز الفرصة، ومواجهة العرب، قبل أن تتحول الصحوة التى يعيشونها الى نهضة تتجدد بها حضارتهم اذا هم أطبقوا على ما بين آسيا الصغرى والأندلس، وحولوا البحر المتوسط الى بحيرة عربية، واقتلعوا الخطر التاريخى الذى احترق تهديدهم عبر تاريخهم الطويل..

ومع ايماننا بأن صراعات الأمم والشعوب والحضارات لا تقف أسبابها عند ردود الأفعال - والذين يفسرونها هذا التفسير السطحى لا يبصرون مافى الأعماق - لكننا، فى ذات الوقت، يجب أن نعطى اهتماما كبيرا لما تولده المخاطر عندما تحيق بالأمم الأصلية ذات الحضارة والتراث، ماتولده هذه المخاطر من طاقات تجعل هذه الأمم، التى تمتحنها هذه المخاطر، تستجمع عناصر قوتها وتجدد شباب حياتها، ثم تنهض لتحدى الخطر وكسر الطوق الملتف حول عنقها والمهدد لها بالفناء..

ونحن نتخذ من هذا العامل نموذجا وسبيلا يعفينا من سرد أسباب كثيرة، لايتسع لها المقام، وقفت خلف المد الأوربى الذى تمثل فى

الحروب الصليبية على الشرق العربى، ذلك المد الذى أرادت به أوروبا أن تسترجع ما تحرر من الشرق تحت رايات الاسلام..

* فالجيوش العربية بأساطيلها قد حولت البحر المتوسط الى بحيرة عربية خاصة وخالصة، ثم هى قد شرعت تحتل وتهدد شاطئ الأوربى، بعد أن استقرت، فى جزره الأوربية الكبرى..

* والمدن التجارية الأوربية - وخاصة الايطالية منها - لم تحرم فقط من امتيازاتها التقليدية فى التجارة العالمية عبر طرقها الشرقية والعربية، وانما وطئت أرضها بأقدام الفاتحين العرب المسلمين..

* والنمط الفكرى المتخلف الذى سجدت فيه الكنيسة الكاثوليكية قارتها الأوربية قد سددت، العقلانية العربية الاسلامية اليه السهام..

ومن هنا كان نهوض الكنيسة الكاثوليكية، خاصة فى عهد البابا الذهبى اربانيوس الثانى (١٠٤٢ - ١٠٩٩م) لقيادة أوروبا فى زحف تاريخى بربرى استهدفت من ورائه، لاهزيمة العسكرية العربية فحصب، بل واطفاء المنارات، الفكرية العقلانية التى ترسل الضوء المقض لمضاجعها من مراكز البحث ودور العلم والحكمة فى ديار الاسلام..

* فبدأت، طلائع الحروب الصليبية على أرض الأندلس، وسقطت «طليطلة» بيد الفونسو السادس (٤٧٨ هـ - ١٠٨٥م) ..

* وبعد خمس سنوات، سقطت «صقلية» بيد النورمان (٤٨٣ هـ - ١٠٩٠م) ..

* وفى نفس التاريخ - (سنة ١٠٩٠م) سقطت «مالطة» .. وانحسر عنها الحكم العربى..

* وفى (٤٨٨ هـ - ١٠٩٥م) اكتمل للكنيسة جميع عناصر قوتها :
فبالنداعة شحنوا العامة بمشاعر مجنونة عن الحرب المقدسة ضد المسلمين

«الوثنيين» الذين يعبدون الحجر الأسود و يسجدون لمحمد، و يدنسون مهدي يسوع وقبره!.. وفرسان الاقطاع الأوربي أطمعتهم الكنيسة بملك الشرق وخيراتہ ان هم وجهوا فروسيہم وبأسهم لقتال المسلمين، بدلا من حروبهم المحلية التي لا تنتهى.. والمدن التجارية الأوربية قد تعهدت، بتمويل الجيوش مقابل امتيازات التجارة الدولية التي حرمتها العرب منها منذ أن توحد العرب تحت رايات الاسلام..

ولقد دشت الكنيسة نصرها الاستعدادي هذا في «المجمع» الذي عقده سنة ١٠٩٥م بمدينة «كليرمونت» بجنوبي فرنسا، وهو المجمع الذي خطب فيه البابا الذهبي اربانيوس الثاني، فخاطب فرسان الاقطاع الأوربي بقوله : «.. أنتم فرسان أقوياء، ولكنكم تتناطحون وتتنابدون فيما بينكم.. ولكن، تعالوا وحاربوا الكفار- (المسلمين) - : .. يامن تنابذتم اتحادوا.. يامن كنتم لصوصا كونوا الآن جنودا!.. تقدموا الى بيت المقدس.. انتزعوا تلك الأرض الطاهرة، واحفظوها لأنفسكم، فهي تدرسمنا وعسلا!.. انكم اذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق!..»

وشهدت العصور الوسطى أعجب وأبشع وأطول حملات الغزو والاستيطان التي عرفها ذلك التاريخ، ففي خلالها قذفت أوربا أرض الشرق العربي بخمس وعشرين حملة حربية موها التجار وقادها فرسان الاقطاع وزحف في ركابها الغوغاء، وتضامنت في قذف الشرق بها الممالك والامارات والولايات..

ولقد نجحت هذه الحملات حيناً، فكونت الدول والامارات الاستيطانية اللاتينية، بأرض الشام وفلسطين، حتى استطاعت، زمناً، تحقيق الهدف الاستراتيجي للغزاة فشقت الوحدة الأرضية للوطن العربي وعزلت مشرقه عن ممر- القلب- والمغرب، بكياناتها التي احتلت الأرض

الفلسطينية التي تصل ما بين البحر المتوسط وخليج العقبة، ثم أخذت تهدد مصر، حتى لقد فرضت الجزية عليها زمنا، وأقامت لفرسانها مركزا على أبواب القاهرة وبيدهم مفاتيح لها، مستغلين في ذلك ومستفيدين من صراعات وزراء الدولة الفاطمية على السلطة والسلطان!

نجحت هذه الحملات عندما نفذت الى الوطن العربي من تلك الثغرة التي أفقدته التوازن الحضارى الضرورى والمطلوب.. فالعرب قد نجحوا فى التحرر من البيزنطيين، بل وفى تهديد أوروبا فى مواطنها عندما امتلكوا : السيف والقلم، ودان لهم : العقل والقوة، ووظفت القوة طاقتها فى خدمة العقل.. فلما اعتمد العباسيون على القوة غير العربية، وتكون الجيش من المماليك، زال الانسجام بين العقل والقوة، فتحولت القوة الضاربة - وهى غير قومية - الى قيد على العقل العربى، فكانت السلطة العسكرية المحافظة فكريا والمستبدة سياسيا، والى أصابت المد الحضارى وعصره الذهبى بانتكاسة لم يتخلص العرب من آثارها حتى الآن..

وعندما عالج الفاطميون بعض أسباب ذلك التحلل العباسى، نجحوا بعض النجاحات، خصوصا عندما أقاموا فى قلب الوطن العربى عاصمتهم - القاهرة - التى صارت القلب والقاعدة لوطن اكتملت فى جناحيه عملية التعرب وتوحدت هويته الحضارية الى حد بعيد..

ولكن جيوش الفاطميين البدوية انعزلت عن الطابع الحضارى العقلانى الراقى الذى تمثل فى الأزهر ودور الحكمة والمراسد والمكتبات.. فحدث الانفصام بين العقل وبين القوة، وانشغلت القوة بصراعاتها القبلية، الأمر الذى أفقد العقل درعه وحرّم

القلم سيفه، فكانت الثغرة - ثغرة فقدان الحضارة العربية الاسلامية
الطابع المتوازن الذى تميزت وامتازت به - التى تفقد منها الصليبيون
عندما نجحوا فى تحقيق ما حققوا من انتصارات..



ولم تستطع ثياب الكهنة ولا أردية الرهبان ولا الصلبان التى حملها
الفرسان أن تخفى المطامع الحقيقية، والأسباب الموضوعية التى حركت أوروبا
الاستعمارية فى هذه الحملات..

فالذين حملوا انجيل ديانة السلام والتسامح والمحبة، كتبوا هم أنفسهم
الى البابا الذهبى ياهون بالمجازر التى صنعوها بالعرب والمسلمين ،
بعد دخولهم القدس، فقالوا : «.. اذا أردت أن تعرف مايجرى
لأعدائنا، فثق انه فى معبد سليمان - (جامع عمر بن الخطاب) -
كانت خيولنا تغوص الى ركبتها فى بحر من دماء
الشرقيين!»..... والشرقيون هؤلاء كانوا هم العرب، مسلمين
ومسيحيين!!..

وهذه الحرب التى صورتها الكنيسة على انها مهمة دينية مقدسة يستغفون
بها وجه الله ورضاء يسوع، تكشففت عن حرفة دمار هدفها المال،
وانجاز بربرى يستغفون من ورائه أرض العرب وخيرات الشرق
الدنيوية.. ووفق كلمات أحد البطارقة الذى يقول عن غايات
فرسان الاقطاع الأوربى من حملاتهم الحربية هذه ضد العرب:
«.. فكثيرون من الأشراف والعظماء صاروا يعتبرون الحروب بمنزلة
مهنة صناعية لجمع الأموال الغنية، بل أن التعطش نحو أخذ الغنائم
وحده كان يجذب الجيش الى المحاربة».. (١٨)

(١٨) مكسيموس موتروند (تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق) ج ١ ص ٨٠، ٨١. ترجمة

مكسيموس مقلود. طبعة القدس سنة ١٩٨٥م.

✽ وأرض الشرق التي وعد البابا الذهبي فرسانه بها، وقال لهم عنها: انها تدرسمنا وعسلنا!.. بدأ هؤلاء الفرسان يوزعونها على أنفسهم إقطاعات، حتى قبل أن تقع في أيديهم ممالك وامارات.. فعندما عزموا على غزو مصر، «مسحوا» أرضها، ووزعوها على الأمراء والفرسان.. وبعبارة المؤرخ «أبوشامة» (٥٩٦ - ٦٦٥هـ): «.. وكان ملكهم - لعنه الله - لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها، وتعرف له خبر ارتفاعها - (دخلها) - وأحضر وزيره وأمره باقطاع بلاد مصر لخيالته - (فرسانه) - وفرق قراها على اجناده»!.. (١٩)

✽ والتمويل الذي قدمته مدن أوروبا التجارية - خاصة: جنوة، ونابلى، وبيزا، والبندقية - لهذه الحملات، أخذت تسترد أضعاف أضعافه باحتكارها السيطرة على طرق التجارة، وجلب الأرباح حتى من تجارة الأقاليم التي نجت من الاحتلال المباشر.. و «غليوم الصورى» يصف ثراءهم من تجارة مصر فيقول: «كانت خزائن مصر تحت تصرفنا.. كما أن موانئ أقاليم مصر كلها كانت مفتوحة لقبول مراكبنا، وتجارها كانوا ينقلون الى موانئ بلادنا غلات أراضيها، وهذه المتاجر كانت كلية الفوائد لنا.. وكانت الجزية والخراجات توفى لنا بانتظام!» (٢٠) هكذا تكشف المطامع عارية، ولم تفلح في سترها دعايات الكهنة ولا أردية الكهنوت.. وأمام هذا الخطر المدمر والبربري لهذا الاستعمار الاستيطاني انتفض كيان الشرق العربي فأفرز عوامل القوة والمقاومة التي تصدت

(١٩) أبوشامة (الروستين في اخبار الدولتين: النورية والصلاحية) ج ١ ص ٣٤٠ ط . القاهرة سنة ١٢٨٧هـ.

(٢٠) (تاريخ الحروب المقدسة في المشرق) ج ٢ ص ١٦٦.

لفرسان الاقطاع الأوربي حتى هزمتهم وقذفت بهم وبكياناتهم الغربية الى مواطنهم الأصلية..

وخلف هذه الانتفاضة وفيها كان الفعل والتأثير لتلك القسمة التي ميزت شخصية الانسان العربي أمام المخاطر والتحديات، وهي القسمة التي بلغت مبلغ القانون الذي حكم صراعاته ضد أعدائه.. فهو يبصر سرتفوق الخصم، ثم يسمى لامتلاك هذا السر، فيضيف قاعليته وتأثيره الى سلطان الحق المتمثل في عدالة قضيته.. وبذلك تجتمع لديه امكانيات النصر في هذه الصراعات..

ولقد كانت الفروسية الاقطاعية الأوربية في مقدمة أسباب التفوق الصليبي على العرب في ذلك الصراع.. فأوروبا المتخلفة حضاريا كانت تمتلك مؤسسات للفروسية، أفرزها عصرها الاقطاعي، ورسخت بقايلدها في الحرب، وبرزت وحشيتها في حملاتها ضد العرب والمسلمين. كان شرف الفروسية والفارس عندهم يتمثل في الاخلاص والطاعة والشجاعة.. وكانت أهدافها: حماية السادة، والكنيسة، وقاتل الكفار. (المسلمين)!!.. ولقد ساعدت الحروب الصليبية على اعلاء شأن الفارس والفروسية لدى أوروبا في ذلك العصر، حتى لقد أصبح الفارس عندهم وفي مجتمعهم يمثل كل شيء وكل قيمة.. وبعبارة المؤرخ الناقد أسامة بن منقذ - وهو معاصر لتلك الأحداث - : « فان » الفرنج - خذلهم الله - ليس فيهم من فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية الا للفرسان، ولا عندهم ناس الا الفرسان، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم!..» (٢١).

(٢١) (الاعتبار) ص ٦٤، ٦٥ تحقيق: فيليب حتى. طبعة برنستون سنة ١٩٤٠م.

ومن هنا أصبحت عزيمة الشرق في انتفاضته ضد هذا الخطر على امتلاك سلاح الفروسية واقامة مؤسساتها حتى يقهر بها خصومه ويجلبى بواسطتها غزاته، فلا يقل الحديد الا الحديد! .

ولكن الشرق ذا الحضارة والتراث الاسلامى لم يكن، وما كان له، أن يصنع فروسيته على النمط الوحشى الذى ميز فروسية أمراء أوروبا الاقطاعيين.. فهؤلاء، كانوا نتاج اقطاع أوروبا المظلمة، بينما كان للشرق العربى والمسلم تراث فى الفروسية تميز بالقيم النبيلة منذ أنه ظهر فيه الاسلام..

ومنذ قرون كانت قد استكنت فى ضمير هذه الأمة القيم السامية التى علمها أبوبكر الصديق قائد جيشه يزيد بن أبى سفيان عندما قال له: « انى موصيك بعشر: لا تقتل امرأة، ولا صبيا، ولا كبيرا، ولا هرما، ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا الا لماأكلة، ولا تحرقن نخلا ولا تفرقنه، ولا تغفل - (تخن) - ولا تجبن!..».

ولقد تحول هذا التراث الشرقى فى الفروسية ، عند مواجهة الخطر الصليبي ، الى الخصال والسجايا العشر التى أصبحت دستور مؤسسات الفروسية الاسلامية التى شرع العرب فى اقامتها كى يدفعوا بواسطتها غزاة أوروبا الصليبيين..

فنشأت فى الوطن العربى أنظمة للحكم كان قوامها مؤسسات الفروسية وعمادها الجيش الذى تكون فى معسكراتها.. تلك المعسكرات التى كان يجلب اليها الممالك الصغار، حيث ينشأون نشأة حربية بصرقة وكاملة، لاصلة بينها وبين حياة المدنيين بشواغلها ورفاهيتها، ومع حياة الحرب وتدريباتها كانوا يتعلمون سجايا الفروسية العشر: التقوى..

والشجاعة.. ورقة الشماثل.. والصبر.. ومراعاة الجوار.. والمرءة..
والكرم.. وحسن الضيافة.. ومساعدة النساء والأرامل.. والوفاء
بالعهود.

ولقد أصبحت مؤسسات الفروسية العربية الاسلامية هذه دولة، ثم
نمت من خلال دولها.. وكانت طلائعها هي الدولة الزنكية التي أسسها
عماد الدين بن محمود زنكى (٥٢١ - ٥٤١ هـ، ١١٢٧ - ١١٤٦ م) بالموصل
(٥٢١ هـ - ١١٢٧ م).. وبفرسانها بدأ الخط البياني في الصراع «العربي -
الصليبى» (يتجه الى صالح العرب والمسلمين.. فلقد أحرز هؤلاء الفرسان
أولى الانتصارات العربية ضد الصليبيين عند «حصن الأثارب» - بين حلب
وانطاكية - و «حصن حارم» - تجاه انطاكية -.. وفى عهد السلطان نور
الدين الشهيد (٥٤١ - ٥٦٩ هـ - ١١٤٦ - ١١٧٣ م) - الذى خلف عماد الدين
- واصلت الدولة انتصاراتها، فحررت أمانة «الرها» الصليبية، ونقلت
عاصمتها الى حلب، كي تكون على مشارف الأرض المحتلة، واستطاعت
تطويق الكيانات الصليبية من الشرق والشمال..

وبمساعدة هذه الدولة هزمت مصر غزوات الجيش الصليبي أواخر
الحكم الفاطمي، وعندما انفرد جيشها، وقائده صلاح الدين الأيوبي بحكم
مصر، تم تطويق الكيانات الصليبية من الجنوب أيضا، ولم يبق امام هؤلاء
الغزاة المستوطنين، دون حصار، سوى شاطئ البحر المتوسط، الذى منه
وفدوا غزاة لقلب الوطن العربى فلسطين..

وعلى امتداد سنوات الحكم الأيوبي والمملوكى تواصلت المعارك
التي حولت أرض الوطن العربى الى بؤرة دائمة التفجير والغليان.. وتحولت
أسماء قرى صغيرة وبقاع مجهولة الى نجوم وشهب لمعت فى صفحات التاريخ
بما دار عليها وفيها من معارك وملاحم فى هذا الصراع الحضارى والطويل..

وكما شاركت أوروبا جمعاء في هذا الغزو فلقد أسهم العرب جميعا في التصدي، وامتدت ساحات اللقاء من «الرها» الى «الكرك» الى «حطين» و «القدس» و «عسقلان» و «الاسكندرية» و «المنصورة» و «دمياط» و «قلعة بانياس» الخ.. الخ.. كان الصليبيون يريدون إعادة امبراطورية الغرب التي أقامها الاسكندر المقدوني بالشرق، قبل الميلاد، وبجاهدون لمحو الانتصار التحرري الذي أحرزه العرب بفتوحات الاسلام.. على حين كان العرب يواجهون التحدي بروح المدافع عن كيانه وبقائه امام الاستعمار الصليبي الاستيطاني.. وسيطرت على جوامع المعارك وسمائها علامات استفهام، لدى الفريقين: نكون؟ أو لا نكون؟!.. وبلغة مؤرخ، وشاهد عيان، هو ابن شداد (٥٣٩ - ٦٣٢ هـ - ١١٤٥ - ١٢٣٤) «فلقد علمت كل طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس، معدومة النفس!»..

وبعد قرابة القرنين من الصراع المشتعل والمتواصل أخذت مؤسسات الفروسية العربية الاسلامية تقطف ثمار النصر النهائي في هذا الصراع الطويل.. فاقترح الجيش المصري بقيادة السلطان الاشرف بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ - ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م) أسوار عكا في مايو سنة ١٢٩١ م.. ثم سقطت صور وصيدا وبيروت، وانطرطروس.. وكان سقوط آخر قلاع الفرسان الداوية الصليبيين في «عتليت» منتصف أغسطس سنة ١٢٩١ م نهاية واحدة من أطول وأعنف جولات الصراع التاريخي والحضاري بين العرب والغرب!.. وهي الجولة التي جاءت أوروبا فيها باحتواء آمله الشرق حضاريا، وطامعة باستغلاله اقتصاديا، وساترة هذه الآمال والمطامع برداء الدين وصلبان المسيح عليه السلام!..

وفي هذه الجولة أكدت هذه الأمة، مرة أخرى، بمؤسسات الفروسية

ودولها التي أفرزتها ودفعته بها إلى ساحة الصراع، أكدت صدق القانون الذي حكم هذا الصراع التاريخي الحضاري، عبر كل عصوره، وفي جميع ميادينها، وهو القانون الذي أصبح قسمة من قسومات شخصية هذه الأمة: فأمام الخطر، وفي مواجهة المخاطر، وتجاه التحدي، يبحث الإنسان العربي ويفتش حتى يبصر مرتفوق الخصم، فيسعى لامتلاك هذا السر، ويضيف قوته إلى قوة الحق المنبعثة من عدالة قضيته، ثم يفتح ميدان الصراع لينتزع حقه من غاصبيه.. مثبتاً، دائماً وأبداً، أنه إيجابي، يحدد ذاته، ويتجاوز سلبياته أمام المخاطر والتحديات!..



الفصل الخامس

العرب يستيقظون ويواجهون :
النخلف العثماني.. والنقدم الاوربي..

عجيب وغريب — أو هكذا يبدو — ذلك الذي حدث لكل من الشرق العربي والغرب الأوربي خلال القرون الخمسة التي فصلت نهاية الغزوة الصليبية بالعصور الوسطى عن بداية الغزوة الاستعمارية في مطلع العصر الحديث! فهذه القرون الخمسة التي تبدأ بانحيار آخر المعادل الصليبية على الساحل الشامى سنة ١٢٩٠م، والتي تنتهى ببداية طلائع الغزوة الاستعمارية الأوربية، بقيادة بونايرت، سنة ١٧٩٨م، قد بدأت بنصر للعرب، ثم انتهت ببداية مرحلة من هزائهم أمام عدوهم المهزوم!.. وفيها حدث ذلك الذي يبدو عجيبا وغريبا.. حدث ان انهزم المنتصر؟!.. وانتصر المهزوم!!!..

فالعرب، فى سنة ١٢٩١م، قد توجوا انتصاراتهم العسكرية، وبلغوا بمسيرتهم الحربية ضد الغزوة الصليبية الذروة، عندما طهروا وطنهم من بقايا المستعمرين المستوطنين اللاتين.. لكن القوى التي أحرزت هذا الانتصار العسكري كانت فى الأساس مؤلفة من جند الممالك، ومن ثم فلقد كانت قوة غربية، قوميا وحضاريا، عن الأمة والشعب والتراث والتاريخ،

وهي لو وقفت عند حدودها، حدود الأداة التي تحمي بها الأمة وطنها وتدفع بها الأخطار عن حضارتها، لأثمر النصر العسكري ثماره المرجوة على مختلف الجبهات.. لكنها لم تقف عند هذه الحدود، حدود الجيش والأداة المسلحة التي تحرس الأرض وترعى الحمى، وإنما استأثرت — وهي الغريبة عن روح الحضارة قومية، وغير المؤهلة لأن ترتفع الى مستويات الطابع العقلاني لفكرها — استأثرت بكل شيء.. فحدث ذلك الذي حذر منه فيلسوف مثل ابن رشد عندما شبه الجيش بالراعي، وحذر من تجاوزه لحدوده متسائلا، وإن يكن في قسوة: «وماذا لو أكلت كلاب الراعي غنمه؟! (١)».

نعم.. لقد تحولت الأداة والوسيلة الى العقل والقيادة.. وانتصرت القوة الضاربة فاحتلت مكان العقل والفكر.. واختل التوازن بين السيف والقلم، لحساب السيف وحده تقريبا.. وزاد الأمر سوءا أن «القوة والسيف والعضلات» كانت غريبة قومية وحضاريا عن الأمة التي استأثرت بحكمها.. لقد بدأت القصة بمؤسسات الفروسية التي لجأت اليها الأمة كي تتخذ منها أداة تفل بها فروسية امراء الاقطاع الصليبيين، فاذا الأداة تصبح هي الأصل، واذا الأمة تتحول الى أداة، بل وألعوبة في يد الممالك.. وهؤلاء الجنود الذين اشترتهم الامة رقيقا، ثم دربتهم وسلحتهم، ليدافعوا عنها، تحولوا، بعد النصر العسكري، الى سادة، واستعبدوا الأمة، سيادة الأمس، فتحولت عندهم الى رقيق؟!..

ولقد وقفت هذه الحقيقة، القاسية والمرة، خلف الهزيمة الحضارية التي أصابت الشرق العربي، على الرغم من انتصاره العسكري ضد الصليبيين!.

(١) (مسلمون ثوار) ص ٩٨..

ففي ظل هذه النظم، وبدءاً من الدولة الأيوبية تحولت الأرض الزراعية الى «اقطاع حربي» لرؤساء الأجناد وامراء الممالك.. لقد منعوا هذه الأرض من أن تصبح اقطاعاً حربياً للفرسان الصليبيين، وكان هذا انجازاً تاريخياً وعسكرياً باهراً، ولكنهم أقطعوها لأنفسهم مقابل هذا المنع وهذه الحماية!.. لقد كان جوهر علاقات الانتاج في الأرض الزراعية قائماً على نظام الالتزام، وكان الالتزام مباحاً للقادرين.. أما في ظل دول الجند - الغز والترك والممالك.. فان الأرض قد اقطعت، اقطاعاً حربياً، لرؤساء الأجناد وامراء العسكر الممالك، وتحول الفلاحون الى «أقنان»!.. صحيح انهم لا يباعون، ولكنهم ايضاً لا يعتقون!.. لقد ربطوا بالأرض، التي غدت اقطاعاً حربياً للجند، وغدوا بعضاً من أدوات فلاحتها واستزراعها لحساب الممالك.. والمقر يزي ينبه على هذا التغير الذي حدث فيقول:.. «واعلم أنه لم يكن في الدولة الفاطمية، ولا فيما مضى قبلها من دول، لعساكر البلاد اقطاعات، بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية، وانما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء.. ولم يعرف ما يسمى اليوم بالفلاحة، والذي يسمى فيه المزارع المقيم بالبلد فلاحاً قراراً - (اي مربوطاً بالأرض مقيداً بها) - فيصير عبداً قنّاً لمن اقطع تلك الناحية، الا أنه لا يباع ولا يعتق، بل هو قن ما بقي، ومن ولد له كذلك؟!» (٢)

ولقد دخل هذا الاقطاع الحربي بالبلاد الى رحاب نمط من الاقطاع يقترب من ذلك الذي عرفته أوروبا، عندما كانت الامارة الاقطاعية فيها تمثل وحدة اقتصادية وإدارية وسياسية، فضعفت في البلاد السلطة المركزية من الناحية الفعلية، وهي المركزية التي اثمرتها ضرورات

(٢) (خطوط المقر يزي) ج ١ ص ١٥٧. طبعة دار التحرير. القاهرة.

المجتمعات النهرية منذ زمن موغل في التاريخ، وانعكس هذا الأمر على السمات القومية الموحدة للأمة الواحدة، كثمرة لقيام الحواجز بين الامارات الاقطاعية، التي كانت تسمى «السنجقيات» و «الكشوفيات»، وجيبت «المكوس» على التجارات العابرة لهذه الحواجز، مما أضعف دور التجارة كرباط توحيدتي قومي للأمة مو الوطن، وغدت للكثير من هذه «السنجقيات» اجهزتها المتميزة والمستقلة عن السلطة المركزية (٣) وحتى نعرف مبلغ الجراح التي أصابت قسّمات الأمة القومية وسماتها الوحدوية، بسبب الاقطاع الحربي، يكفي أن نعرف أن بلدا كمصر، وهو من أقدم المجتمعات الانسانية التي عرفت المركزية، قد افتقد، مع الوحدة الادارية، وحدة العملة، والمكايل، والموازين، والمقاييس، ولم يستردها الا في عصر محمد علي (٤)!! ..

ولقد كانت هذه الردة القومية تحدث للشرق العربي الذي انتصر عسكريا، وبسبب تعدي الجند المملوكي الذين حققوا هذا النصر لحدود دورهم واختصاص مؤسستهم، على حين كان الغرب الأوربي، الذي انهزم عسكريا، قد بدأ السير صوب عصر الاحياء واليقظة، وبدأت حواجز اماراته الاقطاعية تتخلخل وتهاوى امام احتياجات السوق الواحدة وسمات الأمة وقسّمات القومية ودولها..

وهكذا سار المنتصر في طريق الهزيمة!.. وسار المهزوم في طريق الانتصار!..

وبسبب من غربة السلطة العسكرية المملوكية، حضاريا، عن الأمة العربية، تحول «التوقف» و «الجمود» الذي أصاب الحضارة العربية

(٣) (فجر اليقظة القومية) ص ٢٧٣ - ٢٧٧.

(٤) د. محمد عمارة (العروبة في العصر الحديث) ص ١١٢ - ١١٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

الاسلامية وتسلطهم في العصر العباسي الثاني، ولتطاول القرون.. تحول هذا «التوقف» و«الجمود» الى «تراجع» و«انحطاط»..

فبعد الخلق والابداع والاضافات التي تميزت بها وشهدتها مختلف جبهات الفكر وفروع العلم والمعرفة، والتي مثلت وجسدت العصر الذهبي لحضارتنا، وقف الجهد عند «الجمع» و «التصنيف» و «التدوين» و«الاعداد» و «التهذيب» و «التنقيح».. وتميز العصر «بالحفظ والتقنين» للتراث والتراث غير العقلاني بالذات، ولم تعد الاضافات نطاق «الشروح والحواشي» التي وضعت على «المتون»، وسادت الدوائر «الفكرية» تلك الحكمة التي تقول: «من حفظ المتون حاز الفنون»!..

فبدلاً من الابداع والاضافة في الفكر الاسلامي وعلومه العقلية، بنى المماليك روائع عصرهم المعمارية، مساجد ومدارس وتكايا، جلس فيها الفقهاء والدرأويش بدلاً من الفلاسفة والعلماء والمتكلمين!.. وحتى هؤلاء الفقهاء والدرأويش حول الممالك غاليتهم الى موظفين يحصلون على نفقات معيشتهم من «الأوقاف» التي صادروها من الناس ثم رصدوها لهذه المؤسسات، بعد أن بنوها بالسخرة..» (٥)

وما كان لهذه «الدول» العسكرية، الغريبة حضارياً عن روح الأمة وفكرها القومي والعقلاني الا أن تصل «بالتوقف والجمود» الحضاري الى طور «الانحطاط».. ففاقد الشيء لا يعطيه، والانسان عدو ما يجهل، وتلك هي النهاية اذا ما حدث وقاد الأعمى البصير!..

وزاد المفارقة وضوحاً وبروزاً أن أوربا كانت في طريقها لليقظة، واليقظة النابعة من الاحتكاك العنيف بالعرب المسلمين!.. فلقد بدأت

(٥) د. محمد عماره (بناء المساجد وبناء الأهرامات) مجلة (قضايا عربية) ص ٤٣ - ٥٢،

عدد أغسطس - سبتمبر سنة ١٩٧٧م.

تتعرف على تراثها الفلسفي من خلال الفلسفة العربية الإسلامية ورأت
أرسطو في شروح ابن رشد، وجالينوس في الرازي، وأفلاطون في ابن سينا
والفارابي.. الخ.. واخذت - رغم الكنيسة والكهانة - تنهل من ابداعات
العرب وازدادات المسلمين، ثم خطت خطواتها الى النضج عندما ازعجتها
وزادت من يقظتها فتوحات العثمانيين في أوربا، وخاصة للقسطنطينية سنة
١٤٥٣ م (سنة ٨٥٧ هـ) فأخذت تتعرف على تراثها القديم مباشرة، وتطوره،
وتضيف اليه الجديد.. على حين استبدلت بلادنا «تكايا» الطرق الصوفية
بالتصوف الفلسفي، واستعاضت «بخوانق» الدراويش عن «دور الحكمة»
وبيوتها.. وحج الناس الى المزارات والأضرحة، بعد أن تبددت المكتبات!..
ومن ذا الذي لا يأسف، بل ويحزن، عندما يعلم أن دولة الجند الغز والممالك
قد بددوا مكتبة القاهرة الفاطمية التي كانت تضم - حتى بعد ما أصابها في
المجاعة التي حدثت أيام المستنصر (٤٢٣ - ٤٨٧ هـ ١٠٣٦ - ١٠٩٥ م) -
٢٠٠٠ ر ٢٠٠ كتابا، ومن كتبها من تزيد مجلداته على الستين مجلدا، ومن
هذه الكتب من يبلغ عدد نسخه المخطوطة - فلم تكن الطباعة قد عرفت بعد
- كتاريخ الطبري - ١٢٠٠ نسخة؟!.. وكتاب (العين) للخليل بن
أحمد، الذي بلغت عدة نسخه الثلاثين، وكتاب (الجمهرة) لابن دريد،
الذي بلغت عدة نسخه بها الخمسين!.. تبددت هذه المكتبة، التي لم يكن لها
نظير في المعمورة يومئذ، تحت إشراف الأمير بهاء الدين قراقوش، الذي
يتحدث عنه، في هذا الصدد، المؤرخ أبو شامة فيقول: «انه تركي، لا خبرة له
بالكتب، ولا دربة له بأسفار الأدب!..».

فكانت هذه الكنوز على يديه كالميراث مع أبناء الأيتام، يتصرف فيها بشره
الانتهاك والالتهام (٦).. ولقد حدث ذلك سنة ٥٧٢ هـ سنة ١١٧٦ م.. أي

(٦) (كتاب الروضتين) ج ١ ص ٥٠٧، ٥٠٨، ٦٨٦، ٦٨٧.

قبل تدمير مكتبة بغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ سنة ١٢٥٨م بأكثر من ثمانين عاما؟!..

هكذا سارت الأمور، وتطورت الأحداث.. فالفرسان الذين حققوا، على الجبهة العسكرية، اعظم الانتصارات، قد صنعوا - لغربتهم الحضارية عن الامة، ولتعددهم نطاق «السيف والقوة» الى حيث جعلوا من أنفسهم «القلم والعقل» - صنعوا أكبر قدر من الجمود والمحافضة والتخلف على الجبهة الحضارية وفي الواقع الفكري للامة العربية..

ولم يكن العثمانيون بأحسن حالا في هذا الميدان، بل لقد افتقدوا بعض ميزات الأيوبيين والمماليك، اذ بينما تعرب الاخرون، أو حاولوا، احتفظ العثمانيون بعجمتهم، بل وحاولوا تتركب العرب، وزادوا في محنة القسمات القومية للامة العربية، ووقفوا منها موقف الأعداء الألداء!..

ولذلك فان هذا الذي بدا غريبا وعجيبا - وهو هزيمة المنتصر.. وانتصار المهزوم - ليس - عند النظر والتأمل - بغريب ولا عجيب!.. ولذلك، ايضا، كان منطقيا ومبررا تماما ذلك المشهد الذي استيقظ له الشرق العربي وفتح بسببه عقله وعيونه، مشهد الغرب الذي عاد في صورة بونابرت ومن بعده من تلاه من الغزاة، لينتصر عسكريا، بعد أن انتصر في بلاده حضاريا.. ينتصر عسكريا على المماليك والعثمانيين الذين أضاعوا - عندما فرطوا في الحضارة، وتنكروا للعقل، وذبلت على ايديهم القسمات القومية للامة - أضاعوا حتى الثمرات التي أحرزوها على الجبهة العسكرية عندما هزموا موجة الغزاة الصليبيين..

وعندما ادهش هذا المشهد عقل العرب وقلوبهم، حرك فيهم ما يحرك «مس» الكهربياء، اذا هي لم تصعق فتميت، واذا هي وقفت عند حد

الايقاظ والتنبيه..

ومع بداية هذه الجولة الجديدة من هذا الصراع القديم سمعنا تلك الصيحة التي أطلقها الشيخ حسن العطار (١١٩٠ - ١٢٥٠ هـ ١٧٧٦ - ١٨٣٥ م) ذلك الشيخ الأزهري الذي اقترب من علماء الحملة الفرنسية، فعلمهم العربية وأبصر ما لديهم من علوم: «ان بلادنا لا بد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها!».»

وفي هذه الجولة من جولات هذا الصراع الحضاري القديم بدأ القانون الذي حكم مراحله وجولاته يعمل عمله من جديد.. وبدأت طلائع الأمة تبحث عن التحديات الرئيسية التي غدت في أقدامها قيودا وفي اعناقها أغلالا ولعقوها اقفاصا من المحافظة والخرافة والجمود تحول بينها وبين النمو والتخليق.. بدأت تبحث عن هذه التحديات، وتسعى سعيا حثيثا لاقتلاعها من واقعها.. واخذت، كذلك، تسعى لاستكشاف اسرار التفوق الجديد الذي اكتسبه العدو «الجديد - القديم» من التطور الحضاري الذي احرزه وتسارع به، ثم تبحث عن سبلها الذاتية والخاصة لامتلاك هذه الأسرار والتسلح بأسلحتها، مستعينة في ذلك كله بما في ترسانة تراثها وحضارتها مما يسهم في المواجهة التي فرضها عليها الغزاة..

وفي عملية البحث والمعاناة هذه، وضعت الأمة يدها على أبرز ثلاث

تحديات:

أولها: فكرية العصور الوسطى والمظلمة، التي تجاوزها العصر، والتي غدت قييدا على حركة الأمة يعجزها عن مواجهة التحدي الحضاري للغرب المتقدم..

وثانيها: السلطة العثمانية التي اصطبغت بالصبغة الدينية، فجعلت سلطنتها «خلافة»، كي تتخذ من الدين رباطا يربط الأمة العربية بالحكم التركي،

بعد أن افتقدت الى رباط قومي يربط المحكوم الى الحاكم.. وهى السلطة التي فقدت القدرة العسكرية الى جانب افتقادها المنعة والمناعة الحضارية، فغدت ثغرة تتيح للغرب الاستعماري التسلل الى الشرق والالتهام لأقاليمه وأجزائه..

وثالثها: الحضارة الغربية التي بلغت فتوة الشباب ونضج الحكماء، فجاءت تحاول انهاء ذلك الصراع التاريخي لحساب قومها، باحتواء العرب حضاريا، مرة بالعنف المتمثل في السحق القومي والمسح الحضاري، وأخرى بالاغراء وتشجيع المهزوم على تقليد المنتصرين..

وأمام هذه التحديات الثلاثة.. وبسببها.. وتصديا لها.. أودورانا من حولها.. كانت حركات اليقظة والنهضة والاصلاح والتجديد، التي تفجرت من واقع هذه الأمة وانبثقت من عقلها وقلبها منذ ان تصاعد المد بمخاطر هذه التحديات..ومن هذه الحركات :

١- السنوسية: والتحديات الثلاثة

ولد محمد بن علي السنوسي (١٢٠٢ - ١٢٧٦هـ - ١٧٨٧ - ١٨٥٩م).. وكان عربيا، ولد في بيئة عربية، غير بدوية، فلقد ولد بالجزائر، في قبيلة مجاهر، وسط عصبية تبعث على القوة والاعتزاز.. فالحي الذي ولد فيه قد بلغ تعداداه... ٧٠٠ نسمة يتبعهم وينضوي حولهم ٢٠٠٠ نسمة في مقاطعة وهران الجزائرية.. وكانت ولادته بقرية الواسطة، قرب مستغانم..

ومنذ صباه سلك الطريق الذي قدر له أن يصنع عليه الانجاز الكبير الذي حققه لأمة ودينه الطريق الذي برز عليه ابن السنوسي قديما، فارسا، عربيا، مجددا، معاديا للاستعمار!.. فهو منذ الصبا، يقسم يومه الى

نصفين، أحدهما لطلب العلم وتحصيله وثانيها للتدرب على الفروسية وركوب الخيل واستعمال أدوات القتال؟! .. وهويتقل، طالبا للعلم، في أبرز حواضر العلم العربي والاسلامي في ذلك التاريخ.. فهو قد درس في جامعة القرويين بفاس.. ثم جاء الى القاهرة (١٢٣٩هـ - ١٨٢٤م) فدرس بالأزهر.. ثم ذهب الى الحجاز (١٢٤٠هـ - ١٨٢٥م) فأخذ عن بعض شيوخ مكة والمدينة.. وفي رحلاته هذه لتحصيل العلم اخذ ورفض، ونظر وانتقد، حتى لقد أعلن رفضه لدعوى اغلاق باب الاجتهاد، وقدم هو ذاته اجتهادات في اطار المذهب المالكي، الذي تمذهب به منذ صباه، الأمر الذي جلب عليه غضب شيوخ الأزهر المحافظين، حتى لقد هم الشيخ عlish (١٨٠٢ - ١٨٨٢م) أن يقتله بحربته، لولا ان السنوسي كان قد غادر البلاد!.. وأيضاً.. في رحلات السنوسي هذه الى العلم لقي الكثير من شيوخ التصوف، وانتسب الى العديد من «طرقه».. وهنا نجده، أيضاً، يأخذ ويرفض، وينظر وينتقد، حتى استقر به اليقين على طريقة ابتكرها، جاءت مزيجاً من الفقه والتصوف، ولقاء بين الشريعة والحقيقة، ومزاوجة بين النص والذوق، ففيها رأينا السلفية التي تعتمد على براهين الكتاب والسنة وتنكر الوسائط، ورأينا التصوف الشرعي الذي يقصد الى مجاهدة النفس وتزكيتها، فكانت طريقته مزيجاً من الطريقة البرهانية والطريقة الاشراقية، مع ميل أكثر الى البرهانية.. بل ورأيناها لا تقف عند حدود علوم الشرع، علوم: الذات والصفات، والفقه، والحديث، والدلالات.. وانما تدرس العلوم الطبيعية: الفلك (الهيئة)، وتقني أدوات لها مثل الاسطرلاب، والكرات، والازياج.. الخ.. الخ..!

ولقد غادر السنوسي المغرب، للمرة الأولى، سنة ١٨٢٩ م بعد أن قتل الوالي التركي حسن بك، أحد اساتذته! فغادر المغرب غاضباً، وقاصداً الحج الى بيت الله الحرام في مكة.. وفي العام التالي (سنة ١٨٣٠م) بدأ

احتلال الفرنسيين لشمال بلاد الجزائر، حيث ولد، وحيث يعيش أهله، فلم يستطع دخولها، ولكنه رحل وطاف بجنوب الجزائر، حيث لم تكن قد سقطت بعد في يد الفرنسيين.. ثم غادرها الى القاهرة، فالحجاز مرة ثانية، وهناك تبلورت في عقله أسس الطريقة التي قرر الدعوة اليها، واغلب الظن أنه قد استشرع، بعد احتلال الجزائر، الذي كان اول نجاح اصابه الاستعمار الغربي في جولته الحديثة من صراعه التاريخي ضد العرب والمسلمين، استشرع عظم المخاطر وشدة التحديات، واستلهم فكرة «المرابطة» والتربص والاعداد والاستعداد للجهاد، وليس الفورة المتعجلة، المتسمة بالبداوة، لقد كان السنوسي امام تحديات كبرى: استعمار اوروبي مسلح بحضارة حديثة وعملاقة، وسلطنة عثمانية أصبحت قيذا على الأمة العربية يعوق انطلاقها، ومن ثم فلقد غدت، بما تمثله من جمود ومحافظة وخرافة ومظالم، ثغرة واسعة تتيح للاستعمار أن يلتهم بلاد العرب وأوطان الاسلام.. وأمام مثل هذه التحديات، فلا بد من الفكر والتجديد — (الشرعية) — ولا بد من اعداد الذات العربية للصبر والمصابرة والجهاد والمقاومة — (الفروسية ومجاهدة النفس وتقويتها وتقويمها) — اذن لابد من «المرابطة»، فرباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، كما يقول الحديث الشريف (٧) ومن هنا كانت فكرة «الزاوية» — وهي نموذج جديد «للرباط» القديم — التي ابتكرها السنوسي، والتي كانت نموذجا للمجتمع الجديد الذي استهدفه، والانسان الجديد الذي اراده، والتي كانت واحة يحقق فيها تجربته وسط محيط قد رفضه وعزم على تغييره في المدى الطويل! وفوق جبل ابي قبيس، بمكة، أقام السنوسي اول زاوية لطريقته (١٢٥٢هـ - ١٨٣٧م).. وبعد ثلاث سنوات غادر الحجاز الى المغرب، واستقر في فاس، يمارس التدريس، ويدعو الى طريقته الجديدة، لكن حكومة مراكش خشيت مذهبه، فضيقت عليه

(٧) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة والدارس وابن حنبل .

الخنّاق، فغادرها الى طرابلس الغرب (سنة ١٢٥٧ هـ سنة ١٨٤١ م). ومن طرابلس أخذ يسهم في ثورات الجزائر ومقاومتها للاحتلال الفرنسي، فساعد ثورة تلمسان والصحراء (١٨٤٨ - ١٨٦١ م) التي قادها محمد بن عبد الله، وعصيان الظهرا الذي تزعمه محمد بن تكوك ١٨٥١ م.. وفي الزاوية البيضاء، على الساحل الليبي، كانت «الزاوية» الثانية التي أقامها السنوسي (سنة ١٢٧١ هـ سنة ١٨٥٥ م).. وبعد ان استقرت طريقته في برقة، عاد الى الحجاز للمرة الثالثة، فأقام بها ثماني سنوات، ومنها نشر طريقته في أنحاء عدة من الحجاز واليمن، وتأسست لها «الزاوية» في المدينة والطائف والحمراء وينبع وجده ورباح ووادي قاطمة والمضيق واصفان وابان.. ثم غادر الحجاز عائدا الى الجبل الأخضر، بليبيا، فاستقر هناك (١٢٧١ هـ ١٨٥٤ م) (٨).

قلنا أن محمد بن علي السنوسي كان: قديسا وفارسا عربيا، وعالما مجتهدا، وعدوا للاستعمار. والناظر في تعاليم طريقته وتربيتها لأعضائها يجد هذه الصفات هي المباديء والأفكار المحورية التي قامت لها وبها هذه الطريقة، كما يجد «الزاوية» هي النموذج لذلك المجتمع الذي اخذ السنوسي يعد نفسه وأتباعه لاقامته..

ولقد بلغ عدد الزوايا السنوسية التي أحصاها المؤرخون مائة وثمان وثمانين زاوية، خمس وعشرون منها في شبه الجزيرة العربية، ومائة وثلاث

(٨) انظر لوثرروب ستودارد (حاضر العالم الاسلامي) ج ٢ ص ١٤٠، ٣٩٨، ٤٠١. ترجمة عجاج نوهضر، وتعليق شكيب ارسلان. طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م. و: د. أحمد صدقي الدجاني (الحركة السنوسية. نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر) ص ٣٧، ٣٩، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٧. طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م. و: سيرتناموس. و: ارنولد (الدعوة الى الاسلام) ص ٣٧١. ترجمة: د. حسن ابراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، اسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م.

وستون في افريقيا، في ليبيا ٩٧، وفي مصر: ٤٧، وفي السودان الاقليمي: ١٧، وفي تونس: ٠٢ ونحن اذا شئنا ان نستخدم لغة عصرية في وصف «الزاوية» والحديث عن وظائفها قلنا انها: مؤسسة الحكومة — (الطريقة)، ومزرعة الدولة، ونموذج المجتمع الجديد الموعود.. فقير المسجد، نجد فيها منزلا لقائدها — (المقدم) — وللوكيل، وللشيخ.. وفيها بيوت للضيوف وعابري السبيل، وللفقراء الذين لا مأوى لهم، وفيها مساكن للخدم، ومخازن للمؤن، واصطبل، ومتجر، وفرن، وسوق.. وتحيط بهذه المباني «العامّة» المساكن الخاصة بالقبائل التي تقوم الزاوية في منطقتهم.. وللزاوية ارض زراعية خاصة بها، وآبار جوفية، وصهاريج لحفظ المياه.. وأرض الزاوية وحدائقها تزرع جماعيا، اذ يأتي كل من يقطن في منطقتها يوم الخميس من كل أسبوع الى هذه المزرعة يعملون عملا جماعيا بلا أجر.. أما محصول أرض «الزاوية» فانه ينفق على احتياجات فقرائها، وضيوفها، غذاء وكساء وتعليما وزواجا.. الخ.. وما بقي يذهب الى مركز الطريقة الرئيسي..

ومقدم الزاوية هو ممثل شيخ الطريقة فيها، وقائد قبائلها عند الجهاد.. ووكيلها يشرف على الزراعة وشئون الادارة والمال والاقتصاد.. وشيخها يتولى تعليم الصغار وعقود الزواج.. ومع المقدم والوكيل والشيخ كان رؤساء القبائل المجاورة ووجوهها، يكونون مجلس ادارة الزاوية.

وكانت لمواقع الزوايا فلسفة تحكمها.. فكثير منها قد أقيم على مواقع منشآت يونانية ورومانية قديمة، وحكمت الاختيار لمواقعها اهداف اقتصادية وسياسية، مثل طرق القوافل الهامة، ونقاط الدفاع الحصينة، والغايات المرجوة من نشر الاسلام في قلب القارة الافريقية، والبعد عن مواطن الصدام بقوات الاستعمار قبل التمكن والاستعداد!

ولقد حولت هذه الزوايا التي تناثرت في الصحراء وعلى مشارفها

الأرض القاحلة الى جنات مثمرة، وكان السنوسي قدوة لطائفته في الانخراط بالعمل اليدوي، زراعة وصناعة حرفية.. وعندما كان بعض تلامذته يطلبون منه أن يعلمهم «الكيمياء» - وكانت تعني عندهم تحويل المعادن غير النفيسة الى معادن نفيسة بتلاوات وطلسمات - كان يسخر من هذه الأوهام، ويعلمهم أن الانتاج الزراعى في أرض الزوايا هو المصدر الحقيقي للثروة، فيقول: «الكيمياء تحت سكة المحراث!.. انها كد اليمين وعرق الجبين!» وكان يعلم تلاميذه أن العاكفين على الأوراد والأوراق والمسابع لن يتقدموا أهل الزراعة والحرف عند الله ابدا.. هكذا كانت الزوايا، وهكذا وصفها السنوسي فتحدث عن أن «الأرض تبتهج من حولها بأنواع الأشجار، ويكثر بها السكان لكثرة الثمار، وتتشرفها العمارة وتتسع بها الادارة!..».

وكما كان للعمل الجماعى بأرض الزاوية وصناعاتها الحرفية يوم من كل أسبوع، هو يوم الخميس، فلقد كان يوم الجمعة خاصا بالتدريب على الفروسية واستخدام السلاح، والمران على فنون الحرب والقتال.. (٩)

ومن هذه الزوايا انطلق الرجال ينشرون الاسلام، كما تفهمه الطريقة السنوسية.. ينشرونه بين أعراب الصحراء وقبائلها الذين كانوا مسلمين سلفاء، ولكن اسلامهم لم يكن يتعدى في الأغلب الأعم التدين ببعض شكليات الاسلام، حتى لقد كان الكثيرون منهم يعجزون عن تلاوة آية قرآنية، بنصها، اثناء الصلاة، فيتلفظون بمعاني بعض الآيات حاسبين أنها هي نصوص الآيات!..

ناهيك عن العادات والتقاليد والأعراف التي كانت أقرب الى

(٩) (الحركة السنوسية) ص ٢٣٧ - ٢٤٢، ٢٨٢ - ٢٨٥. و(حاضر العالم الاسلامى) ج ١ ص

٢٩٧، ج ٢ ص ١٦٣، ١٦٤.

الجاهلية هي منها إلى الإسلام. وينشرون الإسلام أيضا — وذلك هو الأهم — بين القبائل الوثنية في قلب إفريقيا.. وإذا كانت للإسلام اليوم دول ولعقائده أتباع في قلب إفريقيا وغربها فإن مرجع الكثير من ذلك كله إلى الطريقة السنوسية، فهي التي بشرت بالإسلام بين القبائل الوثنية التي كانت تدين «بالفتشية».. وكانوا يقطعون الطريق على النخاسين تجار الرقيق، ويخلصون الأطفال الزوج المخطوفين، ثم يحملونهم إلى «الزوايا» حيث ينشأون على الإسلام ويفقهون تعاليمه، ثم يعيشون بهم إلى أبناء جلدتهم في مواطنهم الأصلية يبشرون بالإسلام... وبفضل حركة التبشير السنوسية هذه دخل الإسلام واكتسب أنصارا في «واداي» و«الباقري» و«بوركو» و«النيجر الأدنى» و«برنو» و«الكونغو» و«الكامرون» و«كانم» و«الداموا» و«الداهومى» وحول «بحيرة تشاد»، التي أصبحت، بفضل جهد السنوسية، مركز الإسلام في وسط إفريقيا، ودان بتعاليمه من حولها أربعة ملايين من السكان الإفريقيين.. وعلى أيديهم كذلك دخل الإسلام السودان الأوسط، حتى لنستطيع أن نقول أنهم هم الذين صنعوا الحزام الإسلامى لإفريقيا جنوبي الصحراء، من سواحل الصومال شرقا إلى سواحل السنغامبية في الغرب.. ويترجم عن حجم الجهد السنوسى في هذه المنطقة عدد الزوايا الهامة التي ذكرها الرحالة والمؤرخون لهم في هذه البلاد، فلقد بلغت سبعة عشر زاوية، أي أنها تأتي في المرتبة الرابعة بعد ليبيا — وهي المركز — ومصر، وشبه الجزيرة العربية.. ولكنها تأتي في مقدمة المناطق التي نهضت فيها السنوسية بنشر الإسلام والتبشير بعقائده وتعاليمه..

والسنوسية لم تنشر، في هذه المناطق، تعاليم الإسلام وعقائده وحدها، بل لقد أقامت حيثما نشرت الدين، ومع الزوايا، دولا وممالك وسلطنات، منها سلطنة «رابع» و«أحمدوا» و«ساموري».. والرحالة

كوبولاني Copoulani يتحدث عن اسلوهم في التبشير الذي اثمر تأسيسهم لهذه السلطنات فيقول: «انهم كانوا يدخلون هذه المناطق تارة بهيئة تجار، وطورا بهيئة مبشرين، يهدون الى الاسلام القوم الفتيشين، ونجدهم يبسون زوايا جديدة في هذه الأقطار الشاسعة الممتدة من شمالي افريقيا الى اقصى اقصى السودان... (١٠)

والسنوسية كانت تنهض بهذه المهمة في القرن التاسع عشر، قرن المد الاستعماري الأوربي لابتلاع القارة الافريقية، والسيطرة على أقطارها واستغلال أهلها ونهب كنوزها ومواردها، الأمر الذي يجعل لعمل السنوسية هذا معنى أكثر من مجرد نشر عقيدة دين سماوي بين أقوام وثنيين، ويعطيه بعدا يتعدى الهدى والوعظ والارشاد بتعاليم الاسلام.. فلقد كانوا كتيبة الصدام العربية الاسلامية التي تصدت، في شمالي افريقيا وقلبها للزحف الاستعماري الأوربي الجديد.. وهنا يتضح معنى الاهتمام في الزوايا بالتدريب الاسبوعي على الفروسية والحرب والقتال، ومعنى اعتناء التعاليم السنوسية بفكرة الجهاد في الاسلام.. فهم قد جعلوا ابناء الطريقة في افريقيا في حالة استعداد دائم للجهاد، كالجيش في حالة الاستنفار، بينما جعلوا واجب ابناء الطريقة في آسيا المعاونة المادية لآخوانهم الافريقيين (١١)!!..

ونحن اذا شئنا شواهد وأمثلة على تصدي السنوسية في افريقيا للزحف الاستعماري الأوربي وصداماتها الفكرية، بل والحربية المسلحة معه، وجدنا الكثير..

• فهم قد حاربوا الفرنسيين في مملكة «كانم» و «مملكة» «واداي»، بالسودان، قرابة الخمسة عشر عاما (١٣١٩ - ١٣٣٢ هـ -

(١٠) (حاضر العالم الاسلامي) ج ٢ ص ٤٠٠.

(١١) (الحركة السنوسية) ص ٢٥٥.

١٩٠١-١٩١٤م).

• وهم قد قاوموا الغزو الايطالي لليبيا، الذي بدأ سنة ١٩١١م،
ودامت مقاومتهم البطولية له عشرين عاما..

• ولقد استغاثت جمعيات التبشير الأوربية، التي كانت طلائع للمد
الاستعماري الأوربي وظفت الدين في خدمة النهب الاستعماري، استغاثت
بحكوماتها الاستعمارية، فضغطت على السلطان العثماني كي يحد من نشاط
السنوسيين.. وقاوم السلطان هذا الضغط حيناً، ثم خضع له أخيراً، وحاول
أن يستقدم الى الآستانة المهدي السنوسي (١٢٦٠ - ١٣٢٠هـ - ١٨٤٤ -
١٩٠٢م) الذي قاد الطريقة بعد أبيه، أن يستقدمه الى الآستانة كي يعيش
هناك في «القفص الذهبي»، كما صنع السلطان ذلك مع جمال الدين
الافغانى، حول نفس التاريخ تقريباً؟!.. ولكن السنوسى رفض، وأجاب
رسل السلطان بكلمات لا تحمل معنى محمداً، وتلا آيات قرآنية تتحدث عن
التوكل على الله!. وقرر نقل مركزه من واحة «جغبوب» الى مكان موغل في
الصحراء أكثر هوة «الكفرة»، كي يتعد عن متناول السلطان، والانجليز
الذين احتلوا مصر، والايطاليين الذين كانوا يسعون الى شمال ليبيا، وحتى
يقترّب أكثر فأكثر من منطقة الصدام مع طلائع الاستعمار في قلب افريقيا..
وبعد سنوات أربع من هذا الانتقال، عاد فأوغل في قلب الصحراء مرة
اخرى، واستقر في «قرو» بالسودان الأوسط، في الصحراء
الافريقية!.. (١٢)..

• والحكومة الفرنسية - وكانت قد احتلت المغرب العربي - قد
جعلت من «الطرق» الصوفية هناك - (الطريقة) - ركيزة كبرى لتأييد
احتلالها وتأييده، بل ولتحويل بلاد مثل الجزائر الى امتداد فرنسي عبر البحر

(١٢) (حاضر العالم الاسلامى) ج ٢ ص ١٦٢، ١٦٣. و(الحركة السنوسية) ص ٢٢٥ - ٢٢٧.

المتوسط في افريقيا.. ووجدنا من زعماء تلك «الطرق» من يبرر، باسم الدين، حملة فرنسا لسحق الشخصية القومية للجزائريين، ودمجهم في فرنسا، وتحويلهم الى فرنسيين، يبرر ذلك بقوله: «اننا اذا كنا قد أصبحنا فرنسيين، فقد أراد الله ذلك، وهو على كل شيء قدير، فاذا اراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد فعل، وكان ذلك عليه أمرا يسيرا، ولكنه، كما ترون، يمدهم بالقوة، وهي مظهر قدرته الالهية، فلنحمد الله ولنخضع لارادته؟! (١٣)

وهذا النوع من الصوفية هم الذين سمحت لهم فرنسا بمزاولة النشاط، بل وباحتكار ميادينه، وهم الذين تحدث عنهم السياسي الاستعماري جابريل هانوتو G. Hanotaux (١٨٥٣ - ١٩٤٤م) وزير خارجية فرنسا في مقاله: (قد أصبحنا اليوم ازاء الاسلام والمسألة الاسلامية) فقال: «.. أن من بين تلك الطرائق والطوائف من يخلد أعضاؤه الى السكون، وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا في الجزائر وتونس على أحسن ما يرام، وما ذلك الا لأن الرابطة التي تربطهم ببعضهم قد اعتراها الوهن، لأن الفوضى التي أصابت الاسلام الافريقي قد أخذت نصيبها منهم (١٤)!

ولكن هانوتو، نفسه، يستثنى السنوسية من هذه الطرائق والطوائف، ويتحدث عن عدائها لغير المؤمنين بالاسلام - وهو مصطلح استعماري صليبي يعنى العداء للاستعمار الاوربي الصليبي - ويشكو من الشكوى من أن السنوسية قد أصبحت سدا منيعا يفسد على الاستعمار مخططة الافريقي الرهيب، فيقول، مواصلا حديثه عن الطرق الصوفية في افريقيا: .. ولكن

(١٣) (مسلمون ثوان) ص ٢٦٣.

(١٤) (الاسلام والرد على منتقديه) ص ١٨ - مجموعة أبحاث ودراسات - طبعة القاهرة سنة

توجد طوائف بلغت شدة العصبية منها مبلغا عظيما، لأنها مؤسسة على مبدأ كفاح غير المؤمنين وعلى كراهية المدنية الحاضرة. فقد أسس الشيخ السنوسي، وفي جهة ليست بعيدة من الأصقاع التي تلي أملا كنا في الجزائر، مذهباً خطيراً، له أشياع وأنصار.. ومن مذهبهم التشدد في رعاية القواعد الدينية.. ولقد لبثوا زمنا مديدا لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية - (العثمانية) - بسبب ما بينها من العلاقات وبين الدول المسيحية.. وهم يطرحون حبائل الدسائس التي أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في إفريقيا الجنوبية.. فهناك، في قرانا وبلداننا - (كذا)؟! - نرى درويشا فقيرا، متدثرا بأرديته البيضاء المعلمة بخطوط سوداء، يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه، لا يلويه عن ذلك شيء.. هذا الدرويش - الذي ينتقل من خيمة الى خيمة ومن قرية الى قرية، راويا حوادث الاقطاب الاولياء من مشايخ الاسلام - انما يبذر في القلوب، حيثما حل وأينما توجه، بذور الحقد والضغينة علينا.. انهم يخترقون، بلا انقطاع ولا توان، مستعمراتنا الافريقية، فيستقبلهم أهلها بالترحاب، ويحسنون وفادتهم، ويكرمون مشواهم، حتى ان الفقير منه لا يرى في اكرامه له اقل من أن ينحر له شاة، هذا عدا ما يجمعه له من صدقات ذوي البر والاحسان أو من المرتبات المالية السنوية التي يبلغ ما يدفعه أهالي الجزائر وخدمهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام!.. وهذا لما يستوجب العجب والدهشة، لأن مقدار ما نجيه من الضرائب كل سنة من أهالي الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ؟!..

هكذا تصدت السنوسية للتحدي الاستعماري الذي فرضته أوربا على العرب والمسلمين، فكان للجهاد في طريقها معنى ووظيفة، وكان للقوة

والاستعداد للقتال مكان ملحوظ في «الزوايا» والتعاليم، وفي الممارسة والتطبيق..

* * *

وقد استتبع عدااء السنوسية للاستعمار، وتصديهم لزحفه على افريقيا العربية، شمالا ووسطا، اعلاء شأن العروبة في طريقهم وتعاليمهم ونشاطهم العملي، وما كان منه ذا طابع سياسي على وجه الخصوص.. ومن هنا كانت السنوسية واحدة من حركات اليقظة العربية، كما كانت مجابهة وتصديا لفكرية العصور الوسطى ولزحف الاستعمار..

فمحمد بن علي السنوسي، مؤسس الطريقة، عربي أصيل، فكرا ونسبا، بل هو نموذج للقائد العربي الذي تستدعيه المرحلة التاريخية والبيئة التي ظهر فيها.. وكما يقول عنه الرحالة هاملتون Hamilton فلقد تحلى «بكل ما ينبغي أن يتصف به القديس العربي من صفات، فهو دقيق في فهم الدين، مرح، يركب فرسا من أتقى سلالة، ويلبس بفخامة، ويكحل عينيه بالكحل كما يصبغ لحيته بالحناء، وهو شديد الكرم لضيوفه، وتزیده مواهبه واخلاصه احتراما فوق احترام!» (١٦)

والسنوسيون كانوا ينشرون العربية مع نشرهم للاسلام.

ثم انهم — وهذا هام جدا — قد رفضوا سلطة الدولة العثمانية وسلطانها وتسلطها على العرب المسلمين، وأعلنوا، بلسان شيخهم وقلمه أن الخلافة لا بد وأن تكون عربية قرشية — والقرشية كانت دائما رمزا لرفض حكم غير العرب للعرب — فلقد كتب السنوسي في كتابه (الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية) أن الامامة والخلافة لا بد وأن يليها عربي قرشي، واستشهد على ذلك بأراء الماوردي، ورفض قول الذين يشيرون هذا المنصب

(١٥) المرجع السابق. ص ١٧-١٩.

في المسلمين من غير العرب (١٧).. وهذا الموقف الفكري دلالة التي لا تنكر في رفض خلافة آل عثمان ..

ويزيد قسمة العروبة وضوحا في الحركة السنوسية ما أدركوه من أن الخلافة العثمانية قد غدت من الضعف والهزال والتفريط في مصالح العرب الى الحد الذي أصبحت معه «ثغرة» كبرى يتسلل منها الاستعمار الغربي لالتهام بلاد العرب واقتطاع أقطار الاسلام.. بل لقد قطعوا بأن الأتراك قد أصبحوا «مقدمة النصارى - (أى المستعمرين الأوروبيين) - مداخلوا محلا الا ودخله النصارى؟!» كما يحكى احمد الشريف السنوسى - ابن مؤسس الطريقة - في كتابه (الدرالفريد الوهاج في الرحلة من الجغبوب الى التاج).. (١٨). اما المهدي السنوسى فانه هو القائل: «الترك والنصارى، انى أقاتلهم معا!.. (١٩)..»

وتجدر الاشارة والتنبيه الى أن حديث السنوسية عن عدائهم للترك والنصارى انما يعنى العداء لكل من الاستعمار والتسلط العثماني والأوربي.. فلقد هادنوا الأتراك وتعاونوا معهم عندما تناقضت مصالح الدولة العثمانية مع الاستعمار الايطالى اثناء الحرب الطرابلسية.. ثم هم لم يعرفوا التعصب الدينى ضد أتباع الديانات الأخرى.. والرحالة هامتلون يقول عنهم: «انهم أقل تعصبا من عامة العرب».. والتاريخ يحكى كيف أن السنوسى الكبير قد عزل قيادة احدى الزوايا، لأنهم طردوا سائحا وأمة من منطقتهم، لأنها من النصارى.. (٢٠) فلقد كان التمييز مطلوبا بين المخالفين في الدين وبين

(١٦) (الحركة السنوسية) ص ٩٥.

(١٧) المرجع السابق . ص ١٠٧.

(١٨) المرجع السابق . ص ٢١٦.

(١٩) (حاضر العالم الاسلامى) ج ١ ص ٢٩٩.

(٢٠) (الحركة السنوسية) ص ٩٥، ١٥٥.

المستعمرين.. والمهدي السنوسى هو الذى يحدث أخاه الشريف فيقول له: «لا تحقرن أحدا، لا مسلما ولا نصرانيا ولا يهوديا ولا كافرا، لعله يكون في نفسه عند الله أفضل منك. اذ أنت لا تدري ماذا تكون الخاتمة! (٢١)» فعداؤهم للترك، كعدائهم للأوربيين، قد وقف عند حدود العداء للاستعمار.. فهم قد رأوا خطر الزحف الاستعماري الاوربي، وتصدوا له.. ورأوا في دولة الرجل المريض - علاوة على اغتصابها الخلافة من العرب - ثغرة ينفذ منها النهب الاستعماري، ومقدمة لهذا الاستعمار، فحكموا بأن الترك مقدمة الاستعمار الاوربي، وأنهم مداخلوا بلدا الا ودخله الاستعمار.. ولقد صدقت وقائع التاريخ وتطورات الصراع في المنطقة كلمات السنوسيين!..

هكذا كانت الحركة السنوسية.. واحدة من حركات اليقظة العربية الاسلامية، التي واجهت بها الامة التحديات التي فرضها عليها الأعداء..

• فبالسلفية المعتدلة، التي تنقى العقيدة من شوائب الشرك وشبهات الوسائط بين الانسان وخالقه.. وبالتصوف الشرعي.. وبفتح باب الاجتهاد، ورفض دعوى اغلاقه.. صنعت مزيجا فكريا رفضت به فكرية العصور الوسطى والمظلمة.. عصور الممالك والعثمانيين..

• وبالجهد.. وتربية المريدين والأنصار على الفروسية وأدوات القتال.. وببشر الاسلام والعروبة في افريقيا، جنوبي الصحراء.. أعماقت زمنا طويلا زحف الاستعمار الاوربي، وقاتلت جيوشه، وأفشلت خطط مبشرية السنين الطويلة.. وحتى عندما هزمت أمام تفوقه، فانها قد تركت فكرا وتنظيما لعب دورا في المد التحرري الذي شهدته هذه المنطقة ضد سيطرة الاستعمار.

(٢١) (حاضر العالم الاسلامي) ج ٢ ص ١٦٤.

* وبالانحياز الى عروبة الخلافة.. والحذر، ثم العداء تجاه الأتراك العثمانيين.. برزت السنوسية واحدة من حركات اليقظة والتجديد التي تصدرت لأبرز التحديات التي فرضها على هذه الأمة أعداؤها في العصر الحديث..

٢ - المهديّة : الشعب يقاوم بالأسطورة ؟!

قبل الحاق السودان بمصر (١٨٢٠ - ١٨٢٣م)، في عصر محمد علي، لم يكن الشعب السوداني قد حقق وحدته الوطنية، فوطنه من حيث الادارة والسياسة ينقسم الى ممالك وسلطنات، أهمها سلطنة الفونج في الشرق وسلطنة الفور في الغرب، والنوبيون في الشمال.. كما أن الأعراق المختلفة لسكانه: عرب، ومستعربون، ونيليون، وحاميون، كانت تسهم هي الأخرى في تمزق البلاد.. واذا كان الفتح المصري للسودان قد ألحقه بحكومة واحدة، وجعل له «حكمدارية» واحدة في العاصمة الجديدة: الخرطوم، فإن التمزق الواقعي لم يختف تماما، وظل متجسدا في الأقاليم والسلطنات، تركيه اختلافات القبائل والأعراق.

لكن هذا القدر من الوحدة السياسية والادارية، وما استتبعه من تطور حضارى محدود وبطيء قد نبه السودانيين الى روابط المصالح المشتركة بينهم جميعا.. ثم كانت السلبات التي وقعت من الادارة الجديدة طاقة محرّكة لنمو هذا الاحساس المشترك الجديد..

* فبعد مقتل اسماعيل، بن محمد علي، قائد الجيش الفاتح، محترقا.. انتقم جيش محمد علي من السودانيين انتقاما شديدا..

* والضرائب التي فرضت على السودانيين - والتي كانوا يسمونها «الجزية» - كانت باهظة، وفي طريقة تحصيلها الكثير من الشدة، وغير قليل من الاذلال..

* وبعد أن دخلت حكومة القاهرة في اطار النفوذ الأوربي منذ اتفاقية لندن سنة ١٨٤٠م، وبالذات منذ عصر الخديوى سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣م) والخديوى اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩م)، وخصوصا في عهد الخديوى توفيق، الذى خلف اسماعيل.. أخذ السودانيون يرون في هذه الحكومة سلطة ينقصها الطابع الوطنى المصرى.. وزاد من هذا الاحساس لديهم أنها قد استعانت في حكم بلادهم بالعديد من العسكريين والمغامرين والمرترقة الأوربيين.. فحاكم بحر الغزال هو الايطالى «جيسى»، وعندما ذهب خلفه الانجليزى «لبتون بك»!.. وحاكم دارفور هو النمساوى «سلاطين».. وحاكم كوى هو «اميليانى» - وفى الفاشر يحكم «مسيداليا».. وفى لادو يحكم الألمانى «سنتزر».. وفى فاشوده يحكم النمساوى «أرنست مانرو»؟!..

* وزاد من احساس السودانيين هذا علاقة الخديوية المصرية بالأتراك العثمانيين، فكانوا يسمون الحكم المصرى بالحكم التركى، و يصفون حكامهم بالأتراك!.. ولما وقعت هذه الخديوية ضد الثورة الوطنية المصرية، ثورة عرابى (١٨٨١ - ١٨٨٢م) منحازة في ذلك للمستعمرين الأوربيين والسلطان العثمانى، رسخ يقين السودانيين بغربة هذه الحكومة عنهم، وانقطاع الروابط التى تربطهم بها الى حد كبير.

ولقد حدثت بالسودان في تلك الحقبة تمردات وانتفاضات، ولكنها كانت ذات طابع محلى، وأغلبها كان بقيادة زعماء عشائريين وعدد من النخاسين وتجار الرقيق الذين قاوموا سعى الحكومة المصرية المتعجل لالغاء

تجارة الرقيق..

ولقد أصبح واضحاً أن المجتمع السوداني قد زخر بالعوامل والأسباب التي تهيئه للثورة والانقضاء على أسباب شكواه، لكنه ، لتخلفه وتمزقه، يحتاج الى عامل أسطوري ومعجزة خارقة تجمع شتات أبنائه وتضم مختلف أقاليمه في موقف ثوري واحد، ومسيرة نضالية متحدة، تخلق منه كيانا وطنيا واحدا، وتمكنه من تحقيق بعض ما يريد!..

وكانت الحياة الفكرية في السودان - على فقرها - يتوزعها المتصوفة والفقهاء.. وكان الفقهاء، في الاغلب الاعم، قد ارتبطوا بالحكومة ووظائفها وعطائتها.. على حين ظل المتصوفة، أو قطاع منهم، أقرب الى الجمهور، لأن «طرقهم» انما تقوم وتنمو وتعيش بقدر ما يجتمع لها من مریدين وأتباع.. وفي التراث الفكرى للصوفية كان هناك مكان ملحوظ، بل وبارز، لفكرة «المهدى المنتظر»، ذلك القائد الأسطوري، الذى يظهر فيجب الزمان بأن يحيل ما بين عصره وعصر النبى، صلى الله عليه وسلم، الى زمن ماقط من الحساب، وذلك بجعل زمانه موصولا بزمان النبى، وتجربته تالية لتجربة النبى.. كما يجب المكان، بتغير واقعة الظالم، وذلك عندما يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا، ويعمها أمنا بعد أن طفحت رعبا، حتى ليحرس الذئب الغنم، ويضع الصبى يده في فم الأسد يصيبه الأذى؟!.. وفي (الفتوحات الملكية) لشيخ الصوفية الأكبر محى الدين بن عربى (٥٦٠ - ٩٣٨ هـ - ١١٦٥ - ١٢٤٠ م) حديث طويل عن «المهدى المنتظر»، بل لقد خص هذا الأمل بكتاب كامل خاص سماه (عنقاء مغرب).. ولقد كان لفكر ابن عربى هذا انتشار وجمهور بين متصوفة السودان، شيوخا ومریدين.. وفي هذا الواقع الذى يتطلع للمخلص، ومن خلال هذا التراث الفكرى الذى يجعل هذا المخلص هو «المهدى المنتظر»، وفي مجتمع تفاقمت مشكلاته، وزادت آلامه،

واستفحلت تناقضاته، وضع بجلاء أن سبيله الى الالتحام والانتفاض هو
الأسطورة ، والأسطورة المقدسة، التي تفجر في انسانيته من الطاقات الخلاقة
مايستطيع بها علاج ماتراكم وتزاحم من مشكلات ومعضلات..

هكذا اشترأبت الاعناق ، وتعلقت الأبصار، واستشرفت البصائر،
وأرهفت الأسماع والأحاسيس الى ذلك القادم المنتظر.. الى المهدي..
حدث ذلك بالنسبة للجميع، الكبار منهم والصغار!.. حتى ليحكى المؤرخ
يوسف ميخائيل (١٢٤٤ - ١٣٣٠ هـ - ١٨٢٨ - ١٩١٢ م) في كتابه (غوردون
والسودان) أن الصبيان في مدينة الأبيض - قبل ظهور مهدي السودان - كانوا
يجعلون في ألعابهم صفاً لأنصار المهدي وصفاً آخر لأعدائه، ثم يديرون بين
الفريقين الصراع؟!.. (٢٢)

وفي ١٢ أغسطس سنة ١٨٤٤م، وفي جزيرة «لب» ، التي تبعد
عن دنقلة خمسة عشر كيلومترا ولد محمد أحمد (١٢٦٠ - ١٣٠٢ هـ - ١٨٤٤ -
١٨٨٥ م) الذي سيصبح مهدي السودان المنتظر، وقائد الثورة التي صهرت
السودانيين في بوتقة واحدة، فخلقت منهم شعباً واحداً للمرة الأولى في
التاريخ..

ولفقر أسرته، التي كانت تحترف النجارة في السفن، لم يستطع
السفر للدراسة في الأزهر، لكنه حصل علوم الدين كما يحصلها الفقهاء
الفقراء المحليون، فدرس في بربر والخرطوم، وأصبح فقيهاً في سنة ١٨٦٨م..
وقبل هذا التاريخ، في سنة ١٨٦٣م ، أنشأ بالخرطوم مدرسة مارس فيها

(٢٢) د . محمد ابراهيم أبوسليم (الحركة الفكرية في المهديّة) ص ٦ طبعة الخرطوم سنة
١٩٧٠م.

التعليم (٢٣) .. ثم اتجه الى التصوف، وظهرت عليه أمارات التقوى والزهد والصلاح، فأنخرط في سلك الطريقة «السمانية» .. وفي التصوف علا نجمه، بعد أن انشأ لنفسه خلوة خاصة في جزيرة «أبا» (١٢٨٦ هـ - ١٨٧١ م) ذاعت شهرته منها وقصد اليه الناس فيها، حتى أصبح (١٢٩٢ هـ - ١٨٧٥ م) خليفة، له راية، وقد أذن له شيخه أن يجوب أرجاء البلاد، يأخذ العهود على الاتباع ويقبل ويعتمد انضمام المريدين ..

وفي (١٢٩٧ هـ - ١٨٨٠ م) توفي الشيخ القرشي ود الزين، شيخ محمد أحمد في الطريقة السمانية، فأصبحت له القيادة فيها - وهنا بدأ أولى محاولاته المنظمة لتكوين جماعة دينية صوفية تدعو الى الاصلاح، فاتصل بالعديد من الحكام ومن الفقهاء، داعيا الى العودة للدين، وتكوين مجتمع مسلم على غرار المجتمع الذي بناه الرسول، عليه الصلاة والسلام .. غير أن الصدى لم يكن كما أمل، والاستجابة كانت دون ما أراد .. لكنه لم ييأس .. حقا لقد يشس من الأمراء والحكام والفقهاء، ولكنه نظم من أتباعه نواة الجماعة التي عزم على أن يسعى بها لاقامة المجتمع الجديد .. وهو يتحدث عن هذه البداية ، التي سبقت مرحلة «المهدية»، فيقول: «.. ثم اني نيهت على بعض المشايخ وما أدركت من الأمراء فلم يساعدنني على ذلك أحد، حتى استعنت بالله وحده على اقامة الدين والسنن، ووافقتني على ذلك جمع من الفقراء الاتقياء .. الذين لا يبالون بما لقوه في الله من المكروه!» (٢٤).

وسواء أكان محمد أحمد قد أدرك أن تحقيق غاياته لا بد له من طاقة عاطفية وشحنة روحية تهز قلوب المؤمنين وتذهلهم عن الروابط والقيود التي تشدهم الى الدنيا ومتاعها فيسرعون بسوط الخارق المعجز الى الانخراط في

(٢٣) د . محمد قواد شكري (مصر والسودان) ص ٢٦٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م.

(٢٤) (منشورات المهدية) ص ٢٤ تحقيق : د . محمد ابراهيم سليم . طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م.

حركته الاصلاحية، فاخترع أنه هو «المهدى» المنتظر اختراعاً.. أو أن الرجل قد امتزجت في عقله وقلبه ونفسه معاناة شعبه وأمتة بالصوفية التي صنعت لروحه شفاقة زادت منها رياضاته الروحية، ففجرت فيه كائنات طاقات غير عادية ولا منظورة، فرأى مالا يراه الآخرون، وما أنكره عليه الكثيرون، رأى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يعهد اليه «بالمهدية» ويكلفه بالجهاد.. سواء أخذنا بالتفسير الأول، أو اعتمدنا التفسير الثاني - وهو الذى نميل اليه - فلقد أعلن محمد أحمد في الأول من شعبان ١٢٩٨ هـ - ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١ م أنه هو «المهدى»، ودعا الناس الى الايمان به، والهجرة اليه، والجهاد معه لاقامة الدين، وتحرير البلاد من الأتراك والأجانب، وانقاذ ديار الاسلام قاطبة - من «غانة الى فرغانة!» - من خطر الاستعمار والأتراك!.. (٢٥).

ونحن عندما ننظر في وثائق المهدي ومنشوراته التى تتحدث عن «الحضرة» التى نصبه فيها الرسول مهدياً، نجد أثر التراث الصوفى واضحاً وقوياً، بل وطاغياً - فمع النبى قد شهد هذه «الحضرة» جمع من شيوخ التصوف والأولياء.. كما شهدا «الحضر» و «عزرائيل»، الذى سيقبض أرواح الذين يحاربون المهدي!.. وفى هذه «الحضرة» يؤكد الرسول على كفر من لم يصدق بمهدية محمد أحمد.. ويعلمه امتياز «المهدية» على «التصوف».. فى التصوف: الذل، والانكسار، وقلة الطعام، وقلة الشرب، والصبر، وزيارة السادات (السادة - الاولياء) - أما المهدية ففيها، غير هذه: الحرب، والحزم، والعزم، والتوكل، والاعتماد على الله، واتفاق القول.. ولأن من ميزات المهدية «اتفاق القول»، فلقد أسقطت المذهبية والمذاهب، وألغت الطرق الصوفية، وأعلنت للناس أن عهداً موصول يعهد

(٢٥) الصادق المهدي (يسألونك عن المهدية) ص ١٦٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م.

الرسول ، فما بينها ساقط لاحجة فيه.. فهي سلفية، تقف عند الكتاب والسنة فقط، وتعتبر أن المذاهب كانت صالحة لأزمانها السابقة على المهديّة فقط، وهي تجدد وتشرع وفق المصلحة المتجددة على ضوء الكتاب والسنة وحدهما.. «لا تعرضوا لى بنصوصكم وعلومكم عن المتقدمين، فلكل وقت ومقام حال، ولكل زمان وأوان رجال.. ولقد كانت الآيات تنسخ، في زمن النبي ، على حسب مصالح الخلق، وكذلك الأحاديث ينسخ بعضها البعض على حسب المصالح..»

وأعلن المهدي، كذلك، أن «المهديّة» ليس مما يسعى المرء اليه، فهو قد كان سائرا في طريق الإصلاح، على العادة، حتى «هجمت عليه المهديّة من رسول الله»، بحضرة الأولياء والصالحين «يقظة، في حال الصحة»، في وقت لم يكن يطمع أن ينالها، بل لقد كان راغبا في الانضواء تحت لواء المهدي السنوسي! (٢٦) ..

وبعد هذا الاعلان ، كاتب المهدي أنصاره، ودعاهم الى الهجرة الى جزيرة «أبا» في شهر رمضان، ثم انحاز بمن هاجر اليه الى جبل قدير، استعدادا للجهاد، الذي قدمه على فريضة الحج (٢٧)، لأن الحج قد وقعت مشاهدته تحت حكم الكفار الا تراك ، ولأن «سَيِّئاً سُلَّ في سبيل الله هو افضل من عبادة سبعين سنة!» (٢٨) .. وفي «أبا» حقق المهدي أول انتصار عسكري على قوات الحكومة في ١٦ رمضان سنة ١٢٩٨ هـ - ٢ أغسطس سنة ١٨٨١ م.. ثم عاود انتصاره عليها ثانية في جبل قدير - (٧ ذى الحجة - أول نوفمبر من نفس العام) - ومن ذلك التاريخ بدأ ينشئ جهاز دولته الجديدة،

(٢٦) (منشورات المهديّة) ص ١٣ - ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٧١ ، ٢٢٨ ، ٢٦٥ ..

(٢٧) ~ (الحركة الفكرية في المهديّة) ص ٣٥ ..

(٢٨) (يسألونك عن المهديّة) ص ١٧٦ ..

بإدثا بببيت المال، ومنصبى: قاضى الاسلام، وأمين السلاح ثم جعل له خلفاء أربعة، يخلف كل واحد منهم واحدا من الخلفاء الراشدين الأربعة، كما يخلف هو الرسول، عليه الصلاة والسلام!.. ثم توالى المعارك بينه وبين الحكومة، التى استعانت بعدد من القادة العسكريين الأوربيين لقتاله، من أشهرهم غوردون Gordon (١٨٣٣ - ١٨٨٥ م) حتى انتهت الأحداث باقتحام الأنصار، أنصار المهدي للخرطوم في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ م ومقتل غوردون، وتمام السيطرة للمهدي على كل أجزاء السودان..

ولقد أكدت هذه الانتصارات العسكرية التى أحرزها المهدي، ضد حكومة كانت مشغولة بأحداث الثورة العراقية في مصر، أكدت لدى أتباعه ما حدثهم به من أنه منصور أبدا، وأن أعداءه مدحورون لا محالة.. فهو «المهدي»، وليس طالبا للملك أو ساعيا الى السلطان.. وعندما عرض عليه غوردون سلطنة كردفان أجابه: «ان مهديتى من الله ورسوله، ولست بمتحيل، ولا مرید ملكا ولا جاها.. فأنا خليفة رسول الله، ولا حاجة لى بالسلطنة ولا بملك كردفان ولا غيرها، ولا في مال الدنيا ولا زخرفها..» (٢٩) وأخذ الناس يتحدثون عن الخوارق التى يرونها.. فاسم المهدي مكتوب على أوراق الأشجار، وعلى بيض الدجاج!.. (٣٠) وهم قد شاهدوا النار تشتعل في جثث القتلى من أعدائه! - (وهي نار جهنم، ولا بد!) -.. وهو في غدوه ورواحه معه ملك من الله يلهمه ويسدده، (٣١) وفي قتاله معه عزرائيل يقبض أرواح أعدائه!...

وفي مجتمع كالمجتمع السوداني فعلت هذه المرويات والروايات والمأثورات والحكايات مالا تفعله الفلسفات وبراهينها ولا المنطق وقضاياها..

(٢٩) (منشورات المهديّة) ص ٢٢٠، ٢٢٢ «هامش».

(٣٠) المصدر السابق. ص ٣١٥.

(٣١) المصدر السابق. ص ٣٠٣.

لقد فجرت كل طاقات المجتمع فصبت في نهر الثورة المهدية، وأذهلت النساء عن أزواجهن فهاجرن الى المهدي دون الرجال الجاحدين، وجعلت الرجال يفارقون زوجاتهم اذا هن لم يستجبن للدعوة، وقدم المالكون أموالهم والفقراء أرواحهم لهذا القائد الأسطورة، الذي صنع بالأسطورة مالا تصنعه الحقائق في مجتمع مثل الذي ظهر فيه!..

وأخذ المهدي يكاتب القادة والملوك والرؤساء، يدعوهم الى تصديقه والتعاون معه.. كتب الى خديوى مصر، وامبراطور الحبشة، وكتب الى أهالى : مراکش، وفاس، ومالى، وشنقيط (موريتانيا)، وكتب الى حياتو بن سعيد (سوكوتو) وإلى المهدي السنوسى في ليبيا، طالبا منه أن يكون واحدا من خلفائه، وعرض عليه اما أن يأتى الى السودان أو ينهض للجهاد ضد الانجليز الذين احتلوا مصر بعد هزيمة العربيين.. وبلغت أصداء دعوته أرجاء الوطن العربى، وجاء وفد من الحجاز لمبايعته، فعين واحدا منهم واليا على الحرمين!..(٣٢)

وكانت الحياة الفكرية في السودان فقيرة، تتقاسمها فكرية القرون الوسطى المحافظة والجامدة لدى الفقهاء الذين ارتبطوا بالدولة والنمط العثماني، وفكرية الطرق الصوفية المليئة بالخرافات.. ولقد زادت المهدية هذه الحياة الفكرية فقرا، اذا نحن نظرنا الى «الكم»، ذلك أن الفكر في السودان المهدية قد أصبح وفقا على المهدي، فهو خليفة الرسول، صلى الله عليه وسلم، واليه وحده المرجع في الفكر والتشريع، كما كان الحال في مجتمع الرسول.. وهو قد ألغى تراث المذاهب الفقهية، ودون للشعب أحكاما فقهية

(٣٢) المصدر السابق . ص ٧٥ . و(الحركة الفكرية في المهدية) ص ٢٩، ٣٠.

لم تلتزم بمذهب واحد، وإن وضع فيها أثر المذهب الشافعي أكثر من غيره، كما ألغى طرق الصوفية وتراثها، إلا ما استكن من عقائدها في فكره، بحكم التكوين السابق على ظهور المهدية وادعائها..

لكن هذا الفكر القليل، من حيث «الكم»، كان أكثر تقدما، من حيث «الكيف»، فلقد اتسم بالسلفية، بمعنى العودة إلى النصوص الأصلية، كتابا وسنة، وأسقط خرافات العصور الوسطى وإضافاتها التي حجببت الجوهر البسيط والمتقدم للدين، ثم إنه قد أعلی من قدر «المصلحة» وفتح الباب واسعا للاجتهاد المحكوم بالمصالح المتجددة، على هدى من الكتاب والسنة..

فهو يعلن أنه «يقفوا آثار من سلف من المهتدين السالفين، على نهج محمد، صلى الله عليه وسلم».. ويدعوا إلى عقيدة السلف في التوحيد، وهي التي تنكر الوسائط والتوسل بالأولياء والصالحين، أحياء كانوا أم من الأموات.. ويتحدث إلى أتباعه في (منشور البيعة) فيقول: «إن الله قد ابتلى عباده واختبر توحيدهم، فثبتوا ولم يتزلزلوا منه إلى من لا يملك نفعا ولا ضرا، فانظروا ابتلاء إبراهيم، عليه السلام، في توحيد الله تعالى واكتفائه به فإنه كثر ومن جملة أنه قذف في النار، فعارضه جبريل في الهواء فقال له: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى! فلما وقع في النار ضارت عليه بردا وسلاما. فكذلك من يتليه الله، فيصبر على رؤية توحيد الله، مكتفيا به عن الاستغاثة بغيره، يسلم كما سلم إبراهيم، وقد أمرنا الله أن نتبع سنة إبراهيم فقال: (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين) (٣٣) يعني اتبعوا ملة أبيكم.. فاتبعوا، أحبائي، كلام الله في القرآن ولا تتبعوا ترهات

(٣٣) الحج : ٧٨..

فايت الزمان، وقد بايعتموني على أن لا تشرکوا بالله شيئاً..» (٣٤)

لكن التکوين الصوفى للمهدى ترك بعض عقائد الصوفية بمثابة الشوائب في هذا الفكر السلفى المتخفف من بدع القرون الوسطى وخرافاتھا.. فهو يؤمن بالنور المحمدى، الذى وجد أولاً، ومنه كان خلق كل شىء!.. (٣٥) بل و يؤمن أنه هو مخلوق من «نور عنان قلب الرسول»، عليه الصلاة والسلام، وأن الرسول قد أخبره بذلك!.. (٣٦)

لكننا اذا وازنا بين هذه البقايا للفكر الصوفى ، والى ترفضها السلفية، وبين الطابع السلفى والتجديد وفق المصالح المتجددة، كما تجلى وطبع فكر المهدى، رأينا السلفية المجددة هى الطابع الغالب على قسمة المهدية الفكرية، ومن ثم رأيناها، في هذا الميدان، رفضاً لفكرية العصور الوسطى ، وتحدياً لنمط الفكر الذى ساد في عصر المماليك والعثمانيين، الأمر الذى يجعلها، في الفكر، الى التجديد أقرب منها الى التقليد ، ويسلكها في سلك المواقف الايجابية التى تصدت للتحدى الفكرى المتخلف الذى هدد حياة الامة في ذلك التاريخ ..

أما عدااء المهدية للأتراك العثمانيين فانه واضح وشديد..

* فهو يطلب من أتباعه ان يتميزوا عن الاتراك في كل أمور المعاش والزى والسلوك، ويقول لهم: «.. كل ما يؤدى الى التشبه بالترك الكفرة اتركوه، كما قال تعالى في الحديث القدسى: «قل لعبادى المتوجهين الى لا يدخلون مداخل أعدائى، ولا يلبسون ملابس أعدائى، فيكونوا هم أعدائى ، كما هم أعدائى».. فكل الذى يكون من علاماتهم ولباساتهم

(٣٤) .. (منشورات المهدية) ص ٣١.

(٣٥) (يسألوك عن المهدية) ص ٢٠٩.

(٣٦) (منشورات المهدية) ص ٣٣٢.

فاتركوه!» (٣٧) ..

فهنا طابع قومي لاشك فيه، يطلب المهدي من أتباعه الرجوع اليه والتثبت به، والتميز فيه عن الأتراك ..

• وهو يجعل قتاله للترك تنفيذا لأمر الرسول وتحريضه، فيقول: «لقد أخبرني سيد الوجود، صلى الله عليه وسلم، أن من شك في مهديتي فقد كفر.. وحرصني على قتال الترك.. وجهادهم» (٣٨) .. ويفند حجج الذين يقولون ان جنود الدولة الذين يقتلهم في حروبه هم مسلمون، وأنه سيحاسب عن قتلهم يوم القيامة، لأن هؤلاء الجند، جند الدولة المصرية، التي كان يسميها «دولة الأتراك»، انما هم ساعون لتحقيق أهداف قيادتهم في جمع المال بالظلم والاكراه.. وكما يقول «فان القطب الدريد قد نص في باب المحاربة على أن امراء مصر وعساكرهم وجميع أتباعهم محاربون لأخذ أموال المسلمين منهم كرها، فيجوز قتلهم كما قال تعالى: (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف) (٣٩) الآية.. على أن النبي أمرنا أمرا صريحا بقتال الترك، وأخبرنا بأنهم كفار، لمخالفتهم أمر الرسول باتباعنا، ولا رادتهم اطفاء نور الله تعالى الذي أراد به اظهار عدله. فكيف نسأل عنهم بعد هذا؟!» (٤٠)

وفي موطن آخر يحكي المهدي كيف أن الله قد أطلعه على مشهد من مشاهد يوم القيامة، وأن الترك الذين قتلهم في مواقع القتالية قد شكوه الى

(٣٧) المصدر السابق . ص ١٦٦ .

(٣٨) المصدر السابق . ص ٧٤ .

(٣٩) المائدة : ٣٣ .

(٤٠) (منشورات الهدية) ص ٣١١ ، ٣١٢ .

الله، وقالوا:

- يا الهنا ومولانا ، الامام المهدي قتلنا من غير انذار!..

وأنه أجاب :

- يارب ، أنذرتهم وأعلمتهم فلم يقبلوا قولي، واتبعوا قول علمائهم، وصالوا على!..

وكيف أن الرسول قد شهد بصدقه، وقال للجند القتلى :

ذنبكم عليكم، الامام المهدي أنذركم وأعلمكم، فما قبلتم له، وسمعتهم قول علمائكم!..

ثم يمضي فيذكر أن الرسول قد أعلمه « أن الترك لا تطهرهم
المواعظ، بل لا يطهرهم الا السيف، الا من تداركه الله بلطفه!..» (٤١)

وفي منشور آخر يتحدث عن اغتصاب الترك للدولة والسلطة دون
استحقاق، وعن طغيانهم وجبروتهم واذلالهم الناس، ويحدث قومه فيقول:
«ان الترك قد وضعوا الجزية في رقابكم، مع سائر المسلمين.. وكانوا
يسحبون رجالكم ويسجنونهم في القيود، ويأسرون نساءكم وأولادكم،
ويقلبتون النفس التي حرم الله بغير حقها، وكل ذلك لأجل الجزية التي لم
يأمر الله بها ولا رسوله.. فلم يرحموا صغيركم، ولم يوقروا كبيركم»..

ثم يحدثهم عن انتصاراتهم، بقيادته، على هؤلاء الترك الذين سبق
وأهانوهم وأذلوهم .. ويطلب منهم أن لا يتخلفوا عن فريضة الجهاد (٤٢) ..

ونحن اذا تجاوزنا عن القوالب الأسطورية التي صبت فيها هذه
الأفكار، وعن الخلاف في تحليل قوالها هذه، وهل كانت «رؤية» صوفى،
أم أداة واعظ لاسبيل لاستنهاض قومه بغيرها من الأدوات.. اذا تجاوزنا

(٤١) المصدر السابق . ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

(٤٢) المصدر السابق . ص ٤١ - ٤٢ .

ذلك، فانتا واجدون أنفسنا امام فكر قومي وطني، يرفض السلطة العثمانية، ويؤكد على أن السودانين هم قوم غير الأتراك.. وهنا ، ومن هذا الباب ، تدخل المهديّة الى ساحة الفكر القومي الذي تصدى «للعثمانية» و «التريك» فيما تصدى له من تحديات..

على أن الحديث عن المهديّة، ومكانها من حركة اليقظة للانسان العربي في العصر الحديث، لا يمكن أن يكتمل الا اذا نحن عرضنا لفكرة شاعت، رغم خطئها، في كل الدراسات التاريخية التقليدية، عن السبب الأساسي في قيام هذه الحركة.. ففي المدارس يتعلم التلاميذ، وفي المصادر يقرأ الباحثون أن سعى الحكومة المصرية - مدفوعة بعوامل دولية - الى الالغاء الفوري لتجارة الرقيق، قد كان واحدا من أهم أسباب قيام الثورة المهديّة، فهي - في هذا الرأي - قد كانت ثورة النخاسين وتجار الرقيق، الذين استثمروا سلبيات الحكم ومظالم السلطة لحشد الشعب حول الثورة التي أرادوها سبيلا لاطلاق يدهم في النخاسة وتجارة الرقيق من جديد.. (٤٣)

لكن هذا الرأي الخطير، والشائع ، فضلا عن خطئه، فانه يحجب عن القارئ والباحث قسمة نراها من أهم وأبرز قسّمات الحركة المهديّة.. لأنه يقدمها: ثورة نخاسين وأثرياء، بينما كانت، في الأساس وقبل كل شيء، ثورة شعب، وانتفاضة المعدمين والفقراء من هذا الشعب بالدرجة الأولى.. وهو يطمس كذلك نظامها الاجتماعي وفكرها في قضايا الثروة والاموال، الذي ندهش عندما نستخلص معالنه وقسماته من واقع التطبيق الذي أقامته الثورة، ومن وثائقها الأصلية المتمثلة في منشورات المهدي بالذات..

(٤٣) (مصر والسودان) ص ٢٥٤، ٢٥٥.

فكما نعلم.. لقد بدأ المهدي صوفيا.. والنواة التي تبعته في البداية كانت من عامة الناس وجمهور الفقراء.. والذين هاجروا اليه في جبل قدير قد تركوا ما يملكون ويحوزون ، أما الذين تشبثوا بالثروات والوظائف والرواتب ، فانهم كانوا هم أعداء المهدي والمهدية.. ولقد كان خصومه يعيرون عليه، في مناظراتهم معه ومراسلاتهم اليه، أن عامة أنصاره هم الفقراء والمساكين ، وكان يرد عليهم مفاخرًا بذلك، ومقارنا حاله في هذا بحال الدعوة الاسلامية على عهد الرسول، عليه الصلاة والسلام.. ومن كلماته في ذلك: «.. ان حب الوظائف والأموال والمتع هو الذي عطل الدين واستقامة المسلمين.. ولولا الفقراء والمساكين والأغنياء الذين تجردوا عن الدنيا لما تقوم هذا الأمر.. ولقد جعل الله المزية للفقراء دون الأغنياء.. وبين أنهم هم الشاكرون لنعمته، حيث آثروا نعمة الدين بفوات أموالهم وفراق أحبائهم وتحمل الشدائد..».. وهؤلاء «الفقراء، الخافون، ذوى الثياب غير النظيفة، والشعر الأشعث، الجياع.. هم المقدمون عند الله، يلحقون النبي قبل غيرهم، ويدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة سنة، وتعلو درجاتهم في الجنة درجات الأغنياء كما تعلو عن الأرض نجوم السماء!..»

وللذين قالوا: ان أتباع الثورة هم من «البقارة والجهلاء والأعراب» قال المهدي : « ان أتباع الرسل من قبلنا وأتباع نبينا محمد كانوا هم الضعفاء والجهلاء.. أما الملوك والأغنياء وأهل الترفه فلم يتبعوهم الا بعد أن خربوا ديارهم وقتلوا أشrafهم وملوكهم بالقهر، كما قال تعالى ، حاكيا عن قوم نوح: (وما نراك اتبعك الا الذين هم أرذالنا بادي الرأي)(٤٤) وقال تعالى (وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها: انا بما أرسلتم به

كافرون، وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين)(٤٥)... ولقد قال أهل الغنى والطفيان عن اتباع نبينا: انهم الأجلاف الاعراب، عراة الأجساد، جياع الأكباد.. فلم ينفعهم غناهم، بل ضربت عليهم الذلة والمسكنة.. وجعلهم الله غنيمة لضعفاء الأعراب الذين كانوا يستهزئون بهم.. وكذلك نرجو الله أن يكون الأغنياء، ومن وراءهم ، غنيمة للبقارة والجهلاء والأعراب!..»(٤٦)

• لكن خصوم المهدي يجادلونه ويقولون له ان من صحابة الرسول، صلى الله عليه وسلم، من كانوا أغنياء، ومن كانت بيدهم تجارات و«أسباب» تسبب ثروات وأموالا .. وهو يرد عليهم بأن من حصل الغنى والثروة من الصحابة انما حدث له ذلك بعد أن ترك الغنى وأسبابه، وانخرط ، فقيرا، في الدعوة ، وهاجر ، فقيرا، في سبيلها، فهو قد تطهر وتعبد بالفقر أولا.. ثم باشر نقر منهم بعد ذلك «الأسباب».. ثم انهم بعد تحصيل المال قد جعلوه في «أيديهم»، ولم يجعلوه في «قلوبهم»، وظلوا حريصين على انفاقه في مواطنه على النحو الذي يؤكد أن علاقتهم به هي علاقة «الخلفاء» «المستخلفين» فيه، لا المالكين له، الأحرار في انفاقه كما يهون ويشتهون.. بل لقد روى المهدي أحاديث تتحدث عن المصاعب التي سيلاقها صحابي جليل كعبدالرحمن بن عوف في الدخول الى الجنة، لا لشيء الا لغناه!.. يقول المهدي حول هذه القضايا: «وأما الصحابة الذين باشروا الأسباب، فلم يدخلوا فيها الا بعد الخروج عن كل شيء، حتى تمكن نور الايمان في قلوبهم... ومن كانت عنده منهم أسباب فهي انما كانت في أيديهم، لا في قلوبهم.. وكانوا عليها كالوكلاء، ينفقونها حسب أوامر موكلهم ومولاهم،

(٤٥) هود : ٢٧.

(٤٦) (منشورات الهدية) ص ٢٤١، ٢٤٢، ٣٢، ٣١٣، ٣١٤.

ولذا قال لهم ربهم: (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) (٤٧) ولم يقل :
وأنفقوا مما ملكتموه!.. وقال صلى الله عليه وسلم: آخر أصحابي دخولا الجنة
عبدالرحمن بن عوف ، لمكان غناه.. وهو أول من يدخل الجنة من أغنياء
أمتي!.. (٤٨)

فهى ، اذن ، حركة فقراء ، وثورة معدمين، وليست ثورة النخاسين
وتجار الرقيق..

* وفي البيعة التى عقدها الناس للمهدى كانوا يعطونه أنفسهم ،
تتصرف قيادته فيها، مثلما كانت بيعة الناس للرسول، عندما أصبح أولى
بأنفسهم منهم!.. وكانوا يعطونه أيضا حق الملكية فيما لديهم من أموال، قلت
أو كشرت، اما الانتفاع فان حقهم فيه يقف عند حدود الاحتياجات دون
اسراف أو تبذير.. وهو يحدثهم عن الحقوق المالية التى ترتبها البيعة له ، أى
لدولته، فيقول : «لقد علمتم أن من صدق مع الله في بيعته في نفسه وماله.
فبمجرد بيعته خرج عن حكم نفسه، فضلا عن ماله.. والمال تحت يده أمانه
لله ورسوله، حيث بذله لله وصار ملكاً لنا.. فالبيعة أخذت منه نفسه وماله
لله، باعها بالجنة.. وبائع السلعة لا يلتفت اليها بعد أن عين له الثمن ورضى
به!.. فلا تمسكوا شيئا من أرزاق الدنيا لتكنزوه وتدخروه.. بل ابدلوها في
الله، وتجهزوا بها للجهاد.. وان خطر ببالكم خلاف ذلك، وأبت نفوسكم
أن تطمئن بالبذل فليكتب كل منكم ما ملكت يده ويسلمنا جريدة
أمواله!..» (٤٩)

* أما الأرض الزراعية - (الطين) - فى مجتمع السودان الزراعى، فلقد أقر

(٤٧) الحديد : ٧ .

(٤٨) - (منشورات المهديّة) ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ..

(٤٩) المصدر السابق . ص ٢٢٨ ، ٢٤٥ ، ١٦٤ .

المهدى حق الملكية فيها، على أن لا يتجاوز ذلك القدر الذى يستطيع الفلاح أن يفلحه بنفسه، وطلب من أتباعه أن يتنازلوا عن مازاد عن هذا القدر لمن يستطيع زراعته من اخوانهم، ومنع بيعه، وحرّم اجارته، وقالت منشوراته فى ذلك: «.. فمن كان له طين فليزرع فيه ما استطاع زرع، وإذا عجز أولاً احتياج اليه، فلا يأخذ فيه «دقدى» - (وهى ضريبة عينية يدفعها الزارع لصاحب الأرض) - لأن المؤمنين كالجسد الواحد.. وان كل مؤمن ملكه من الطين له، ولكن من باب احراز نصيب الآخرة، فما لا يحتاج اليه يعطيه لأخيه المؤمن المحتاج..» (٥٠)

* وغير الأموال والثروات المنقولة، والأرض الزراعية الواقعة فى حيازة الافراد وملكيّتهم، كانت هناك مصادر الثروة ذات الأهمية العامة، والتي ترتبط بها احتياجات جمهور الأمة وعامة أهلها.. وهذه قرر المهدى أن تكون ملكية عامة للأمة، ترصد مواردها على الانفاق العام.. ولقد شمل ذلك، بين ما شمل: الدكاكين، والوكالات التجارية، والقيصرىات، والمعاصر، والطواحين، والبنوك التى كانت بالبحر (٥١)، وموانى السفن - (المشارع) - والحدائق.. وما مثلها.. وعن مصادر الثروة العامة هذه، وقرار المهدى جعل ملكيتها عامة للأمة تتحدث منشوراته فتقول: «.. ان المقصد هو اقامة الدين، وازالة الضرورة عن كافة المسلمين.. فيلزم لذلك أن يفرغ الاخوان جميع المواضع التى تنتج منها المصالح جميعاً، ولا يعرض لها أحد من الانصار، وذلك: جميع الدكاكين، والوكالات، والقيصرىات، والعصاير، والطواحين، والبنوك التى كانت بالبحر للايجار. ولو كانت مسكونة فيخرج منها من هو ساكن بها، لما يترتب عليها من مصلحة عامة

(٥٠) المصدر السابق . ص ١٩٦، ١٩٧.

(٥١) لعلها الأرصفة، فلم يكن بالسودان يومئذ بنوك (مصارف) .

المسلمين من ضعفائهم ومجاهديهم.. حيث أن كل من هو ساكن بتلك المحلات، يمكن أن يتدارك له مسكن.. ولا يؤخر مصلحة المسلمين.. وأنه، أيها الأحياء، لما كانت المزارع - (مراعى السفن) - بهذا الزمن في هذه الجهات، كالقوى، ونحن لا نريد بالأفياء إلا مصلحة المجاهدين والمساكين، ولا نرضى لمسلم أن يكون همه الدنيا والجمع لها.. والمعلوم أن المزارع فيها أموال جسيمة، وكل من استولى على مزرعة جمع فيه مالا كثيرا، ولا يجهز فيه غزوة ولا سرية، واستضر بكنزه، فلذلك استصوب عندنا، مع المشورة المسنونة، أن نكتب إلى كافة المحبين أن يرفعوا أيديهم عن المزارع.. فلانريد لمسلم بعد هذا أن يستخدم المزارع لنفسه، وإذا كانت له مركب فلا سبيل عليه.. ومن انضم للجهاد معنا فله ضرورته، والزائد على الضرورة إنما هو على العبد لا له!.. وحيث أن من الذى رزقه الله لنا: الجنائين.. فيجب أن يقوم الولاية بنظارتها، ويعين لكل جنينة قيم يقوم بشأنها، وذلك بالتشاور مع أمين بيت المال.. وكذلك، فقد جعل الرسول، صلى الله عليه وسلم، لنا: أن ما هو من الميرى وبيوت الكبار والذوات من التجار ومستخدمى الديوان - (اتباع الحكومة السابقة) - جعله لخصوص بيت المال (العام).. وأظن أن الحكمة في ذلك: أنه كانت الآيات، في زمن النبي، تنسخ الآيات، على حسب مصالح الخلق، وكذلك الأحاديث ينسخ بعضها البعض على حسب المصالح. فلأجل أن مصالح الخلق الآن كلها متعلقة ببيت المال.. وما دام النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فقد أمر النبي بذلك..» (٥٢)

تلك هي قصة الفكر الاجتماعى في الثورة المهدية، تؤكد أنها ثورة فقراء صنعت بما فجرته من طاقات روحية في الشعب السودانى أشياء

(٥٢) (منشورات المهدية) ص ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨ - ٢٧١..

يدهش لها الباحث فيما خلفت من وثائق ومنشورات.. وهى تؤكد في كل جوانبها أنها كانت واحدة من أبرز حركات اليقظة التى تصدت بها الأمة، فى السودان، للتحديات التى فرضها عليها أعداؤها فى ذلك التاريخ..

لكن المهديّة انتهت كدولة بعد خمسة عشر عاما من موت المهدي، عندما هزم جيش خليفته أمام الاستعمار الانجليزى فى موقعة «كررى» فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨م، فسقطت عاصمتها أم درمان، ثم كان مقتل الخليفة فى موقعة «أم دبيكرات» فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩م.. لكنها بقيت كفكر وطريقة صوفية، وحركة سياسية.. وان يكن قد أصابها ما أصاب الحركة السنوسية من ابتعاد، قليل حينا وكثيرا أحيانا، عن فكرها البكر وتطبيقات القادة المؤسسين..

٣ - تيار: فلندأ من حيث انتهت أوروبا

وعلى حين جاءت حركتا اليقظة والتجديد: السنوسية والمهديّة فى الاطار السلفى، منه تصدران وتنطلقان، وبالعودة اليه تبشران، على تفاوت بينها اقتضت البيئته وطبيعة التحديات التى واجهت كلا منها.. فانا واجدون بمجرى حركة اليقظة والتجديد التى واجهت بها أمتنا التحديات التى فرضت عليها، تيارا آخر متميزا عن هاتين الحركتين السلفيتين الحركات السلفية الى حد كبير، ذلك هو التيار الذى اقترب رواده وأعلامه من الحضارة الأوربية الحديثة، فتأملوها بعقولهم، ولسوا الروعة والعظم فيما حققته لأهلها من انجازات..

ورواد هذا التيار وأعلامه في الوطن العربي كثيرون، ومثلهم - إذا وقف بنا المقام عند الأمثلة - رفاعه الطهطاوى.. وخير الدين التونسي..

* رفاعه الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣م):

هو شيخ من صعيد مصر، درس في الأزهر ما بين عامى ١٨١٧ و ١٨٢٢م.. واشتغل بالتدريس بالأزهر أيضا من سنة ١٨٢٢ حتى سنة ١٨٢٤ م.. وكان واحدا من المقربين الى شيخه حسن العطار، ذلك الشيخ الذى اقترب من علماء الحملة الفرنسية على مصر، وأبصر امتلاكهم لعلوم غريبة عن الواقع العربى المعاصر، وان لم تكن أصولها غريبة عن تراث الأجداد، فأدرك أن التصدى للتحدى المفروض لابد له من تغير عميق وشامل تمتلك فيه الأمة وبه أسلحة هؤلاء الخصوم، وعبر عن ذلك في كلماته الموجزة: «ان بلادنا لابد أن تتغير، وأن يتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها!».

فلما طلب محمد على باشا من الشيخ العطار أن يرشح له واعظا للجيش، رشح له تلميذه رفاعه الطهطاوى، فشغل هذا المنصب من سنة ١٨٢٤م حتى سنة ١٨٢٦م... ولما استعدت أهم البعثات العلمية المصرية للسفر الى باريس، كسى تدرس علوم الحضارة الأوربية وفنونها في أكثر مراكز أوربا تطورا واستنارة يومئذ، طلب محمد على تعيين واعظ يعظ أعضاءها ويؤمهم في الصلاة، فرشح الشيخ العطار لهذه المهمة الشيخ رفاعه.. وأوصاه أن يفتح عقله وعينه على ما يشاهد في بلاد الفرنجة، وأن يدون مشاهداته على نحو ما صنع الأسلاف من كتاب الرحلات: ناصرى خسرو (٣٩٤ - ٤٥٣هـ - ١٠٠٣ - ١٠٦١م) وابن جبير (٥٤٠ - ٦١٤هـ - ١١٤٥ - ١٢١٧م) وابن بطوطة (٧٠٣ - ٧٧٩هـ - ١٣٠٤ - ١٣٧٧م) وغيرهم من جوائى الآفاق!..

وفي باريس مكث الطهطاوى من سنة ١٨٢٦ حتى سنة ١٨٣١م.. لكنه لم يقف عند امامة الصلاة والدين، بل درس الفرنسية منذ أن وطئت قدمه ارض السفينة التي أبحرت به من الاسكندرية، وانخرط في سلك طلاب البعثة، ودرس علوم الحرب والهندسة والمعادن والقانون، وتخصص وبرع في الترجمة، وألف كتاب رحلته (تخليص الابريز في تلخيص باريز) الذي صار أشهر كتب الرحلات العربية في العصر الحديث، وأول نافذة أطل منها العقل العربى على الحضارة الأوربية الحديثة..

وبعد عودة الطهطاوى الى مصر تكونت ونمت من حوله مدرسة الفكر المصرى الحديث، وصبت في مجراها المؤسسات التعليمية التى أقامها أو أشرف عليها.. وبدأت ثمار فكر هذه المدرسة، ترجمة وتأليفاً وتحقيقاً، تعرف طريقها الى المكتبة العربية بواسطة مطبعة بولاق، حتى لقد قدموا لهذه المكتبة خلال أربعين عاماً أكثر من ألفى كتاب، فيها قسم كبير من عيون الفكر الفرنسى المتقدم، بينما لم تتعد المطبوعات العثمانية خلال قرن أكثر قرن (١٧٢٨ - ١٨٣٠م) الأربعين كتاباً، أغلبها في الشعوذة والخرافات!.. (٥٣) كما قدم رفاعة ومدرسته الفكرية نموذج «المثقف - رجل الدولة» الذى مارس كل نشاطاته التنويرية من خلال الدولة وأجهزتها، لان دولة محمد على كانت يومئذ هي جهاز التنوير الوحيد في البلاد!.. ومن ثم فلقد جاء فكر هذه المدرسة، الى حد كبير تعبيراً عن اتجاهات هذه الحركة التنويرية والتحديثية التى بدأت بالشرق العربى مع قيام الدولة المصرية المدنية الحديثة سنة ١٨٠٥م، وهو التاريخ الذى دخل بالمنطقة الى رحاب العصر الحديث..

(٥٣) انظر الدراسة التى قدمنا بها (الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) ج ١ ص ٦٩، ٧٠. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

ولقد كان نصيب الطهطاوى، الكاتب والمترجم، في هذا البناء كبيراً.. فهو قد ألف عشرين كتاباً، وترجم ستاً وعشرين، وفيها ارتاد الآفاق الجديدة، وبها عبرت الثقافة العربية من العصور الوسطى الى عصر اليقظة والتنوير.

وعلى عكس حركات التجديد السلفية، التي كانت تحذر مخالطة الأوربيين، فضلاً عن التفاعل معهم والأخذ عنهم، لأنها كانت تعيش في إطار الفكر القديم الذي استقر منذ العصور الوسطى، والذي يقسم الناس الى: «مؤمنين» و «كفار»، على عكس هذا الموقف دعا الطهطاوى الى مخالطة الأوربيين والتفاعل مع حضارتهم، والاقتداء بهم والأخذ عنهم فيما لا يخالف الشريعة والدين.. ولقد قدم لهذه النتيجة بمقدمات قسم فيها البشر تقسيماً جديداً، لا يقوم على معايير «الكفر» و «الايان»، وإنما يقوم على معايير «التحضر» و «والخشونة»!.. فالناس عنده مراتب ثلاث:-

- ١ - الهمل المتوحشون.
- ٢ - والبرابرة الخشنون..
- ٣ - وأهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن والتمصر.. (٥٤)

وهو يضع عدداً من الشعوب «المؤمنه» بالاسلام في مرتبة «البرابرة الخشنين»، بينما يضع الأوربيين في مرتبة أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن والتمصر.. وهو يعتبر مخالطتهم والتفاعل معهم «المغناطيس الذي يجلب المنافع.. فمخالطة الأغراب، لاسيما اذا كانوا من أولى الأبواب، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجائب..» (٥٥).. وهو يعتبر أن

(٥٤) (الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) ج ٢ ص ١٦.

(٥٥) المصدر السابق. ج ١ ص ٣٩٨.

الصلوات التي عقدت بين مصر وبين الحضارة الأوروبية، في عهد محمد علي، واحدة من أهم الانجازات ولولم يكن لمحمد علي فضل سواها لكفاه بها فخرا، لأنها هي التي جددت شباب الامة، وأعانتها على الانتصار على ذلك التحدى المتمثل في فكر العصور المظلمة».. فلولم يكن لمحمد علي من المحاسن الا تجديد المحالطات المصرية مع الدول الأجنبية، بعد أن ضعفت الامة المصرية بانقطاعها المدد المديدة والسنين العديدة، لكفاه ذلك، فلقد أذهب عنها داء الوحشة والانفراد، وآنسها بوصال أبناء الممالك الأخرى والبلاد، لنشر المنافع العمومية، واكتساب السبق في ميدان التقدمية..» (٥٦)

والطهطاوي اذ يواجه فكرية العصور الوسطى، بالتفاعل مع الحضارة الأوروبية، والأخذ عنها، يمضي ناقدا قيم تلك الفكرية القديمة.. فهو يدعو الى حماية الدين، والاعتزاز به، ولكنه يكره التعصب له، وخاصة اذا كان هذا التعصب من الدولة، ذلك «أن الملوك اذا تعصبوا لدينهم، وتدخلوا في قضايا الأديان، وأرادوا قلب عقائد رعاياهم المخالفين لهم، فانما يحملون رعاياهم على النفاق، ويستعبدون من يكرهونه على تبديل عقيدته، وينزعون الحرية منه، فلا يوافق الباطن الظاهر، فحضر تعصب الانسان لدينه، لا ضرار غيره، لا يعدوا الا مجرد حمية، أما التثبيت بحماية الدين لتكون كلمة الله هي العليا فهو المحبوب المرغوب».. (٥٧)

والأمر الذي لاشك فيه أن الطهطاوي، وهو يشر بهذا الفكر، انما كان يدين فكرية العصور الوسطى وسلوك سلاطينها، ويعبر عن تأثره بالعلمانية الأوروبية، وان يكن فكره هذا، عند التأمل، هو الفكر الأصيل لشريعة الاسلام المنحازة تماما الى حرية الضمير في الاعتقاد، والمعادية

(٥٦) المصدر السابق ج ١ ص ٤٤١، ٤٤٢.

(٥٧) المصدر السابق، ج ١ ص ٥٥٦، ٥٥٧.

تماما للاكراه في الدين!..

وهو يحدث قومه عن قضية أنستهم اياها عصورهم المظلمة.. قضية من هم «العلماء»؟!.. فهم لم يعودوا يعرفون من العلم الا علم الدين، و«العلماء» عندهم هم شيوخ الأزهر فقط، وهؤلاء الشيوخ لا يدرسون الا العلوم الأدوات، ولاحظ لهم من علوم المقاصد والغايات، وخاصة العقلية منها.. وهو يستخدم ابراز الواقع الحضاري للحضارة الفرنسية في هذه القضية لنقد الواقع المحلي، والاشارة الى ما هو أمثل، فيقول لقارئه: «.. ولا تتوهم أن علماء الفرنسيين هم القسوس، لأن القسوس انما هم علماء الدين فقط، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضا!.. وأما ما يطلق عليه اسم العلماء فهو من له معرفة في العلوم العقلية.. فاذا قيل في فرنسا: هذا الانسان عالم، لا يفهم منه انه يعرف في دينه، بل انه يعرف علما من العلوم الأخرى.. وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى في العلوم عن عداهم، وبذلك تعرف خلوبلادنا عن كثير منها، وأن الأزهر، وجامع بنى أمية، بالشام، وجامع الزيتونة، بتونس، وجامع القرويين، بفاس، ومدارس بخارى، ونحو ذلك، كلها زاخرة بالعلوم النقلية، وبعض العلوم العقلية، كعلوم العربية والمنطق ونحوه من العلوم الآلية..» (٥٨)

ويقتحم الطهطاوى على الشرق عالم «الحرم»!.. فيشر بتساوى المرأة والرجل الا في ذلك «الفرق اليسير الذى يظهر في الذكورة والأنوثة وما يتعلق بهما..» (٥٩).. ويطلب تعليم المرأة منذ سنة ١٨٣٦م.. بل ويدعو الى اشتراكها في العمل الذى تطيقه، مثلها في ذلك مثل الرجال، لان عملها يصونها عن الانحراف، ويقرها من الفضيلة، على عكس فكرة العصور

(٥٨) المصدر السابق. ج ٢ ص ١٦١.

(٥٩) المصدر السابق. ج ٢ ص ٣٥٦.

الوسطى في هذا الموضوع «.. فيمكن للمرأة، عند اقتضاء الحال، أن تتعاطى من الاشغال والاعمال مايتعاطاه الرجال، على قدر قوتها وطاقتها، فكل مايطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن، وهذا من شأنه ان يشغل النساء عن البطالة.. فالعمل يصون المرأة عما لا يليق، ويقرها من الفضيلة!«..(٦٠) بل لقد جعل الطهطاوى من احترام المرأة في المجتمع، وحصولها على حقوقها كإنسانة، معيارا لما عليه المجتمع من التمدن والتحضر، «فكلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أدبهم وظرافتهم. فعدم توفية النساء حقوقهن، فيما ينبغي لهن الحرية فيه، دليل على الطبيعة المتبربرة!..»

ومن نظم العصور الوسطى وقيمه، التي كانت تمثل تحديا لحركة الاستنارة والتطور يومئذ : النظام الاقطاعى، الذى كانت تتربع على قوته بمصريومئذ طبقة الشراكسة المعادية للعروبة والعنصر الوطنى.. ولقد كانت قيم هذه الطبقة عقبة في طريق حركة التنوير واليقظة، كما كان الاقطاع كنمط انتاجى في الزراعة، ومايرتبط به من علاقات ظالمة بين الفلاح المصرى الكادح وبين الاقطاعى المتبطل، كان هذا الاقطاع عقبة امام دخول المجتمع الى رحاب النمو الرأسمالى، الذى عرفته أوروبا، والذى صنع، بروح العلم والعقلانية والاستنارة، الحضارة التي أعجب بها الطهطاوى.. وعلى الرغم من أن الطهطاوى قد امتلك من الأرض مساحة كبيرة الا انه انحاز الى صف العمل الزراعى ورجح كفته على كفة حق الملكية الزراعية، فتساءل: «هل منبع الغنى والثروة هو الأرض؟.. أو أن الشغل هو أساسا الغنى ومنبع الأموال المستفادة؟» وكانت اجابته حاسمة في الانحياز الى العمل، الذى رآه العنصر الذى يعطى الاشياء قيمتها: «.. ان الشغل يعطى قيمة لجميع الاشياء التي ليست متقومة بدونه.. فالمدار على

(٦٠) المصدر السابق . ج ٢ ص ٣٩٣.

العمل في الرواج.. وهو منبع السعادة الأولى.. ولوزرعنا أرضا خصبة، ومميزنا ما يمكن ان ينسب من ايرادها للعمل، وما ينسب للخصوبة منه، وفرزنا كلا على حده وجدنا العمل أقوى من محصول الخصوبة..» (٦١)

ولم يكن الطهطاوى، بهذا الحديث المنحاز للعمل الزراعى ضد عائد الملكية الزراعية، مفكرا اشتراكيا، كما توهم البعض، لانه قد انتقد، صراحة، الفكر الاشتراكى عندما هاجم سان سيمون Saint Simon (١٧٦٠ - ١٨٢٥م) وأفكاره، وعندما عجم هجومه على كل الفكر المماثل في التاريخ، عند القرامطة والمزدكيين.. (٦٢) وانما كان داعية لازاحة الاقطاع، الذى أصبح عقبة في طريق النظام الذى رآه - يصدق - اكثر النظم تقدما يومئذ بالنسبة للمجتمع، وهو التنمية على أساس رأسمالى فهو يدعو الى اقامة الشركات المساهمة «الشركات السلمية»، والى انشاء البنوك «جميعيات الاقتراضات العمومية» التى «بها تتقدم التجارة والزراعة، وترتقى الدولة والملة..» (٦٣).. كما يعتبر الحرية الاقتصادية - (الليبرالية الاقتصادية) - كما كانت عليها في أوربا يومئذ أعظم الحريات التى يطمح اليها المجتمع، فيقول: «ان أعظم حرية في المملكة المتمدنة: حرية الفلاحة، والتجارة، والصناعة. فالترخيص - (الاباحة) - فيها من أصول فن الادارة الملكية، وقد ثبت بالأدلة والبراهين أن هذه الحرية من أعظم المنافع العمومية، وأن النفوس مائلة اليها من القرون السالفة، التى تقدم فيها التمدن، الى هذا العصر..» (٦٤)

(٦١) المصدر السابق ج ١ ص ٣١٠ - ٣١٢.

(٦٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٣٦، ٥٣٧.

(٦٣) المصدر السابق. ج ١ ص ٥٧٩.

(٦٤) المصدر السابق. ج ٢ ص ٤٧٥.

فهو مع «العمل» أكثر مما هو مع «الملكية» اذا كان الحديث عن «الأرض» ، لأنه ضد الاقطاع ، يريد أن يزججه من الطريق بعد أن أصبح عقبة أمام التطور الرأسمالي الذي دعا اليه، قاعدة مادية للمجتمع في الاقتصاد، والى التنوير الذي صاحبه، قيا وبناء علويا للمجتمع الحديث.. وهو، بهذه الدعوة، انما كان مبشرا بعصر جديد، وداعية لازالة آثار العصور الوسطى والمظلمة، في الاقتصاد وفي القيم والافكار.. وعندما دعا بدعوته هذه كانت التجربة الأوربية تملأ منه السمع والعقل والفؤاد..

وتبعنا لهذه الليبرالية الاقتصادية، ولزوما لها، دعا الطهطاوى الى الليبرالية السياسية، وهو في هذا الميدان قد تصدى، وان على استحياء - لنمط الحكم الشرقى في التفرد بالسلطة والاستبداد بمقاليد الأمور - فهو يغرى الحاكم بحكم شعب من الأحرار الطائعين اختيارا، لأنهم أفضل من العبيد الذين يخضعهم الخوف للسلطان « فمن ملك احراراً طائعين كان خيرا ممن ملك عبيدا مروعين!.. (٦٥) » - وهو يدعوه قومه الى نمط الحرية كما عرفته المجتمعات الأوربية المتحضرة والمتقدمة يومئذ، «ذلك لأن حقوق جميع اهل الى المملكة المتمدنة ترجع الى الحرية.. والانسان الحرياح له أن ينتقل من دار الى دار، ومن جهة الى جهة، بدون مضايقة ولا اكراه مكره، وأن يتصرف كما يشاء من نفسه ووقته وشغله، فلا يمنعه من ذلك الا المانع المحدود بالشرع - (القانون) - أو السياسة ، مما تستدعيه أصول مملكته العادلة.. ومن حقوق الحرية الاهلية: ان لا يجبر الانسان أن ينفي من بلده، أو يعاقب فيها الا بحكم شرعى - (قانونى) - أو سياسى ، مطابق لأصول مملكته، وأن لا يضيق عليه في التصرف في ماله كما يشاء، ولا يجبر عليه الا بأحكام بلده، وأن لا يكتم رأيه في شىء، بشرط أن لا يخل بما يقوله أو يكتبه بقوانين بلده..».

(٦٥) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٤٧٤.

ثم يمضى الطهطاوى فيقسم الحرية الى حرية طبيعية، فى أمور الفرد المعاشية الخاصة، كالأكل والشرب.. وحرية سلوكية، تتعلق بالأخلاق.. وحرية دينية، فى العقيدة والمذهب.. وحرية مدنية، تحكم علاقات أعضاء المجتمع بعضهم مع بعض.. وأخيرا الحرية السياسية، التى تنظم علاقة الرعية بالدولة والمحكومين بالحكام.. وهو فى حديثه عن هذه الحرية السياسية يربط بين أساسها الاقتصادى وبين مظاهرها وقواعدها القانونية..».. فالحرية السياسية هى: تأمين الدولة لكل أحد من أهاليها على أملاكه الشرعية المرعية، وإجراء حريته الطبيعية بدون أن تتعدى عليه فى شىء منها، فهذا يباح لكل فرد أن يتصرف فيما يملكه جميع التصرفات الشرعية..»

والطهطاوى عندما يشير بالنمط الأوربى المتحضر، ويدعو الى أن نبدأ من حيث انتهت أوربا، لا يغلف دعوته هذه ولا يدارها.. فهو يريد أن «يوقظ سائر أمم الاسلام من نوم الغفلة.. كى يبحثوا عن العلوم البرانية، والفنون والصنائع، وهى التى كمالها ببلاد الافرنج ثابت شائع، والحق أحق أن يتبع؟!..» (٦٦)

والذين يرفضون الأخذ عن أوربا بحجة رفض الاستيراد للعلوم الأجنبية واهمون، لأن الحضارة دورات وأطوار، وهذه العلوم قد كانت اسلامية عندما كنا نعيش عصر نهضتنا، فأخذتها أوربا وطورتها وواجبنا الآن أن نتلمذ عليهم كما تتلمذوا على أسلافنا.. وهو يطلب الى الأزهر أن يضيف الى علوم الشريعة «معرفة سائر المعارف البشرية المدنية، التى لها مدخل فى تقدم الوطنية.. فهذه العلوم الحكيمة - (الفلسفية) - العملية، التى يظهر الآن أنها أجنبية، هى علوم اسلامية نقلها الأجانب الى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تنزل كتبها الى الآن فى خزائن ملوك الاسلام

(٦٦) المصدر السابق. ج ٢ ص ١٢.

كالذخيرة!...» (٦٧)

والدستور الفرنسي، وإن لم يكن مستلهما من القرآن والسنة إلا أن قاعدة العدالة التي حكمت مواده وأصوله، قد جاءت به على وفاق الكتاب والسنة.. « فلقد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد، وانقادت الأحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم، وكثرت معارفهم، وتراكم غناهم، وارتاحت قلوبهم، والعدل أساس العمران. وما يسمونه الحرية هو عين مانسميه العدل والانصاف، وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى في الأحكام والقوانين بحيث لا يجور الحاكم على إنسان، بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة..» (٦٨)

ومثل الدستور في ذلك مثل القوانين والتشريعات.. فالحقوق الطبيعية والنواميس الفطرية التي حكمت قوانين أوربا وتشريعاتها توازي عندنا أصول الفقه وفروعه، وهم قد تأثروا بترائنا في التشريع أيضا، ذلك «أن الذي جاء به الاسلام من الأصول والأحكام هو الذي مدن بلاد الدنيا على الاطلاق.. ومن زاول علم أصول الفقه، جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية التي وصلت عقول أهالي باقي الأمم المتحضنة اليها، وجعلوها أساسا لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم، قل أن تخرج عن تلك الأصول التي بنيت عليها الفروع الفقهية التي عليها مدار المعاملات، فما يسمى عندنا بأصول الفقه يسمى ما يشبه عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية، وهي عبارة عن قواعد عقلية، تحسنا وتقيحا، يؤسسون عليها أحكامهم المدنية، وما نسميه بفروع الفقه يسمى عندهم بالحقوق أو الأحكام المدنية، وما نسميه

(٦٧) المصدر السابق، ج ١ ص ٥٣٤.

(٦٨) المصدر السابق. ج ٢ ص ١٠٢.

بالعدل والاحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية..» (٦٩)

لكن الطهطاوى، وهو يغرى قومه بأن يبدأوا من حيث انتهت أوربا يومئذ، قد وضع عددا من التحفظات، ونبه على فروق بيننا وبين أوربا، وحدد أن ميدان الأخذ والاستلham هو علوم الدنيا وفنونها، دون علوم الدين..

* فاعجابه بالعلوم والمعارف الأوروبية لم ينسحب على فلسفتهم، فتحفظ عليها قائلا: «.. غير ان لهم في العلوم الحكيمة - (الفلسفية) - حشوات ضلالية مخالفة لسانر الكتب السماوية، و يقيمون على ذلك أدلة يعسر على الانسان ردها؟!..» (٧٠) وهو يعبر بهذا التحفظ الرافض عن تكوينه السلفى. فيما يتعلق بعلوم الدين، وهو تكوين لم يكن يستعين يومئذ بما فى تراث الاسلام من فكر عقلانى، ولو أن الطهطاوى قد درس ما فى التراث الاسلامى من قسّمات للفكر العقلانى لما وقف هذا الموقف أمام الفلسفة الأوروبية..

* وترجمة الطهطاوى للقوانين الأوروبية - والفرنسية خاصة - بطلب من الدولة، لم تجعله يغفل عما فى تراث المسلمين من فقه فى المعاملات، جدير بأن نحياه، ونطوع قواعده لظروف الزمان والمكان وما حملت من تجدد فى المصالح وتغيرات فى العادات والأعراف.. فيتحدث عن هذا الجانب من تراث الامة فيقول: «.. والمعاملات الفقهية، لو انتظمت، وجرى عليها العمل، لما أخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحال، مما هو سهل العمل على من وفقه الله لذلك من ولاية الامور المستيقظين.. ذلك أن من أمعن النظر فى

(٦٩) المصدر السابق. ج ٢ ص ٤٦٩.

(٧٠) المصدر السابق. ج ١ ص ١١٤.

كتب الفقه الاسلامي ظهر له انها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابا مستوعبة لاحكام التجارية، كالشركة، والمضاربة، والقرض، والمخاطبة، والعارية، والصلح، وغير ذلك..» (٧١)

* ثم .. وهذا هام جدا - فان اعجاب الطهطاوى بنمط التطور والتحضر الأوربي، لم يجل شبهة دعوة الى أن يتبع الشرق الغرب.. بل لقد كان الرجل يقظا الى تلك النعمة الاستعمارية التي تريد احتواء الشرق واستعمارها بواسطة التبعية الحضارية.. وهو وان لم يرفض حضارة الغرب تبعا لرفض استعمارها، فانه ميز بين العلاقات الحضارية، وبين الضم والتبعية والالحاق.. لقد دعا الى الاتحاد مع أوربا في الحضارة، وتخيل الرابطة الحضارية «جنسية» - (قومية) - قسماها «الود والصفاء»، وفي ذات الوقت رفض أن تكون العلاقات الحضارية علة وسببا للضم والالحاق الاستعماري.. وحذر أبناء الغرب الذين يمتنون أنفسهم لذلك من أن الشرق لن يستسلم، بل سيقاوم، فعنده هو الآخر رماح يحمي بها حماه.. ولقد عرض الطهطاوى لهذه القضية وهو يعقب على كلمات أحد علماء الحملة الفرنسية الذي علق تطور مصر ونهضتها على سيطرة فرنسا على مقدراتها.. فقال الطهطاوى : « ان كلامه مبني على شبهة واهية، يريد أن يسوغ بها امتلاك فرنسا أو أي مملكة تكون مضاهية لها لمصر، وهذا الاعتقاد هو من باب الشهيات الفاسدة، وانما يقتل النفوس الشهى!

نعم ، بيننا جنسية الود والصفاء ولكني لم ألفها علة للضم»
ثم يحذر الغرب من مقاومة الشرق لأطماعه، فيورد قول الشاعر :

جاء شقيق عارضاً رمحاً صوب بنى عم يروم الكفاح
قيل : أما تخشى انكسار القنا؟ ان بنى عمك فيهم رماح! (٧٢)

فهو يدعو قومه الى أن يبدأوا من حيث انتهى الغرب الأوربي، كما بدأ هذا الغرب من حيث انتهى أسلافنا الذين أخذ عنهم علوم حضارتنا المزدهرة وفنونها.. مع تحديد ميدان التأثير بعلوم الدنيا، دون علوم الدين وفلسفته.. داعياً كذلك الى استلهم تراثنا الصالح للعطاء، بعد ملاءمته لظروف الزمان والمكان.. ومنها على ان التلمذ على الغرب في الحضارة لاي معنى، ولا يمكن أن يبرر، التبعية له أو التفريط في أى جانب من جوانب الحرية والسيادة والاستقلال.. بل لقد رأينا يؤكد على أن الحرية الحقيقية للأمة لا يشهد بها تمتعها هي بالحرية، بل ان الشاهد الأصدق عليها هو احترام هذه الأمة لحرريات غيرها من الأمم والشعوب..» .. فن محاسن حرية الأمة أنها تفرح أيضاً بحرية غيرها من الأمم، وتتأذى من استعباد أمم الممالك الذين لا حرية لهم!..» (٧٣)

ولقد كانت «الرابطه العثمانية» واحدة من العلائق التى تشد العرب الى فكرية العصور الوسطى، وتحول بينهم وبين الانعتاق من اسار التخلف واللحاق بالعصر الحديث، ولذلك لم يكن غريباً أن نلمح لدى الطهطاوى - رغم علاقته العضوية بجهاز الدولة الذى كان مرتبطاً، على نحو ما، بالسلطنة العثمانية - أن نلمح لديه تركية للعروبة، وثناء كثيراً على العرب، ونقداً للرابطه العثمانية، وفرحاً بالضربات التى وجهها محمد على والجيش المصرى للعثمانيين..

(٧٢) المصدر السابق. ج ١ ص ٤٧٧.

(٧٣) المصدر السابق. ج ٢ ص ٤٧٥.

• فيوم كذا العثمانيون يسعون الى «تريك» العرب الخاضعين لسلطانهم، كتب رفاة: «ان العرب هم خيار الناس.. وقبائلهم أفضل القبائل.. ولسانهم أفصح الألسن.. ولقد اشتهرت أمة العرب، جاهلية واسلاما، بالفضائل..».. ولقد استشهد على فضل العرب بكلمات عميقة للامام الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ هـ - ٧٦٧ - ٨٢٠ م) تجعل الشريعة عربية، والدين عربياً!.. «ان أمة العرب أولى الأمم، لأنهم المخاطبون أولاً، ولأن الشريعة عربية، والدين عربياً»! (٧٤)..
ولعمري، ماذا يبقى للعثمانيين رباطا يشدون به الأمة العربية الى قوائم سلطنتهم؟.. لقد كان الدين هو هذا الرباط.. لكن رفاة يجعل الدين عربياً، وكذلك الشريعة أيضاً..

• وهو ينسب على المضمون الحضاري، وليس العرقى، للعروبة، وذلك عندما يتحدث عن أن علماء مثل سيويه (١٥٢ هـ - ٧٦٩ م) وأبو علي الفارسي (٢٢٩ - ٣٧٧ هـ - ٨٤٣ - ٩٨٧ م) والزنجشري (٤٤٩ - ٥٣٩ هـ - ١٠٥٧ - ١١٤٤ م) انما هم عرب، لتحصيلهم ملكة البلاغة العربية، وذلك على الرغم من أنسابهم الأعجمية «فهم وان كانوا عجماء في النسب، فليسوا بأعجماء في اللغة والكلام..».

• وأخيراً نراه فرحاً بانتصارات الجيش المصري ضد العثمانيين، تلك الانتصارات التي كانت جزءاً من عملية قومية كبرى استهدفت قيام دولة عربية، تجدد شباب هذه الأمة، وتسد الثغرات، التي أتاحها التخلف العثماني للاستعمار الأوربي كي ينفذ منها فيلتهم بلاد العرب وأقطار الاسلام.. فعنده أن فتوحات محمد علي باشا في المشرق العربي «لم تكن من محض العبث، ولا من ذميمة تعدى الحدود، اذ كان جل مقصوده: تنبيه أعضاء ملة عظيمة، تحسبهم أيقظاً وهم رقود؟!..» (٧٥)

(٧٤) المصدر السابق - ج ٣ ص ٥٨٦.

(٧٥) المصدر السابق - ج ١ ص ٤١٤.

كما نقرأ له شعرا يشيد فيه بانتصار الجيش المصرى على جيش
العثمانيين، الذين يسميهم: الأروام!..

وتقلب الأروام عدل شاهد كم منه قد نالوا شديد طعان
حتى لقد باؤوا بوافر خزيهم وتقاسموا حظا من الخسران! (٧٦)
هكذا كان رفاعة : رأس تيار متميز واجهت به الأمة، في مطلع
عصرها الحديث، ما فرضه عليها أعداؤها من التحديات..

خير الدين التونسي (١٨٢٠ - ١٨٩٠م):

وفى تونس، بالمغرب العربي، كان خير الدين التونسي أصدق ممثل
لذلك التيار الذى قاده رفاعة الطهطاوى.. ولقد جمع هذا المصلح، فى حياته
وجهوده الاصلاحية، شيئا من النبى يوسف الصديق، ومن المفكر عبدالرحمن
بن خلدون؟!.. فهو قد ولد فى احدى القرى الصغيرة بجبال القوقاز، بقبيلة
«أبناظة» الشركسية، واختطفه تجار الرقيق صغيرا، وجاءت به قافلهم الى
الآستانة حيث بيع كما يباع الرقيق، وتناقلته الأيدى الى أن وصل الى قصر
حاكم تونس الباي احمد باشا (١٨٣٦ - ١٨٥٦م) فتعلم القراءة والكتابة،
وفرائض الدين، وفنون العسكرية والسياسة والتاريخ، وأجاد الفرنسية مع
العربية والتركية.. وتدرج فى المناصب حتى أصبح الوزير الاكبر فى
البلاد!.. وفى أزمة من أزماته مع الباي محمد الصادق (١٨٥٩ - ١٨٨٢م)
اعتزل خير الدين مناصبه (١٨٦٢ - ١٨٦٩م) واعتكف فى بستان له - كما
اعتزل ابن خلدون من قبل فى احدى قلاع تونس فكتب مقدمته - اعتزل خير
الدين فكتب كتابه (أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك) الذى طبع

(٧٦) المصدر السابق. ج ٢ ص ٧٢.

بتونس سنة ١٨٦٧م، والذي أودع مقدمته خلاصة آرائه في التمدن
والاصلاح؟!!

وفي عصر خير الدين، وموقعه، كان تجاهل التأثير الأوربي ضربا
من المحال.. ففرنسا كانت قد احتلت الجزائر منذ سنة ١٨٣٠م، وشرعت
تتمد نفوذها الاقتصادي، وتقدم قروضها لتونس، وتتدخل في شئونها المالية
تمهيدا للسيطرة فالاحتلال.. والبای احمد باشا كانت له محاولات للاصلاح
يترسم فيها خطى محمد علي باشا، فأنشأ في «باردو» بفرنسا سنة ١٨٤٠م
«مكتب العلوم الحربية» ليتعلم فيه الجنود التونسيون علوم الهندسة والمساحة
والحساب، وغيرها، وعهد الى خير الدين بالاشراف على هذا المكتب
(المدرسة) - الذي رأسه المستشرق الايطالى كالفارييس، وهناك عايش خير
الدين الحضارة الأوربية ولمس تأثيراتها، ولقد اكتملت معرفته بها في سفاراته
للبنای لدى عديد من ممالك أوربا، مثل فرنسا والسويد وبروسيا وبلجيكا
والدنمارك وهولندا(٧٧)..

وكان خير الدين، مثل الطهطاوى، من دعاة الخروج بالبلاد من
عزلة القرون الوسطى وكسر حاجز العزلة عن الحضارة الحديثة، ونصيرا
للتعلم على الحضارة الاوربية فيما لا يتعارض مع أصول الشريعة الاسلامية،
التي يجب أن تواكب المصالح المتجددة للمسلمين.. فهو يدعو الى الاختلاط
بالأوربيين والتعلم منهم، لأنه «لايتها لنا أن نميز مايليق بنا الا بمعرفة أحوال
من ليس من حزبنا!.. فالدنيا بصورة بلدة متحدة، تسكنها أمم متعددة،
حاجة بعضهم لبعض متأكدة..»(٧٨).. بل لقد كان خير الدين يرى أن
لامفر ولا منجاة من التأثير بالحضارة الأوربية، فلقد خرجت هذه الحضارة،

(٧٧) المنجى الشملی (خير الدين باشا) طبعة تونس سنة ١٩٧٣م.

(٧٨) (أقوم المسالك) - المقدمة - ص ٨٢. تحقيق : د. المنصف الشوفي. طبعة تونس سنة ١٩٧٢م.

بعد الثورة الصناعية، في ركاب المد الاستعماري زاحفة على البلاد الأخرى، وكاسحة أنماط الحضارات الأخرى من طريقها، ومهما يكن في ذلك من مدعاة للحزن والأسى فلا سبيل إلى تجاهله كحقيقة ظاهرة للعيان.. فهو يقول: « لقد سمعت من بعض أعيان أوروبا ما معناه: ان التمدن الأورباوى تدفق سيله في الأرض، فلا يعارضه شيء الا استأصلته قوة تياره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار، الا اذا حذوا حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية، فيمكن نجاتهم من الفرق!.. » وعلى هذه الكلمات يعقب خير الدين فيقول: «.. وهذا التمثيل، المحزن لمحِب الوطن، مما يصدقُه العيان والتجربة..» (٧٩).

لكن خير الدين لا يدعو إلى الاستسلام امام هذا التيار الحضارى الاوربى الزاحف.. وانما يطلب لقومه أن يقفوا منه موقفا انتقائيا، يأخذون به عن أوروبا مالا يتعارض مع الشريعة وما يحقق المصالح المتجددة.. وغیر العلوم والمعارف نجده يلح على أن نأخذ عن أوروبا :

١ - تنظيماتها السياسية :

التي هي في الحقيقة السبب في تقدمهم في المعارف.. وهذه التنظيمات لا بد وأن تكون مؤسسة على العدل والحرية.. وهو، لذلك، يدين الاستبداد بالسلطة، وحكم الفرد، ويدعو في كتابه إلى احياء هيئة أهل الحل والعقد الإسلامية، وفي مذاكرته يزكي صراحة تكوين المجالس النيابية بالانتخاب العام.. ويلح على تقييد جهاز الدولة بالقوانين، سواء منها تلك التي تنظم علاقة الرعية بالدولة، أو العلاقة بين المواطنين وبعضهم البعض.. ويطلب أن تكون مباشرة الحكم التنفيذي من اختصاص الوزراء، لا المحاكم الاعلى، وأن يكون الوزراء مسئولين امام وكلاء الأمة المنتخبين..

(٧٩) المصدر السابق . ١٦٦.

ويقول ان أوربا اذا كانت قد صنعت ذلك انطلاقا من القوانين العقلية غير الالهية، فان المسلمين أولى منها بذلك. لأن هذه التنظيمات، مما يحقق غاية الشريعة الاسلامية ومقاصدها.. «فالشريعة لا تنافى تأسيس التنظيمات السياسية المقوية لأسباب التمدن ونمو العمران.. وان ملك الاسلام مؤسس على الشرع، الذى من أصوله وجوب المشورة، وتغيير المنكر. والعلماء أعرف الناس به، كما أن الوزراء أعرف بالسياسة ومقتضيات الأحوال» «.. وان الذين يطلبون من الدولة اطلاق الحرية، بمقتضى قوانين يكون تأسيسها وحمايتها من مجلس مركب من أعضاء تنتخبهم الأهالى، ويلحون في ذلك... انما يطلبون أمرا هو من أعظم الوسائل في حفظ نظام الدول، وقوة شوكتها، ونمو عمران ممالكها، ورعاية رعاياها، خصوصا في هذه الأزمان. ونحن نسلم بأن مقصد هذا الحزب، بطلبهم لما ذكر، انما هو اصلاح حال الدولة والرعية...» (٨٠)

وخير الدين، وهو يتحدث عن التنظيمات السياسية للدولة لم يتناول بالحديث، صراحة، منصب الحاكم الأعلى للبلاد، من حيث كونه ملكا أو سلطانا أو خليفة أو «الباي» — كما كان في تونس يومئذ — وما كان له أن يصنع ذلك وهو الذي شغل منصب الوزير الأكبر في تونس، وشغل في الآستانة، بعد أن هاجر اليها من تونس، منصب «الصدر الأعظم» (١٨٧٨ — ١٨٧٩م) .. ولكنه عندما عرض فكر مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ — ١٧٥٥م) وتقسيمه لنظم الحكم عرضه عرضا موحيا، فلقد قال أن مونتسكيو قد قسم حالة الدول الى ثلاثة أقسام:

الأول : الدولة الوراثية المطلقة التصرف بلا قيد.

(٨٠) المصدر السابق. ص ٨١، ٩٤، ١٣٧ — ١٣٩، ١٤٣، ١٤٤، ١٦٥، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٢.

والثاني : الدولة الوراثية المقيدة بالقوانين.

والثالث : الدولة الجمهورية المقيدة بالقوانين.

ثم عقب بقوله: «والجمهورية عندهم كناية عن انتخاب الأمة رئيسا لدولتهم، يتصرف في ادارتها بمقتضى القوانين، مدة حياته، أو لمدة معلومة، ثم ينتخب غيره».

وعلى كل فخير الدين لم يدخر وسعا، في الفكر والممارسة، لادانة الاستبداد من قبل الفرد بالسلطة والسلطان، فهو يورد التمثيل البديع الذي ذكره مونتسكيو عندما شبه المستبد، في تصرفاته، «بمن يتوصل لاجتناء الثمرة بقطع الشجرة من أصلها؟!..» و يورد قول الحكيم اليوناني الذي خرج من وطنه مهاجرا عندما عزت الحرية فيه، فلما سأله: أين تصلح السكنى؟ أجاب: « في بلد تكون الشريعة فيه أقوى من السلطان.. ولا شك أنه قد أدان غمط الحكم العثماني، في الآستانة وللاياتها، عندما قال: «هذا زمان: قل فيه العرقان، وكثر الطغيان!...» (٨١)

٢- الحرية السياسية:

والغاية من التنظيمات السياسية، عند خير الدين التونسي، هي تحقيق العمران للبلاد، وأساس هذا العمران هو العدل، أي الحرية السياسية للمواطنين.. كما أن اتساع نطاق المعارف في المجتمع انما يرجع كذلك الى اتساع نطاق الحرية.. واذا كانت الحرية الشخصية ضرورية، ليتصرف الانسان في ذاته وكسبه وهو آمن على نفسه وعرضه وماله، مطمئن الى تساويه مع أبناء جنسه.. فان الحرية السياسية أدخل في الضرورة واللزوم، لأنها هي التي تحقق اشتراك الرعية في توجيه سياسة الدولة، فهي تأتي على

(٨١) المصدر السابق. ص ١٨١، ١٨٢، ٢٢٤، ١١١.

وفق المصلحة العامة للمجموع.. ويدخل في الحرية السياسية حرية نشر الأفكار، التي يسميها التونسي «حرية المطبعة» حيث لا يمنع الانسان من أن يكتب و يذيع ما يعتقد صوابا ومصلحة، أو يعرض ذلك على أجهزة الدولة ومجالسها، حتى ولو تضمن ذلك الاعتراض على منهاجها.. (٨٢)

٣- والحرية الاقتصادية:

وكما هو الحال عند رفاة الطهطاوي، فلقد ارتبطت عند خير الدين كذلك الحرية السياسية بالحرية الاقتصادية، على النحو الذي تكاملت به الليبرالية في أوروبا القرن التاسع عشر.. فلقد ربط بين نمو المعارف، المؤسسة على الحرية السياسية، وبين نمو الصنائع التي تعود الى الأنشطة الاقتصادية الحرة في الفلاحة والتجارة والاعمال البدنية والفكرية.. فالرخاء لا يتحقق بالخصوبة وتوافر الامكانيات وحدها، وانما بالحرية الاقتصادية التي تجعل أرباب النشاط الاقتصادي والاستثمار المالي آمنين على ثرواتهم وأموالهم «فكمال الحرية هو الذي يجعل المحترف آمنا من اغتصاب شيء من نتائج حرفته.. فما ينفع الناس كون أرضهم خصبة كرمة المنابت اذا كان الباذر فيها لا يتحقق حصاد ما زرع.. ولا شك أن العدوان على الأموال يقطع الآمال، وبقدر انقطاع الآمال تنقطع الأعمال، الى أن يعم الاختلال المفضي الى الاضمحلال». أما الحرية الاقتصادية فانها تفضي الى «تعاقد الجمعيات المتجارية - (الشركات التجارية) -، والاقبال على تعلم الحرف والصنائع... فبالجمعيات - (الشركات) تتسع دوائر رؤوس الاموال، فتأتي الأرباح على قدرها» أما غياب هذه الحرية فانه يفضي الى الانكماش الاقتصادي «فان الناس اذا فقدوا الأمان على أموالهم يضطرون الى اخفائها، فيتعذر عليهم تحريكها.. وبالجملة، فالحرية اذا فقدت من المملكة تنعدم منها الراحة والغنى، ويستولى على أهلها الفقر والغلاء، و يضعف

(٨٢) المصدر السابق. ص ٢٠٦ - ٢٠٨.

ادراكهم ومهمتهم، كما يشهد بذلك العقل والتجربة (٨٣).

٤- والتقدم في المعارف والعلوم:

وكما حدث في التجربة «الليبرالية» الأوروبية عندما تكاملت الحرية السياسية التي جسدها ونظمتها المؤسسات السياسية، والحرية الاقتصادية الرأسمالية، وحرية التفكير والتعبير والبحث العلمي، التي أسهمت اسهاما خلاقا في تنمية المعارف وتقدم العلوم.. كما حدث في هذه التجربة المتكاملة أراد خير الدين لدعوة الحرية التي بشر بها أن تكون متكاملة كذلك.. بل لقد جعل نمو المعارف وتقدم العلوم ثمرة طبيعية لقيام الحرية السياسية والاقتصادية المستقرتان بواسطة التنظيمات الدستورية والقانونية.. وضرب للناس مثلا طريقا، وبالغ الدلالة في ذات الوقت، عندما حدثهم عن (المكتبة القومية في باريس) وكيف ارتبط غناها بالكرب أو فقرها منها بسيادة الحرية أو غيابها في فرنسا!.. فقبل الثورة الفرنسية التي جاءت بالحرية الى فرنسا، وخلال أربعمئة وعشرة أعوام (١٣٨٠ - ١٧٩٠م) لم يزد رصيد هذه المكتبة عن ٢٠٠٠٠٠ مجلد، أما بعد الثورة، وخلال أربع وسبعين سنة فقط (١٧٨٩ - ١٨٦٣م) فلقد بلغ رصيد هذه المكتبة ٨٨٠٠٠ مجلد وذلك غير الرسائل الصغيرة وهذا التفاوت الكبير الواقع في مواد المعارف، يعلم مقدار تأثير الحرية في الممالك.. وعلى هذا يقاس سائر أسباب التقدم.. (٨٤)

هكذا أراد خير الدين التونسي لأمة أن تواجه التحدي الحضاري لأوروبا المتصرة، بأن تتسلح بسلحتها، وأن تبدأ المسيرة الناهضة من حيث

(٨٣) المصدر السابق. ص ٢٠٩ - ٢١١.

(٨٤) المصدر السابق. ص ٢٠٢.

انتهى الأوروبيون، فتغادروا بالاصلاح، عصور الاقطاع، وتدخل، بالاصلاح أيضا، الى رحاب التطور الرأسمالي، بما يستلزمه من حرية في الاقتصاد والسياسة، والتفكير والتعبير.

واذا كان هذا هو الموقف من «أوروبا الحضارة»، فلقد اختلف الحال ازاء «أوروبا الاستعمار».. فهنا لا بد من اليقظة للأطماع، والحذر من الشراك، والتصدي للزحف الاستعماري.. بل لعل مذهب خير الدين في الأخذ عن أوروبا حضارتها انما كان محاولة للتجديد والبعث القومي حتى لانقع في قبضة أوروبا الاستعمار..

ولقد كان الرجل — وهو رجل دولة بارز، في تونس حيث حبائل الديون والقروض الأوروبية تسعى لسلب استقلال البلاد، كان داعية لرفض الاقتراض من الأجانب، وأن تتجه الحكومة الى الاقتراض الداخلي، حتى ولو زاد سعر «الفائدة»، لأن الممولين الوطنيين لن يمثّلوا خطرا استعماريا خارجيا، كما أن أرباحهم لن تغادر السوق الوطني الداخلي، ولقد صارع الرجل التيار المناهض لمذهبه هذا، وهو التيار الذي كان يقوده الوزير مصطفى خزنه دار، ومن كلمات خير الدين في هذا المقام: «ان من الأفضل أن يدفع غالبا ثمن اقتراض نقترضه في بلدنا، ونحافظ بذلك على حريتنا من أن نربح بعض الفوائد المادية على حساب استقلالنا!».. (٨٥).

بل لقد أدرك خير الدين وعي الاستعمار بأن أخذنا تجربة «أوروبا النهضة» سيجعلنا نفلت من «أوروبا الاستعمار»، فكشف عدااء الاستعمار الأوروبي لأخذنا تنظيماته السياسية والدستورية، فالمستعمرون الأوروبيون لا يرحبون بأن نقلدهم فيما يفيد، وخاصة اذا كان أخذنا وتقليدنا سيد الشفريات التي حرصوا على بقائها وتوسيعها كي ينفذوا منها الى الاحتلال،

(٨٥) المصدر السابق. ص ٣٦.

وهي ثغرات كان يحكم الفرد والاشتداد من أهمها، لأنه هو الذي ضمن لهم ضعفنا، فأتاح لهم التهام استقلالنا الوطني.. تنبه خير الدين لهذه الحقيقة الهامة، فأشار إلى دور المستعمرين الطامعين في إعاقة قيام التنظيمات السياسية والدستورية بتونس حتى تظل الثغرات أمامهم مفتوحة لاحتلالها (٨٦).. وهو نفس الشيء الذي صنعه بمصر.. فعندما نهضت لتسد ثغرة تدخلهم وتدخلهم بالدستور والمجلس النيابي على عهد العرابيين وأسرعوا باحتلالها قبل أن تفلت الفرصة، فيعز عليهم، ويستحيل، تنفيذ المخطط المرسوم!..

وغير الاستعمار الأوربي، كان هناك التحدي المتمثل في فكرية العصور الوسطى، والتي مثلها جمود الجامدين من علماء الدين.. فهم يعيشون عصرهم ماديا، وبالأجساد، أما في الفكر فتراهم أسرى خرافات العصور المظلمة وجمودها، ولذلك تراهم معرضين عن وعي حقائق العصر، سياسية كانت أو اقتصادية، فاذا استشارهم الحاكم أشاروا بما يوافق هواه، أو بما لا يمكن الأخذ به من الآراء!.. وعن هؤلاء يقول خير الدين: «... ومما يسوء المرء أن يرى بعض علماء الاسلام معرضين عن استكشاف الحوادث الداخلية، وأذهانهم عن معرفة الخارجية خلية.. أفيحسن من أساة الأمة الجهل بأمراضها؟!..».

وهو يعيب عليهم الجمود عند نصوص عالجت مصالح عصور خلت، والاحجام عن الاجتهاد بأحكام تعالج المصالح التي جددت بعد عصر الأسلاف.. فليس كل ما جد في واقع الحياة المعاصرة له نصوص وأحكام في الكتب القديمة، بل «هناك شئون كثيرة لا يشهد لها من الشرع أصل خاص، كما لا يشهد بردها، بل أصول الشريعة تقتضيها اجمالا، وتلاحظها بعين

(٨٦) المصدر السابق. ص ١٤٦ - ١٤٨.

الاعتبار.. وإدارة احكام الشريعة، كما تتوقف على العلم بالنصوص، تتوقف على معرفة الأحوال التي تعتبر في تنزيل تلك النصوص.. ومن العيب على العالم، شرعا وعقلا، التكلف في الدين، والتمحل في النصوص!..»

وهو يضرب لعلماء الشرع في عصره أمثلة من السلف الصالح المجتهد كي يحتذوها.. فالشيخ محمد بيرم الأول (١١٣٠ - ١٢١٤ هـ - ١٧١٨ م - ١٨٠٠ م) قد عرف السياسة الشرعية بأنها: «ما يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به الوحي»..

وعندما قال قائل: «لا سياسة الا ما وافق الشرع» أجابه ابن عقيل (٤٣١ - ٥١٣ هـ - ١٠٤٠ - ١١١٩ م) «إن اردت: ان السياسة الشرعية لا تخالف ما نطق به الشرع، فصحيح.. أما ان قصدت أن السياسة الشرعية هي فقط ما نطق به الشرع، فغلط وتغليط للصحابة» فالنصوص لم تحط بكل شيء..

وابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ - ١٢٩١ - ١٣٣٠ م) هو القائل: «ان امارات العدل اذا ظهرت بأي طريق كان فهناك شرع الله ودينه، والله تعالى أحكم من أن يخص طرق العدل بشيء ثم ينفي ما هو أظهر منه وأبين..» (٨٧)

فهو قد دعا علماء الشرع المعاصرين له - ونحن نعلم ما بلغوه في ظل التخلف العثماني - إلى أن يواكبوا العصر، ويجتهدوا لمصالحه المتجددة، ويشاركوا الناس في اتخاذ التنظيمات السياسية والدستورية سبلا لتحقيق

(٨٧) المصدر السابق. ص ٨٣، ١٥١ - ١٥٥

الحرية، بكل صورها، للعرب والمسلمين..



بقيت نقطتان، لابد من الإشارة اليها، كي لا يظن ظان أن دعوة خير الدين لأن نبداً من حيث انتهت أوربا كانت تعني التخلي عن مميزات هذه الأمة، أو ما نسميه «اصالتها»، أو أنها كانت تعني الأخذ عن الأوربيين في كل الأمور.

ذلك أن الرجل، كما سبقت اشارتنا، قد جعل الشريعة الاسلامية، المتطورة مع المصالح المتجددة، معياراً لما نأخذ وما ندع من الحضارة الأوربية.. وأكثر من هذا، فهو قد نبه على أن بتراث أمتنا في التمدن عناصر أصيلة، صالحة للاستلھام، ومن المفيد والضروري أن تفعل فعلها في النهضة الحديثة المبتغاة، وكما يقول «فإن الأمة الاسلامية تقدر أن تكسب بما بقي لها من تمدنها الأصلي، وبعاداتها التي لم تنزل ماثورة عن أسلافها ما يستقيم به حالها، ويتسع به في التمدن مجالها. ويكون سيرها في ذلك المجال أسرع من غيرها كائناً من كان، اذا أزيلت حريتها الكامنة بتنظيمات مضبوطة تسهل لها التداخل في أمور السياسة.» (٨٨) فالعناصر الأصيلة في التمدن الأصلي، والحرية الكامنة التي اقترتها وقررتها الشريعة، مع التنظيمات التي لابد من أخذها عن أوربا، كفيلة بجعل هذه الامة تخطو على درب النهضة بأسرع مما صنع ويصنع الآخرون..

والنقطة الثانية تتعلق بتحذير خير الدين من أن نقف بالأخذ عن أوربا عند حدود الاستهلاك والاستمتاع بشمرات فكرها وحضارتها من المصنوعات والأدوات!.. فالذين يتصدرون موكب المعارضة للأخذ عن

(٨٨) المصدر السابق. ص ١٥٨.

أوروبا هم أكثر الناس اقبالاً على ملع الصناعات الأوربية وأدواتها، انهم
يهمون لاقتناء الثمار دون الأصول، والمسليات دون الأسباب، والأعراض
دون الجواهر، والسلع دون الفكر.. وعن هذا الفريق يتحدث خير الدين
فيقول: «.. على أننا اذا تأملنا في حالة هؤلاء المنكرين لما يستحسن من
أعمال الافرنج نجدهم يمتنعون فيما ينفع من التنظيمات ونتائجها، ولا
يمتنعون منها فيما يضرهم؟!.. وذلك انا نراهم يتنافسون في الملابس
وأساس المساكن ونحوها، وكذا الأسلحة وسائر اللوازم الحربية، والحال
أن جميع ذلك من أعمال الافرنج!..»

وينبه خير الدين الى خطر هذا «التلمذ السلعي — الاستهلاكي»
— ان جاز التعبير — على الاقتصاد الوطني، ومن ثم على استقلاله، لاننا اذا
وقفنا عند الاستيراد السلعي، ولم نتمثل الفكر والحضارة، فنسفل سوقا
استهلاكية، غير صانعة ولا منتجة، ومن ثم سنظل مربوطين بأسواق أوروبا، لا
في الاستيراد فقط، وانما في تصدير خاماتنا بأرخص الأسعار «نبيع ما نتججه
للأفريقي بثمان يسير ثم نشتره منه بعد اصطناعه، في مدة يسيرة، بأضعاف
ما بعناه به».. وهذا الخلل سيقودنا الى وضع اقتصادي تزد فيه قيمة ما
نستورده على قيمة ما نصدره «واذا زادت قيمة الداخل على قيمة الخارج
فحينئذ يتوقع الخراب لا محالة!..» وهذا الخلل الاقتصادي سيؤدي حتما الى
خلل سياسي، يتمثل في رباط الحاجة، ومن ثم التبعية، لهذه البلاد المتحضرة
الصناعية، فتقع الكارثة، وهي فقدان الاستقلال، ذلك «لأن احتياج
المملكة لغيرها — وهو الخلل السياسي — موهن لقوتها ومانع لاستقلالها»
(٨٩)!

(٨٩) المصدر السابق. ص ٩٢ — ٩٤

هكذا فكر خير الدين التونسي.. وهكذا مثل في المغرب العربي
الامتداد للنهج الذي بشر به رفاة الطهطاوي في النهضة والاصلاح..

* ان نبدأ من حيث انتهت أوروبا، آخذين في الاعتبار أصول شريعتنا،
وما هو أصيل وصالح للعطاء من عناصر تمدننا القديم..

* وأن تكون الأصول الحضارية للتمدن الأوربي هي غايتنا، وليس
الثرات، والنتائج والمصنوعات.

* وأن نزواج بين ما هو كامن في النفس العربية، وصادقت عليه
الشريعة الإسلامية، من عشق للحرية، وبين التنظيمات السياسية
والدستورية التي أبدعتها الحضارة الأوربية، حتى تشترك الأمة في
إدارة شئونها السياسية، فتخرج من استبداد الفرد الى عالم الحرية،
الذي يفجر طاقات الأمة في ميادين الاقتصاد والمعارف والعلوم
والفنون والآداب.

* وفي كلمات: ان نحذو — في أمور الدنيا — حذو أوروبا، فنخرج، كما
خرجت، من عصر الاقطاع لندخل عصر التطور الرأسمالي، بما ارتبط
به من يقظة وتقدم وتنوير..

«فأهل الغفلة وحدهم هم الذين يعرضون عما يحمد من سيرة الغير
لمجرد ما انتقش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم ينبغي أن يهجر..
فكل مستمسك بديانة، وان كان يرى غيره ضالاً في ديانته، فذلك لا يمنعه
من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح
الدنيوية». (٩٠)

فلنقتد بأوروبا المتحضرة في أمور الدنيا، وان خالفناها واعتقدنا

(٩٠) المصدر السابق. ص ٩٠.

ضلالها في أمور الدين!..

٤- وتيار: السلفية .. العقلانية.. المستنيرة

وهذا التيار هو الذي بدأه فيلسوف الاسلام وموقف الشرق جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ - ١٨٩٧م) وتجسد فكره، وخاصة ما تعلق منه بتحرير العقل والاصلاح الديني في الآثار الفكرية والجهود العملية للامام محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥م) وكان جناحه في المشرق العربي المفكر عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ - ١٩٠٢م) وفي المغرب العربي عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ - ١٩٤٠م).. ومن حول هؤلاء جميعا عرفت الأمة أقوى تيارات التجديد واليقظة في عصرها الحديث، وأكثرها أصالة، ومستقبلية أيضا!..

لكن.. قبل الحديث عن المعالم البارزة والقسمات الأساسية لفكرية هذا التيار، لنسأل: ألا يبدو العنوان الذي عقدناه له غريبا ومتناقضا؟!.. ان الناس قد اعتادوا أن يفهموا من مصطلح «السلفية» معاني كثيرة، منها: المحافظة، والجمود، والاكتفاء بالنصوص والمأثورات، والوقوف عند ظواهر النصوص، ورفض التأويل، أو الاقتصاد فيه الى حد كبير. فكيف يكون هذا التيار «سلفيا» و«عقلانيا» في ذات الوقت؟!.. والعقلانية، كما لا يخفى، وكما يتفق عليه الكثرون، تعني النقيض لكل تلك المعاني التي اعتدنا فهمها من مصطلح «السلفية»؟!..

ثم.. كيف يكون هذا التيار الفكري «سلفيا» و«مستنيرا» في ذات الوقت؟ والاستنارة تعني، ضمن ما تعني، المستقبلية، وهو ما يبدو نقيضا للسلفية، بل وإياها على طرفي نقيض؟!..

ونحن نعتقد أن جلاء هذا الأمر من الأهمية بمكان، خصوصا وأن الكثيرين قد التبس عليهم التمييز والتحديد بين معالم هذا التيار الفكري وغيره من تيارات التجديد والاصلاح، فرأينا من يتحدث عن حركة الأفغاني ومحمد عبده، ومن نهجوا نهجها باعتبارها الامتداد للحركة السلفية والمحافظة (٩١)، ومن يجعلون الشيخ رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥م) والشيخ حسن البنا (١٩٠٦ - ١٩٤٩م)، والاخوان المسلمين، جميعا في نفس التيار.. وهو خلط وتعميم يطمس فروقا أساسية وهامة بين هذه التيارات ومن مخاطره أنه يلبس المتخلف ثوب المتقدم، ويزين بعباءة العقلانية والاستنارة قوما وقفوا فقط، أو وقفت بهم قدراتهم، عند ظواهر النصوص.. وينزع صفات الاستنارة والمستقبلية عن مصلحين عظام لا شيء الا لأنهم قد دعوا الى «السلفية» في فهم أمور الدين.. وكل ذلك خلط للأوراق، علاوة على ضرره، فانه لا يليق!..

ونحن اذا أردنا أن نوجز الحديث الذي يميز هذا التيار عن التيارات الأخرى التي سبقتة أو عاصرته من تيارات اليقظة والتجديد في عصرنا الحديث، والذي يستبين منه الاتساق، وعدم التناقض، في العنوان الذي عنونا له به.. فانا نعطي الأولوية لهذه النقاط:

١ - كانت «السلفية» المحافظة، حديثا - كما كانت عند تراثها في فكر أحمد بن حنبل وابن تيمية -

الوقوف عند ظواهر النصوص الدينية، وجعل المعاني المستفادة من هذه الظواهر المرجع في كل من أمور الدين وأمور الدنيا.. فهي قد وقفت عند مفهوم الإسلام، كدين، كما كان حال هذا المفهوم في عصر البداوة والبساطة للأمة العربية، وقبل التطورات العلمية والاضافات العقلية التي استدعتها

(٩١) عبد الكريم الخطيب: (الدعوة الوهابية) ص ١١٨، ١١٩.. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤م.

صراعات الأمة الفكرية مع الملل والنحل غير الإسلامية بعد عصر
الفتوحات.. ومن ثم فإن السلفية، بهذا المعنى، تسقط من تراثها العلوم العقلية
والفلسفية والتصوف الفلسفي، وتعتبر كل ذلك «بدعا» طرأت على الاسلام
كما فهمه السلف الصالح..

أما «السلفية» لدى التيار الذي تزعمه الأفغاني ومحمد عبده، فإنها
ليست كذلك تماما.. لأنها تأخذ «عقائد الدين وأصوله» على النحو
النقي، المبرأ من الخرافات والاضافات.. وهي هنا «سلفية» تتفق مع غيرها،
وخاصة في إزالة شبهات الشرك والوثنية والتوسل والوسائط من عقيدة
التوحيد.. لكنها لا تقتصر في فهمها للاسلام «كحضارة وتراث»، على
فهم السلف الصالح له، لأن الاسلام، كحضارة، وعلومه العقلية والفلسفية،
ومذهبه في التصوف الفلسفي، كل ذلك قد حدث بعد عصر السلف، وهو قد
حدث لأن ضرورات موضوعية قد اقتضته، ومن ثم فإن هذا التيار لا يسقط
هذا التطور من تراث الاسلام، وهو لا يعتبره «بدعا» سيئة، لأنه يحدد اطار
«البدع السيئة» بما يجعلها خاصة بأصول الدين وعقائده الجوهرية.. ففي
هذه الاصول ثبات، لا ابتداع ولا تطوير، مهما اختلف الزمان والمكان.. أما
في الاسلام كحضارة وعلوم فإن التطور دائم، والاضافات مستمرة، ومن ثم
فإن الابتداع هنا حسن، وليس بالسيء كما هو الحال في أصول الدين..
ولذلك رأينا هذا التيار «سلفيا» تماما في تصويره للذات الالهية، ولا يختلف
فهمه مع فهم السلفية التقليدية لعقيدة التوحيد الاسلامية.. على حين رأيناه
على النقيض منها في معظم الغايات - فضلا عن الوسائل - فهو يسلك سبيل
«التصوف الفلسفي» - وليس الطرق الصوفية وشعوذتها - ويحله من العلوم
والأنشطة العقلية مكانا عليا.. وهو يعلي من شأن العقل، ويجعله معيارا
وميزانا حتى بالنسبة للنصوص والمأثورات، حتى لنستطيع أن نقول ان موقفه

من العقل والفلسفة يجعله الامتداد المتطور لمدرسة المعتزلة، فرسان العقلانية في تراثنا القديم، ومن ثم فانه خصم للسلفية المحافظة وليس مجرد مخالف لها.

واذا شئنا بعض الأمثلة، قبل التفصيل الذي سيؤكد هذه المقولة، فائنا نجد الامام محمد عبده يتحدث عن الغاية الأولى التي استهدفها من نشاطه الفكري فيقول انها: «تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه الى منابعها الأولى».. والى هنا فهو متفق مع السلفية التقليدية، ولكنه يستطرد في النص، فيتحدث عن الدين «باعتباره من ضمن موازين العقل البشري (٩٢)»... ثم هو يعتبر - مثل المعتزلة - ان العقل، وليس النقل، هو طريق معرفة الانسان له وسبيله الى الايمان بوجوده وبارساله للرسول «فالعقل هو ينبوع اليقين في الايمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة. أما النقل فهو ينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب، كأحوال الآخرة والعبادات (٩٣)».. الى آخر ما سيأتي له، ولأعلام هذا التيار من حديث عن مقام العقل يباعد بينهم وبين السلفية التقليدية، في هذه القضية، حتى يجعلها فيها على طرفي نقيض..

٢- وسلفية التقليد المحافظة، التي وقفت عند المأثورات وحدها، وعند فهم السلف وحدهم لهذه المأثورات، قد جعلت من المأثورات «الكل» الذي لا شيء وراءه، ونقطة البدء والمنتهى، سواء في عقائد الدين أو في أمور الدنيا.. وقد يكون لها العذر لأن بداوة مجتمعها لم تكن تطرح من القضايا والمعضلات ما يتجاوز اطار المأثورات.. أما التيار السلفي العقلاني المستنير فلم يكن ذلك حاله ولا موقفه، لأنه قد نبت في أكثر البيئات العربية

(٩٢) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) ج ٢ ص ٣١٨.

(٩٣) المصدر السابق. ج ٣ ص ٣٢٥.

الاسلامية تطورا، وأشد مجتمعات الأمة تعقدا، وهو قد استشرف بناء مجتمع عربي مسلم أكثر تطورا وتحضرا، ومن ثم أشد في درجات التعقيد.. ولذلك وجدناه - عند عبد الرحمن الكواكبي - يفهم قول الله سبحانه: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) (٩٤) على أن المراد: ما فرطنا في الكتاب من شيء من أمور الدين، وليس من أمور الدنيا، لأنها متجددة، ومن ثم فإن أحكامها متجددة كذلك (٩٥).. ووجدناه عند محمد عبده يحدد أن مآثورات الدين هي المرجع في تجديد الدين، على حين أن تجديد الحياة الدنيا يتطلب الاستعانة بكل التجارب والأفكار والعلوم والنظريات التي أبدعها الانسان، سواء في عصور ما قبل الاسلام أو ما بعده وسواء أكان المبدع لهذه العلوم مسلما أم غير مسلم.. فهو هنا يميز بين ما يصلح للمسلمين آخرتهم، وما يصلح لهم دنياهم، فيقول: لو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه، ويأخذهم بأحكامه، لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم في احدي اليدين، وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى، ذلك لآخرتهم، وهذا لدنياهم، وساروا يزاحمون الأوربيين فيزحونهم!.. (٩٦)

٣- و«التقليد»، الذي يقضى الى الجمود.. لقد عابته السلفية المحافظة، ولكن غضها من قيمة العقل قد أوقعها في خطر التقليد وجبها في اطاره، على حين وجدنا اعلاء تيار الأفغاني وتلاميذه بشأن العقل قد جعلهم حربا معلنة وضارية ضد التقليد والمقلدين، ولقد أشرنا الى اعتبار الامام محمد عبده «تحرير الفكر من قيد التقليد» الهدف الاول لمدرستهم الفكرية.. بل لقد حُكِمَ بنقص ايمان المقلدين نقصا يخل بهذا الايمان!.. ثم رأيناه ينتقد موقف السلفية المحافظة، من هذه القضية نقدا مباشرا، عندما تحدث عنها باعتبارها

(٩٤) الأنعام: ٣٨.

(٩٥) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٣٠٩.

(٩٦) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) ج ٣ ص ٢٥١، ٢٥٢.

«الفئة التي زعمت أنها نفضت غبار التقليد، وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها وبين النظر في آيات القرآن ومتون الأحاديث، لتفهم أحكام الله منها» ثم يستطرد فيكشف كيف انهم قد غرقوا الى الآذان في التقليد، فيقول: ولكن هذه الفئة أضيق عطنا، (٩٧) وأخرج صدرا من المقلدين، وهي وان أنكرت كثيرا من البدع ونحت عن الدين كثيرا مما اضيف اليه وليس منه، فانها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد، والتقيده به، بدون التفات الى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين واليها كانت الدعوة ولأجلها منحت النبوة فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحياء!» (٩٨)

٤ - وسلفية المحافظين، وقريب منها - ولا نقول مثلها سلفية الشيخ رشيد رضا، والشيخ حسن البنا، لاعتمادها على النقل دون العقل، أو أكثر من العقل. ولتعميمها ذلك في شئون الدين أيضا، جعلت من التجديد دعوة للعودة الى «مجتمع» السلف ونظمه وتشريعاته، فضلا عن فكره، فهي عودة الى السلف.. وان تفاوتت صراحتها في هذه الدعوة بين دعائها في البداية، حيث كانت هذه العودة ليست بالامر المستحيل، وبين دعائها في الحاضر. كما عند الشيخ البنا - حيث جعلها الغاية التي تؤدي اليها وسائل مغلقة بالغموض والتعميم!..

أما سلفية التيار العقلاني المستنير فهي لا تدعو للعودة الى مجتمع السلف، لأنها تدرك استحالة ذلك، فضلا عن خطره وضرره، وانما هي تدعو الى استلهاهم ما هو جوهرى ونقى - أي الدين الخالص - في تراثنا ليكون نقطة البدء والطاقة المحركة، والنبع المقدس لدفع عجلة التطور الى الأمام، ولبناء مجتمع جديد جنة الواقع والظروف والاحتياجات والملابسات..

(٩٧) أي أضيق أفقا. والعطن معناه الاصلي: مبرك الجمل ومربض الغنم.

(٩٨) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ ٣ ص ٣١٤.

فالسلفية هنا «أساس» بنى عليه البناء الجديد.. وليست هي البناء، وهذا التيار يختار هذا «الأساس»، دون النمط الأوربي في الحضارة، ودون فكرية العصور الوسطى الجامدة المحافظة، لأنه «أساس» قد تجربته هذه الأمة فأقامت عليه حضارتها التي ازدهرت في عصرها الذهبي، ولأن مكانته في ضمير الأمة تجعله متينا ومكينا، فهو ليس فكر صفوة ولا عقيدة الطلائع والخاصة، حتي يكون محدود الأثر محدد النطاق سهل الاقتلاع، وإنما هو عقيدة الأمة وفكر الجمهور و فاذا ما صقل بالعقل وأزالت الاستنارة عنه غبار خرافات العصور الوسطى أصبح أمتن «أساس» يمكن أن يقوم عليه، شامخا، البناء الحضاري المنشود للعرب والمسلمين.. ولذلك، فلقد قدم هذا التيار دعوته هذه باعتبارها دعوة متميزة لبناء نمط حضاري متميز، لا هو النمط الغربي كما كانت دعوة انصار جعل الشرق قطعة من اوربا ولا هو نمط الماضي، كما كانت دعوة علماء الدين التقليديين... والامام محمد عبده يشير الى أن هذا المذهب قد خالف «رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منها جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون العصر ومن هو في ناحيتهم..» (٩٩)»

ومن هذه الأمثلة، فضلا عما سيأتي في الحديث عن قسّمات هذا التيار - تتضح معالم الفروق بين «سلفيته» وسلفية الآخرين.. وكيف أنها، بحق، سلفية عقلانية مستنيرة.. ومن ثم فلا تناقض في العنوان!..

أبرز الأعلام:

وأعلام هذا التيار كثيرون، وانتشارهم، بالذات أوبالفكر، قد

(٩٩) المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٨.

غطى انحاء العالمين العربي والاسلامي، وقد يتميز واحد منهم بقسمة فكرية عن آخر، وقد تدعو البيئة أو الأولويات أو طبيعة التحديات الى أن يكون تركيز بعضهم على قضايا بعينها دون القضايا الاخرى، لكنهم، في مجموعهم، قد جمعهم القسمة العامة التي ميزت هذا التيار التجليدي عن غيره من التيارات، وربطت السلفية العقلانية المستنيرة بين ثمرات فكرهم ونشاطهم العملي برباط واحد ووثيق..

* وأن هؤلاء الأعلام ورأس هذا التيار هو جمال الدين الأفغاني.. عربي النسب — وان ولد ونشأ في بلاد الأفغان — فنسبه يرجع الى الحسين بن علي بن أبي طالب .. وعربي العقل والفكر منذ نشأته الأولى، فقبل أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره كان قد درس: علوم العربية، والتاريخ، وعلوم الشريعة، من تفسير وحديث وفقه وأصول، وكلام وتصوف، والعلوم العقلية، من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية تهذيبية، وحكمة نظرية، طبيعية والهيية، والعلوم الرياضية، من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك، ونظريات الطب والتشريح!..

وهو سني، توثقت علاقاته الشخصية والفكرية بعلماء الشيعة وفكرها ومراكزها، بالعراق، منذ صدر شبابه.. فلما تبلورت دعوته للتجديد واليقظة كان عقله قد وصل به الى حيث أصبح فوق المذاهب التي فرقت المسلمين، لأن سلفيته في الدين تسبق المذاهب، وعقلانيته ترفض البقاء في أسر خلافاتها التي تجاوزها العصر، واستنارته تراها عقبة أمام ما يريد تحقيقه لأمتة من نهضة وانطلاق..

وكان عداؤه للاستعمار مبكرا.. ولم يكن بالعداء النظري فقط، فلقد انخرط منذ شبابه في التيار الوطني الأفغاني الذي قاده الأمير محمد أعظم خان لمناوأة النفوذ الانجليزي الطامع في أفغانستان.. ووصل جمال الدين في

هذا النشاط الوطني الى منصب الوزير الأول في البلاد، وقاد معارك حربية ضد المتعاونين مع الانجليز، الذين ترعّمهم الامير شير علي.. فلما انتصر خصومه، اضطر الى السفر للهند (١٨٦٨م).. فلما ضيق عليه الانجليز فيها الخناق، بدأ رحلته الى الوطن العربي.. فوصل الى مصر سنة ١٨٦٩.. ثم الآستانة.. ثم رجع الى مصر فأقام بها قرابة التسع سنوات — (٢٣ مارس سنة ١٨٧١ — ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩م) — كانت أخصب فترات حياته الفكرية والنضالية، وفيها تبلور تياره ومذهبه في اليقظة والثورة والتجديد.

ففيها أملى على تلاميذه الامالى والتعليقات التي شرح بها كتباً قديمة في الفلسفة الاسلامية.. وكان عهد مصر قد انقطع بهذا اللون من ألوان الفكر منذ أن زالت الدولة الفاطمية وأحلت دول العسكر تكايا الصوفية وخوانقها والمدارس الأشعرية محل (دار الحكمة) و (مجالس الدعاة) ومنهاج (الأزهر) العقلاني..

وفيها أنشأ ورعى تيار الصحافة غير الحكومية، وكانت من قبله حكومية في الأساس، فكانت صحف (مصر) التي رأسها أديب اسحاق (١٨٥٦ — ١٨٨٥م) و (التجارة) التي رأسها سليم نقاش (١٨٨٤م) و (مرآة الشرق) التي رأسها ابراهيم اللقاني طليعة الصحافة الشعبية، غير الحكومية، في البلاد.. وكان الأفغاني يكتب فيها بتوقيع «مزهر بن وضاح».. كما كان يملى على تلاميذه مقالات ينشرونها بأسمائهم، حتى نشأت من حوله كوكبة من الكتاب الشباب، جددت أساليب العربية في الانشاء، وخلصتها من السجع والمحسنات البديعية، وادخلت الى اللغة الحديثة فن المقال، الذي جاء تطويراً عصرياً لفن «الرسالة» الذي عرفه تراثنا القديم..

وفيها تبلور من حوله التيار الشعبي في التنوير.. ومن قبله كان جهاز الدولة هو المصدر الوحيد للتنوير.

وفيهما كانت التربة الخصبة التي إستقبلت بذور أفكاره اطيبت استقبال، حيث نبشت ونمت وأينعت، وآتت من الثمار ما لم توت في بلد آخر حل فيه هذا الفيلسوف العظيم..

وفيهما أنشأ (الحزب الوطني الحر) الذي جمع تلاميذه وأنصار دعوته، وهو الحزب الذي قاد الثورة العربية، وبعد هزيمتها هياً نفر من بنيه لنشأة (الحزب الوطني) الذي قاده مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨م) ونفر آخر منهم انضم الى جمعية (العروة الوثقى) السرية التي قادها الأفغاني وأصدر صحيفتها من باريس..

ولما نفى جمال الدين من مصر، بايعاز من القناصل الأوربيين للخليوي سنة ١٨٧٩م ذهب الى الهند.. وهناك منع من الحركة حتى تمت هزيمة العربيين.. فسافر الى باريس سنة ١٨٨٣م ثم الى لندن.. ثم عاد الى باريس، فأصدر صحيفة (العروة الوثقى) ومعه الشيخ محمد عبده... فلما توقفت ذهب الى شبه الجزيرة العربية سنة ١٨٨٦م.. فايران سنة ١٨٨٧م.. فوسكو.. فيونيخ.. فايران ثانية سنة ١٨٩٠م.. فالعراق سنة ١٨٩١م.. فلندن..

وفي كل هذه المواطن لم يعرف الرجل لنفسه حرفة سوى حرفة الثورة على البالي، والدعوة الى اليقظة والتجديد، ولم يتخذ لنفسه أسرة سوى الأنصار والتلاميذ الذين أعدهم ودفع بهم في الصراع ضد الزحف الاستعماري الغربي الذي كان يحث الخطأ لالتهام بلاد العرب وأقطار الاسلام.. وظل ذلك شأنه حتى نجح السلطان العثماني في استقدامه الى الآستانة سنة ١٨٩٢م، وهناك أحاطه بالعيون والجواسيس، فعاش في «قفص السلطان الذهبي»! حتى فاضت روحه الى بارئها في ٩ مارس سنة ١٨٩٧م (١٠٠)..

(١٠٠) في الطبعة الثانية من دراستنا وتخصيصنا للأعمال الكاملة للأفغاني توسعنا في دراسة حياته بعد أن كنا قد أوجزناها في ص ١٠ - ١٨ من الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٨.

• وثاني اعلام هذا التيار: الامام محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥م) الذي تتلمذ على الأفغاني، ففاقه في التركيز على الاصلاح الديني، وان لم يبلغ شأواستأذه في الفكر السياسي.. وهو فلاح مصري، فقي، بلغ بعقله وفكره الى مكان هابته فيه الملوك، فقال عنه خصمه الخديوي عباس: «انه يدخل على كفرعون!».. وداعبه أستاذة الأفغاني متسائلا: «قل لي: ابن أي ملك من الملوك انت؟!»... دخل الأزهر صغيرا، فصله عن علومه جمود شيوخه وعقم وسائل التعليم فيه.. ثم اعانه نهج الصوفية المتسكين على مواصلة الدراسة.. حتى كان لقاءه بالأفغاني سنة ١٨٧١م فحدث له وفيه التحول الكبير.. فن التصوف النسكي تحول الى التصوف الفلسفي.. ومن أفق طلاب الأزهر المحدود انطلق الى حيث استشرف الآفاق التي كان يستشرفها أستاذة.. وفي صحبة الأفغاني بمصر كان أبرز مرديه.. ثم أصبح، بعد نفيه، ووفق عبارته: «روح الدعوة» الى التجديد.. وأسهم، من موقع الاعتدال، في الثورة العربية.. ثم نفى فيمن نفى من قادتها.. فعاش زمنا في باريس، يحرر (العروة الوثقى)، وينوب عن الأفغاني في رحلات سرية لشئون الجمعية التنظيمية.. ثم أقام في بيروت.. فلما سمح له بالعودة الى مصر، هجر العمل السياسي، وركز على محاولة اصلاح القضاء والأوقاف والأزهر، وتحرير العقل المسلم من اسر التقليد، وتجديد اللغة العربية.. فأصاب الكثير من النجاح في العديد من الميادين، وتبلورت من حوله معالم هذا التيار التجديدي ومدرسته.. لكن صدامه مع الخديوي عباس حلمي الثاني (١٨٧٤ - ١٩١٤م) قد أعاق الكثير من اصلاحاته، كما أن جمود أغلب شيوخ الأزهر قد منع جهوده الاصلاحية من بلوغ ما أراد لها في اصلاح الأزهر، حتى لقد مات كحدا بسبب هذا الاخفاق في ١١ يوليو سنة ١٩٠٥م. (١٠١)

(١٠١) في الترجمة لحياة الأستاذ الإمام أنظر دراستا عنه من أعماله الكاملة ج ١.

• وفي المشرق العربي كان عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ - ١٩٠٢م) من أبرز من مثلت أفكاره القسّمات الفكرية لهذا التيار.. وهي الأفكار التي خلفها لنا في كتابيه الفريدين (أم القرى) و (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد).

ولقد ولد الكواكبي في حلب، لأسرة كانت فيها نقابة الأشراف قبل أن يغتصبها منها الشيخ أبو الهدى الصيادي (١٨٤٩ - ١٩٠٩م) الذي برز في الدولة العثمانية كنموذج لفكرية العصور الوسطى المتخلفة، وأداة للفس والتكيل بالمجدين والثوار والمصلحين.

وفي سنة ١٨٧٨م أصدر الكواكبي صحيفة (الشهباء)، أول صحيفة عربية تصدر في ولاية حلب.. ولم يمهّلها العثمانيون أكثر من خمسة عشر عدداً، ثم منعوا صدورها.. فأصدر في العام التالي جريدة (الاعتدال).. ولقد قاده نضاله إلى هجران العزّائف، وإفلاس التجارة، وتعريض حياته للخطر.. ثم قاده إلى السجن في سنة ١٨٨٦م، فلما اضطّر العثمانيون إلى الإفراج عنه تحت ضغط جماهير الولاية، أطلقوا سراحه، ثم عادوا لالقاء القبض عليه ولفقوا له اتهاماً بالاتصال بدولة أجنبية، وحكموا بإعدامه!.. ولكن الجماهير عاودت ضغطها، فأجبرت العثمانيين على إعادة محاكمته خارج الولاية، فعرضت القضية على محكمة بيروت التي حكمت ببراءته!..

وفي تلك الأثناء كان الكواكبي قد أنشأ تنظيم (جمعية أم القرى)، وهي الجمعية التي عقدت مؤتمرها السري بمكة، والتي أصبحت مداولات مؤتمرها هذا أساس كتابه (أم القرى). وفي هذا المؤتمر حضر ممثلون عن الولايات العربية التي يحكمها العثمانيون، وشاركهم المداولات ممثلون للبلاد العربية الأخرى، وللجاليات الإسلامية خارج حدود الوطن العربي.

ولما أضحت حياة الكواكي مهددة في حلب، قرر الهجرة منها الى مصر، فوصل اليها سرا في سنة ١٨٩٩م.. وفي مصر أفاد من تناقضات كانت بين حكومتها والدولة العثمانية يومئذ، فنشر كتابيه، فصولا في الصحف، ثم جمع الفصول فصدرت في كتابين.. ومنها قام برحلة لبلاد المشرق العربي، والمناطق العربية والمسلمة في افريقيا.. وبعد نحو أربع سنوات قاضت روحه الى بارئها، بمؤامرة دس فيها السم له جاسوس من جواسيس السلطان عبد الحميد، فكان استشهاده في ١٤ يونيو سنة ١٩٠٢م (١٠٢)

• أما في المغرب العربي فان عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ - ١٩٤٠م) يعد أبرز ممثلي هذا التيار.. وهو قد ولد بقسنطينة، في الجزائر، وفيها تعلم علوم العربية والاسلام، ومن شيوخه في تلك الفترة: الشيخ حمدان الونيسي، الذي أخذ عليه عهدا أن يقاطع الحكومة الاستعمارية، فالتزم العهد، وصار يأخذه على تلاميذه فيما بعد!.. وفي التاسعة عشرة من عمره سنة ١٩٠٨ م ذهب الى جامعة الزيتونة، بتونس، فدرس فيها ما لم يكن يستطيع ان يدرسه بالجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي الذي كان يحرم العربية ويطارد السمات القومية للجزائريين كي يسحقها، كي يجعل منهم فرنسيين. ومن وطنهم الامتداد الفرنسي في القارة الافريقية عبر البحر المتوسط!..

وفي سنة ١٩١٢م سافر حاجا الى الحجاز، وهناك التقى بعدد من الشيوخ الجزائريين الذين هاجروا وجاوروا بمكة والمدينة، فعرض عليه بعضهم ان يجاور مثلهم الحرمين الشريفين، ولكنه كان قد شرع التفكير في مقاومة الاستعمار الفرنسي بالجزائر، فرفض الهجرة، وقال: نحن لا نهاجر. نحن حراس الاسلام والعربية والقومية في هذا الوطن! «.. وقبل عودته

(١٠٢) انظر تفاصيل حياته في تقديمنا لعماله الكاملة. ص ٩ - ٣٢.

اتفق مع الشيخ «البشير الابراهيمي» على خطة لتنفيذ البرنامج الذي لخصته كلماته هذه.. وكانت الخطة هي اعداد جيل من الرجال يواجهون محاولة السحق القومي، في الجزائر، ويعيدون الجزائر الى «العروبة والاسلام والقومية».. رجال «يملكون وضوحا في الهدف، وفكرة صحيحة توصل اليه، حتى وان كانوا ذوي علم قليل! ويعرفون حدود غاياتهم، التي تنتهى عند تسليم الأمانة لجيل ثان يعلن الثورة ويستخلص الاستقلال من المستعمرين!..»

ومكث ابن باديس ثمانية عشر عاما يعد هذا الجيل، قائلا: انا لأؤلف الكتب، وانما أريد صنع الرجال! فكان يعظ في المساجد، ويفسر القرآن، ويعلم العربية للأطفال، ويجوب القرى والمدن ويصعد الجبال.. فاجتمع له من سنة ١٩١٣ حتى سنة ١٩١٨م ألف من هؤلاء الرجال!.. وعندما أقامت فرنسا احتفالاتها الصاخبة المجنونة بمرور قرن على احتلالها للجزائر سنة ١٩٣٠م، كان رد ابن باديس هو اعلان المشروع الذي خطط له سنة ١٩١٢م، فقامت (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) في ٥ مايو سنة ١٩٣١م حاملة رسالة العودة بالجزائر الى هويتها القومية، وممهدة الطريق لجيل الثورة المسلحة على الاستعمار..

وكانت «الطرق الصوفية» سندا أساسيا للسلطة الاستعمارية بالجزائر، فحاربها ابن باديس منذ سنة ١٩٢٥م، وتعرض بسبب ذلك للاغتيال سنة ١٩٢٧م..

وفي سنة ١٩٢٥م بدأ نشاطه الصحفي.. فشارك في صحيفة (النجاح).. ثم أصدر مجلة (المنتقد) سنة ١٩٢٦م وكان شعارها: «الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء»! فعطلها الاستعمار بعد ثمانية عشر

عددا.. لكنه عاد فأصدر صحيفة (الشهاب)، أسبوعية، ثم شهرية.. كما أصدر صحفا أخرى تعرضت للمصادرة والالغاء، منها (الشريعة)، و(السنة المحمدية) و(الصراط).

وقبل أن ينتقل ابن باديس الى جوار ربه في ١٦ ابريل سنة ١٩٤٠م كان قد وضع وطنه بيد الجيل الذي أعاده الى طريق العروبة، والذي صنع الجيل الذي أعلن الثورة على فرنسا سنة ١٩٥٤م وحقق بدماء المليون شهيد استقلال الوطن الجزائري العربي المسلم سنة ١٩٦٢م.. فحقق الهدف الذي رسمه الشيخ، بمكة، قبل نصف قرن، يوم قال: «نحن لا نهاجر. نحن حراس الاسلام والعربية والقومية في هذا الوطن!». .. فأثبت أن الاسلام والعروبة والقومية لن تضيع اذا كان لها حراس من أمثال ابن باديس.. وأثبت أيضا أنه أبرز ممثلي تيار التجديد والاصلاح، السلفي العقلاني المستنير، ببلاد المغرب العربي على الاطلاق (١٠٣).

في مواجهة: فكرية العصور الوسطى:

كانت فكرية العصور الوسطى، المحافظة والجامدة واللاعقلانية، والتي قنع أصحابها بالجمع والتصنيف والتدوين، وخاصة للتراث غير العقلاني.. كانت هذه الفكرة واحدة من التحديات التي تصدى لها تيار التجديد العقلاني المستنير.. ولأنها كانت تحتكر الحديث باسم السلف الصالح، وتقدم فكرها باعتباره فكر هذا السلف، ومن ثم تضيف عليه قداسة الدين لهذه الاسباب، واتساقا مع منهج هذا التيار الذي ينطلق، في التجديد الديني، من المنابع الاولى للدين، كانت دعوته الى السلفية الدينية الحقيقية.. السلفية التي تعود لتأخذ «الدين» عن منابعه الاولى لأنها

(١٠٣) انظر للمزيد من التفاصيل عن حياة ابن باديس دراستنا عنه بكتابنا (مسلجون ثوار)

هي النقية، وليس عن فكر العصور الوسطى ومتونها وحواشيها.. فليست هذه هي منابعه، ومن ثم فإن أصحابها ليسوا هم السلفيين!.. ولذلك كانت سلفية هذا التيار تجديدا للدين، وليست محافظة وجمودا عند فكرة العصور الوسطى كما كان حالها عند الآخرين.. فمحمد عبده يدعو الى «فهم الدين على طريقة سلف الامة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه الى منابعها الأولى..» (١٠٤) والكواكبي يجهر بضرورة تجديد الدين في الشرق بأجمعه، اسلاما كان هذا الدين أو بوذية أو مسيحية أو يهودية، فيقول: «ما أحوج الشرقيين أجمعين، من بوذيين ومسلمين ومسيحيين واسرائيليين، وغيرهم، الى حكماء لا يبالون يغوغاء العلماء المرائين الأغبياء، والرؤساء القساة الجهلاء، فيجددون النظر في الدين، نظر من لا يحفل بغير الحق الصريح.. وبذلك يعيدون النواقص المعطلة في الدين، وهذبونه من الزوائد الباطلة، مما يطرأ عادة على كل دين يتقدم عهده، فيحتاج الى مجدين يرجعون به الى أصله المبين البريء..» (١٠٥).

ولتجديد الدين كان لابد من النظر في شأن المؤسسات التي تهتم على تدريس الدين.. ومن هنا جاءت محاولات الامام محمد عبده، ومعاركه من اجل اصلاح التعليم في الأزهر، وهي محاولات ومعارك تمثل فصلا من فصول كتاب التجديد الذي سطره هذا التيار.. فلقد كانت لمحمد عبده، بالذات، اتجاهات فكرية تعلق الكثير من الآمال، بل وأحيانا كل الآمال، على التربية والتعليم، وكان يرى أن الأمة اذا امتلكت صفوة مستنيرة من أبنائها، ثم اتسع عدد هذه الصفوة ونطاقها ونفوذها حتى غلبت الهمل والجهلاء، فان كل مشاكل الأمة ستأخذ طريقها للحل، كثمرة نضجت

(١٠٤) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده ج ٢ ص ٣١٨.

(١٠٥) الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ص ١٨٦، ١٨٧.

وحان لها موعد القطاف!.. ومن هنا كان تخليه عن العمل السياسي المباشر، وتركيزه على اصلاح القضاء، والأوقاف والأزهر.. والأزهر بالذات..

ولقد خاض الرجل معركة ضارية ضد الجامدين عند فكرية العصور الوسطى من شيوخ الأزهر.. فكان يطلب أن تدخل العلوم الحديثة — مثل الحساب والجبر والتاريخ والجغرافيا؟! — الى مناهجه، وكانوا يعارضون.. ولقد دار بينه، يوما، في مجلس ادارة الأزهر، وبين الشيخ محمد البحيري، حوار بدأه البحيري بالاعتراض على تدريس هذه العلوم، لعدم جدواها، ولأن على طلاب اليوم أن يدرسوا ما درسه شيوخهم وأسلافهم فعبرت كلمات الأستاذ الامام، بحدتها، عن عنف المعركة وضراوة الصراع..

البحيري: اننا نعلمهم كما تعلمنا!

محمد عبده: وهذا هو الذي أخاف منه!

البحيري: ألم تتعلم أنت في الأزهر؟! وقد بلغت من مراقي العلم، وصرت فيه العلم الفرد؟!!

محمد عبده: ان كان لي حظ من العلم الصحيح، الذي تذكر، فاني لم أحصله الا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من وساخة الأزهر، وهو الى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة؟!.. (١٠٦)

ولقد ارتبط سعي محمد عبده الى اصلاح الأزهر بنظرة عميقة لخطر الانقسام الذي يحدثه في شخصية الأمة ذلك الازدواج التعليمي القائم في مؤسسات العلم بها، وهو الازدواج الذي نشأ بنشأة المدارس المدنية منذ عهد محمد علي، بعد عجزه عن اصلاح الأزهر، فلقد خشي غلبة شيوخه واتهاماتهم، فتخير نجباء طلاب الأزهر وأقام بهم مؤسسات التعليم المدنية، وبقي الأزهر على ما كان عليه في العصور الوسطى، فأصبح للأمة نمطان في

(١٠٦) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده جـ ٣ ص ١٧٨، ١٧٩

التعليم بمزقان شخصيتها الى حد كبير، فكتب محمد عبده يشخص هذه الظاهرة ويقول: «انه ليس أمام الناس من معاهد التربية الا جبهتان: المدارس الأميرية، ومدروسة الأزهر الدينية، وليس في الجهتين ما يهديهم لما يجعلهم رعية صالحة.. في الأزهر لا يتعلمون من الدين الا بعض المسائل الفقهية وطرفا من العقائد، على نهج يبعد عن حقيقته أكثر مما يقرب منها! وجل معلوماتهم تلك الزوائد التي عرضت على الدين، ويخشى ضررها ولا يرجى نفعها.. وأبناؤه المعروفون «بالعلماء».. أقرب للتأثر بالأوهام، والانقياد الى الوسوس من العامة، وأسرع الى مشايعتها منهم، وذلك بما ينشأون عليه من التعليم الرديء والتربية التي لا ترجع الى أصل صحيح، فبقاؤهم فيما هم عليه اليوم مما يؤخر الرعية.. والناس لا يختارون لأبنائهم الأزهر الا لسوء ظنهم بالمدارس الأميرية، أو لاعتقادهم أن الأزهر أحفظ للدين منها، فاذا حصل الاصلاح فيها وجدوها أدنى الى المنفعة منه، فعند ذلك تنفرد بكونها معاهد التعليم، ويصبح الناس كلهم في طريق واحد!..»

ولقد يبدو هذا الرأي جريئا الى حد الغرابة.. فالشيخ محمد عبده يطلب اصلاح المدارس الأميرية ليضم منهاجها اطلالة عقلانية على الصفحات المشرقة في التراث، وتعمقا في علوم العصر، ويرى أن بلوغها هذا الهدف سيجعلها البديل الصالح للأزهر، وليس مجرد المنافس له.. فهي اذن دعوة الى الغاء الأزهر الشريف!.. ونحن نراه في مقام آخر يجهر بهذه الدعوة فيقول: «ان بقاء الأزهر متداعيا على حاله في هذا العصر محال، فهو اما أن يعمر واما أن يتم خرابه!» وكان محمد عبده يمارس التدريس في (مدرسة دارالعلوم العليا) التي أنشأها علي مبارك باشا (١٨٢٤ - ١٨٩٣م) لتجسد وحدة شخصية المثقف والمتعلم، فهي تدرس علوم العصر،

وتعلل من زاوية عصرية على التراث.. ويبدو أن تجربة محمد عبده في (دار العلوم) أقتعت، عندما غلب عليه اليأس من اصلاح الأزهر، أن (دار العلوم) يجب أن تكون البديل للأزهر، فكتب عنها يقول: «ان هذه المدرسة تصلح أن تكون ينبوعا للتهديب النفسي والفكري، والديني والخلقي، ويمكن أن ينتهي أمرها الى ان تحل محل الأزهر، وعند ذلك يتم توحيد التربية في مصر» (١٠٧)

بل لقد نعجب نحن في عصرنا، فضلا عن عصر الشيخ محمد عبده، عندما نعلم أن الرجل كان من أنصار جعل التعليم العام في مدارس الدولة «مدنيا» خالصا، وتخصيص مدارس خاصة للتعليم الديني والتربية الدينية.. ولقد جهر برأيه هذا، ولكنه اعترف بأن الأخذ به في مثل مجتمعاتنا الشرقية مستحيل استحالة «مجيء الألف على رأس المائة!..» كما قال.. وهو قد جهر بهذا الرأي وهو يحذر أبناء أمته من ارسال أولادهم الى المدارس الأجنبية التي تمارس التبشير بواسطة التعليم الديني فتغير عقائد الأبناء المسلمين.. فكتب يقول: «اننا نعيد انذار الآباء.. أن لا يبعثوا بأبنائهم الى المدارس الأجنبية التي تغير مشارهم ومذهبهم، حتى يأذن الله بمنع التعليم الديني في جميع مدارس العالم، فتكون المدارس قاصرة على العلوم الغير الدينية والصنائع، ويكون للدين مواضع مخصوصة لتعليمه والتربية بمقتضاه.. وهذا — خصوصا في مثل اقطارنا — أبعد من مجيء الألف على رأس المائة!» (١٠٨).

فهو، فيما استهدفه، من جهود لاصلاح الأزهر انما كان يستهدف تجنيد الفكر الديني، والتصدى لذلك التحدى الذي تمثل في فكرية العصور

(١٠٧) المصدر السابق. ج ٣ ص ١١٢ — ١١٤، ١٧٧، ١١٩.

(١٠٨) المصدر السابق. ج ٣ ص ٦٠، ٦١..

الوسطى، فكرية العصر «الملوكي - العثماني»، التي قدمت ما لا يستحق التقليس، من الحواشي والمتون.. ولم تكن دعوته هذه محلية، خاصة بمصر، ففضلا عن أن الأزهر، وخاصة في عصره، كان أبرز معاهد العلم في عالمي العروبة والاسلام، التي لم تكن تعرف أغلب بقاعها يومئذ المدارس المدنية، فإن الدعوة الى اصلاحه كانت منطبقة تماما وموجهة أيضا الى مؤسسات التعليم المتناظرة له أو المقاربة: الجامع الأموي بدمشق والزيتونة بتونس، والقرويين بفاس..

وفي مواجهة التنكر للعقل:

وكانت فكرية العصور الوسطى هذه تتنكر للعقل، وتنفر من العلوم العقلية، وتقف عند العلوم الأدوات، دون علوم المقاصد والغايات، وكان عداؤها للفلسفة تجسيدا لهذا الموقف الذي تصدى له تيار التجديد العقلاني المستنير..

فالدولة العثمانية، مؤسسات وشيوخا وسلاطين، كانت تشجع الفكر المؤسس على الخرافة، وتنفر من الفلسفة، وتعادي أدواتها في البحث، وهو العقل.. وإذا كان المقام لا يتسع لاستقصاء أدلة هذا الحكم - الذي لا نعتقد أنه موضع خلاف بين أغلب الباحثين - فإن بعض الأمثلة تكفي في هذا المجال.. فالامام الغزالي قد ألف كتابه (تهافت الفلاسفة) الذي شن فيه أكبر هجوم على الفلسفة والفلاسفة، وعلى قوانين السببية وقوانين الطبيعة.. الخ.. الخ.. ورد عليه أبو الوليد ابن رشد بكتابه (تهافت التهافت) الذي انتصر فيه للفلسفة والعقل والعقلانية، فلما جاء الكاتب التركي العظيم حاجي خليفة (١٠١٧ - ١٠٦٧ هـ - ١٦٠٩ - ١٦٥٧ م) فصنف موسوعته (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) وهي التي أحصى فيها العلوم والفنون والكتب التي وضعت فيها كانت وقفته امام هذين الكتابين تجسيدا

لمكان كل منها في المناخ العثماني.. فهو قد أفرد حديثا (لتأفت الفلاسفة) استغرق مائة واثنين وثلاثين سطرا، بينما لم يفرد (لتأفت التأفت) حديثا، وإنما عرض له في التذييل والتعقيب على حديثه عن كتاب الغزالي، ولم يزد هذا التعقيب عن ستة أسطر فقط لا غير!.. (١٠٩)

والأزهر لم يكن يطبق مجرد سماع مصطلحات وأسماء مثل: الفلسفة، والمنطق، والمعتزلة.. الخ.. ومن العبارات التي غدت حكما على السنة عدد من شيوخه: «من تمنطق فقد تزندق!..» وعندما جاء الأفغاني الى مصر، وعقد بمنزله حلقة درس أملى فيها تعليقاته على (شرح الدواني للعقائد العضدية) وأفاض في الحديث، باحترام وعمق، عن فلسفة الاسلام وفلاسفته، كان يذكر الناس بأشياء قد نسوها وأعلام كادوا أن يجهلوه.. وكان محمد عبده - وهو لا يزال طالبا بالأزهر يومئذ - يخرج من بيت الأفغاني الى الجامع الأزهر، فيجمع نباء الطلاب، ويعيد عليهم ما سمعه في بيت جمال الدين، فلما علم الشيخ عlish أن اسم «المعتزلة» قد تردد في جنبات الأزهر حمل عصاه الشهيرة وذهب ليكسر عظام محمد عبده، ولكن الله سلم، فلقد استعد محمد عبده للصدام، فراجع الشيخ عملا بقول القدماء: القتل أنقى للقتل.. واعداد العلة يمنع الصدام!..

ذلك كان مناخ فكر الدولة العثمانية، وموقف مؤسساتها من العقل والفلسفة.. فإذا صنع تيار التجديد هذا على هذه الجبهة؟..

ان الأفغاني، رأس هذا التيار، قد قلم نفسه كفيلسوف، ليس بما أحيا من دروس الفلسفة ومباحثها فقط، ولكن بسلوكه وتصنيفه لنفسه - فهو إذا كان شجاعا ولا يخشى أعداءه، بل ولا يخشى الموت في سبيل غاياته،

(١٠٩) (كشف الظنون) ج ١ ص ٥٠٩ - ٥١٣ طبعة استانبول سنة ١٩٤١م.

فان هذه الشجاعة أثمر من آثار الفلسفة على ذاته، وثمره من ثمار نظريته للعالم كما ينظر الفيلسوف: «أيها الدرويش القاني: مم تخشى؟!.. اذهب وشأنك، ولا تخف من السلطان، ولا تخش الشيطان؟!.. كن فيلسوفا ترى العالم العوبة! ولا تكن صبيا هلوعا؟!.. انه سيان عندي طال العمر أو قصر.. فان هدفي أن أبلغ الغاية، وحينئذ أقول: فزت ورب الكعبة!..»

وهو امام تلاميذه وبين مريديه صورة عصرية للفيلسوف المناضل، لا الذي يعيش منعزلا في خلوة أو فوق سطح منزل يتأمل النجوم!، بل وللفيلسوف المتصوف، الذي جمعت العقلانية فيه بين الفلسفة والتصوف العقلي.. فهو صورة جديدة على عصره لكل من الفيلسوف والصوفي.. ومن تعريفاته الطريفة في هذا المقام: «الفيلسوف، ان لبس الخشن وأطال المسبحة ولزم المسجد، فهو صوفي. وان جلس في قهوة «متاتيا» وشرب الشيشة، فهو فيلسوف (١١٠)» قال ذلك وهو يشرب الشيشة في قهوة «متاتيا» بميدان العتبة الخضراء بالقاهرة!.

وعلى حين كان موقف الدولة العثمانية من ابن رشد وفلسفته ما قد علمنا، فان هذا التيار قد أحل ابن رشد مكانا عليا، بل لقد كانت فلسفة ابن رشد، وتوفيقه بين العقل والنقل، بتأويل النقل اذا تعارضت ظاهرة مع براهين العقل، وبمؤاخذاته بين الحكمة — (الفلسفة) — وبين الشريعة.. كانت هذه الفلسفة، مع التصوف الفلسفي لابن عربي من أبرز المنطلقات التي انطلق منها هذا التيار التجديدي في هذا الميدان..

ولقد دخلوا هذه الساحة داعين الناس الى العودة للبدييات «فلقد بدأ الانسان بداية لا تميزه عن غيره من الحيوانات!.. لكن نقطة الافتراق كانت قوته العاقلة .. والله قد جعل قوة العقل للانسان محور صلاحه

(١١٠) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ١ ص ٢١.

وفلاحه (١١١) والعقل هو جوهر انسانية الانسان.. وهو أفضل القوى الانسانية على الحقيقة.. (١١٢) «والحكمة - (أي الفلسفة) - وآلتها العقل - هي مقننة القوانين، وموضحة السبل، وواضحة جميع النظمات، ومعينة جميع الحدود، وشارحة حدود الفضائل والردائل، وبالجملة، فهي قوام الكمالات العقلية والخلقية.. فهي أشرف الصناعات (١١٣)! ونقيض العقل وعدوه هو الجمود، والصراع بينهما أزل، لكن النصر للعقل في هذا الصراع حتمي وأكيد.. والأفغاني يصور هذه المعركة، التي كانت في الحقيقة معركة تياره التجديدي، فيقول: «لبث الانسان يقلب طرفه في الفضاء وطبقات الهواء، يتجادل عقله مع النور والعقبان المحلقة، وهب لمجاراتها واللحاق بها، ثم يقعه الجمود، ويريه ذلك مستحيلا، فيرجع الى الوراء! والعقل، وهو معتقل بذلك الجمود، يحاول فك قيده ليسير الى الأمام.. فاذا ظفر العقل في هذا العراك والجidal، وتغلب اقداامه على الأوهام، واستطاع فك قيوده، ومشى مطلق السراح، لا يلبث طويلا الا وتراه قد طار بأسرع من العقبان وغاص في البحار يسابق الحيتان، وسخر البرق بلا سلك لحمل أخباره، وتحادث عن بعد أشهر مع غيره كأنه قاب قوسين أو أدنى. وهل يبقى مستحيلا إيجاد مطية توصله للقمر، أو الأجرام الأخرى؟! وما يدرينا بعد ذلك ما يأتيه الانسان في مستقبل الزمان اذا هوثابر على هذا السير لكشف السربعد السر من مجموع أسرار الطبيعة، والتي ما وجدت الا للانسان، وما وجد الانسان الا لها (١١٣)!.. ان الانسان من اكبر اسرار هذا الكون، وسوف يستجلي بعقله ما غمض وخفي من أسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وباطلاق سراح العقل الى تصديق

(١١١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٥٦، ٢٥٧.

(١١٢) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٥ ص ٤٢٨، ج ٣ ص ٢٩٨.

(١١٣) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٦٠.

تصوراته، فيرى ما كان من التصورات مستحيلا قد صار ممكنا، وما
صوره جموده بأنه خيال قد أصبح حقيقة!.. (١١٤)

على هذا النحو كانت الثقة في العقل وقدراته، وكان التنبؤ، قبل
عصرنا، بما حقق في عصرنا من انتصارات، وكان القطع بأنه سيحقق كل
الانتصارات، اذ لا سر في الطبيعة والكون سيستعصى على الكشف بواسطة
هذا العقل الانساني!..

والأفغاني، الذي يقول «ان الحكم للعقل والعلم»، لا ينكر أن
للعقل نظرات، ولنظراته ثمرات هي فوق ادراك العامة والجماهير.. وهنا
نتذكر منهج ابن رشد عندما قسم الناس الى مستويات ثلاثة:

العامة: وسبيلهم للمعرفة والايان: الوعظ والخطابة، والأسلوب الشعري..
وأوساط الناس: وسبيلهم الجدل وحجج المتكلمين..
والخاصة: وسبيلهم صناعة الفلسفة وبراهين العقل..

وانطلاقا من هذه النظرة يقول الأفغاني، «ان العقل لا يوافق
الجماهير، وتعاليمه لا يفقهها الا نخبة من المتورين، والعلم، على مابه من
جمال، لا يرضي الانسانية كل الارضاء، وهي تتعطش الى مثل أعلى، وتحب
التحليق في الآفاق المظلمة السحيقة التي لا قبل للفلاسفة والعقلاء برؤيتها أو
ارتيادها؟!».. (١١٥)

ومسرح العقل وميدانه ليس أمور الدنيا وعلومها فقط، بل وعلوم
الدين أيضا، والدين الاسلامي على وجه الخصوص، فالايان، يقين «ولا
يقين مع التخرج من النظر، وانما يكون اليقين باطلاق النظر في الاكوان،

(١١٤) المصدر السابق. ص ٢٦٥.

(١١٥) المصدر السابق. ص ١٠٢.

طولها وعرضها تستبدل بفاصله وحتى يصل الى الغاية التي يطلبها بدون تقييد.. فالله يخاطب في كتابه، الفكر والعقل والعلم، بدون قيد ولا حد.. والوقوف عند حد فهم العبارة مضربنا ومناف لما كتبه أسلافنا من جواهر المعقولات، التي تركنا كتبها فراشا للأتربة وأكلة للسوس، بينما انتفعت به أمم أخرى أصبحت الآن تنعت باسم: النور!»

وحتى «المعجز الخارق» الذي تحدى به الاسلام خصومه — «وهو القرآن وحده — قد دعا الناس الى النظر فيه بعقولهم.. فهو معجزة عرضت على العقل، وعرفته القاضي فيها، وأطلقت له حق النظر في أثنائها، ونشر ما انطوى في أثنائها.. فالاسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي، والفكر الانساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يفشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة الهية...»

والتقليد، حتى في العمل الديني الصالح، ليس من شأن المؤمنين «اذ المرء لا يكون مؤمنا الا اذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به.. فمن ربي على التسليم بغير عقل، والعمل، ولو صالحا، بغير فقه فهو غير مؤمن، لأنه ليس القصد من الايمان أن يذلل الانسان للخير، كما يذلل الحيوان بل القصد منه أن يرتقي عقله وتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرتة في دينه ودنياه، ويكون فوق هذا، على بصيرة وعقل في اعتقاده.. فالعاقل لا يقلد عاقلا مثله، فأجدر به أن لا يقلد جاهلا هو دونه..» (١١٦)

ومن هذا المنطلق الفلسفي، المسترشد بالعقل، أبرز هذا التيار

(١١٦) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٣ ص ١٥١، ٢٧٩ — ٢٨١، ج ٤ ص ٤١٤.

التجديدي العلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات.. وهي من الأفكار المحورية في معارضة فكرية التواكل التي لعبت دورها في تخلفنا بالعصور الوسطى.. فابن باديس يرجع نجاح الأمة في عصر حضارتها الذهبي الى ايمانها بارتباط المسببات بالأسباب، وهو الايمان الذي أثمر الاعتقاد بحرية الانسان واختياره، وبأن للأشياء، في ذاتها وبطبيعتها، نفعا أو ضررا، حسنا أو قبحا، بصرف النظر عن النصوص والنقل والمأثورات.. (١١٧)

وهذه القضية، قضية ابراز ما للأشياء والعوامل والظواهر الطبيعية من خصائص وأفعال وتأثيرات قد وجدت لها حيزا ملحوظا في الفكر الفلسفي لهذا التيار التجديدي.. فالأفغاني يبدي إعجابه بتلك العبارات التي صاغ فيها المفكر العربي أبو بكر بن بشرون (قبل أكثر من ألف عام) أفكاره العلمية عن أصل الحياة، والتي يقول فيها: «ان الحركة هي الأصل في توليد الحرارة، وللحرارة خاصة نقل الأشياء وتحركها، والكون، بما فيه من رطوبة ويس، ليس لها الا البرودة والحرارة، فالبرودة تيبس الأشياء وتعتقد رطوبتها، والحرارة تظهر رطوبتها وتعتقد يسها، والمرجع الكلي في الأشياء: الحرارة المنبعثة عن الحركة، وهي اصل الحياة، ومتى فقدت حرارة الكون تعذرت الحياة، أوفقدت!».

ولقد قاد هذا الموقف، المؤمن بالعلاقة الضرورية بين السبب والمسبب، بين العناصر الطبيعية وبعضها، قاد الأفغاني الى الايمان بنظرية النشوء والارتقاء، بعد أن كان قد انتقدها في صدر شبابه بكتابه (رسالة الرد على الدهريين)، بل وبحث عن تراث العرب فيها، فلما سأله سائل عن مراد أبي العلاء المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ - ٩٧٣ - ١٠٥٧ م) بقوله:

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

(١١٧) (ملعون ثوان) ص ٢٦٧، ٢٦٨.

وهل مراد المعري هو «ما عناه» «داروين» بنظرية النشوء والارتقاء؟
«كان جواب الأفغاني: «.. ان مقصد أبي العلاء ظاهر واضح، ليس فيه خفاء، فهو يقصد النشوء والارتقاء، أخذا بما قاله علماء العرب قبله بهذا المذهب، اذ قال أبو بكر بن بشر بن بشر في رسالته «لأبي السمع»، عرضا، في بحث الكيمياء: «ان التراب يستحيل نباتا، والنبات يستحيل حيوانا، وان أرفع المواليد هو الانسان «الحيوان»، وهو آخر الاستحالات الثلاثة وأرفعها.. وان أرفع مواليد التراب (ومنه المعادن): النبات، وهو أدنى طبقات الحيوان.. سلسلة تنتهي عند الانسان.. الخ».. «فاذا كان بناء مذهب النشوء والارتقاء على هذا الأساس، فالسابق فيه علماء العرب، وليس «داروين»، مع الاعتراف بفضل الرجل وثباته وصبره على تتبعاته، وخدمته للتاريخ الطبيعي من أكثر وجوهه، وان خالفته وخالفت أنصاره في مسألة «نسمة الحياة» التي أوجدها الخالق سبحانه وتعالى، لا على سبيل الارتقاء».. (١١٨)

ولم يجد ممثلو التيار التجديدي — مثلهم في ذلك مثل ابن رشد — أي حرج، في تقرير علاقة السببية، على الاعتقاد والايان الديني العميق بوجود الخالق الفاعل في هذا الكون، سبحانه وتعالى.. لأنه سبحانه هو الذي خلق الكون وخلق القوانين والسنن التي لا سبيل الى خرقها وتبديلها.. فعلى حين تخرج الغزالي من تقرير علاقة السببية حتى قال أن الثلج ليس هو السبب في برودة الماء، والنار ليست هي السبب في احتراق القطن، والسيف الذي جز العنق ليس هو السبب في القتل!.. لم يتخرج أعلام هذا التيار في تقرير هذه العلاقة الضرورية، باعتبارها سنن الكون وقوانينه وقوى المواد الطبيعية وخصائصها وفعل الظواهر المادية التي لا تتخلف عن الفعل الا اذا عاقها

(١١٨) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٦٤، ٢٥٠، ٢٥١.

سبب وقانون جديد.. ووجدنا الإمام محمد عبده يتناول هذه القضية في جلاء فيقول: «ان القول ينفي الرابطة بين الأسباب والمسببات جدير بأهل دين ورد في كتابه أن الايمان وحده كفاف في أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل: تحول عن مكانك، فيتحول الجبل؟. يليق بأهل دين يعد الصلاة وحدها، اذا أخلص المصلي فيها، كافية في اقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصري!.. وليس هذا الدين هو دين الاسلام.. دين الاسلام هو الذي جاء في كتابه: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) (١١٩) (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) (١٢٠) (سنة الله في الذين خلوا ولن تجد لسنة الله تبديلا) (١٢١) وأمثالها.. وليس من الممكن ان يذهب الى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب في السببية والمسببية الا اذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله!.. ان لله في الأمم والأكوان سنا لا تبدل.. وهي التي تسمى شرائع، أو نواميس، أو قوانين.. ونظام المجتمعات البشرية، وما يحدث فيها، هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في المجتمع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد اليها أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فان غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر الا الشقاء، وان ارتفع في الصالحين نسه، او اتصل بالمقربين سبه. فهما بحث الناظر وفكر، وكشف وقرروا في لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تنجافي عنه، ولا تنفر منه!..» (١٢٢)

هذا عن مكان الفلسفة — (الحكمة) — وأداتها العقل، في فكر هذا

(١١٩) التوبة: ١٠٥.

(١٢٠) الأنفال: ٦٠.

(١٢١) الأحزاب: ٦٢.

(١٢٢) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٣ ص ٥٠٢، ٢٨٤.

التجديد الذي واجهوا به بناء فكر يا ناصب الفلسفة والعقل
العداء..



وتبعاً لأقول نجم العقلانية والفلسفة في المناخ الفكري للمصور
الوسطى، «الملوكية - العثمانية»، كانت السيادة لتصوف النسك في مجال
خاصة المتصوفة، وللشعونة والخرافة بين الملايين التي انخرطت في «الطرق
الصوفية» حيث تحولت الرياضات الروحية الى طقوس شكلية، ومزارات
الأقطاب الى وسائط بين الانسان وربه شابت بالشرك نقاء عقيدة التوحيد..
وكان ذلك كله على حساب «التصوف الفلسفي» الذي نشأ وازدهر على يد
فلاسفة من أمثال ابن عربي والحلاج (٣٠٩ هـ - ٩٢٢ م) فلما بدأ الأفغاني
حركة تجديده وجدنا فيها لهذا التصوف الفلسفي مكاناً ملحوظاً وعزيزاً.. فعلى
حين كانت السلفية التقليدية المحافظة تضع التصوف والصوفية في عداد
الشرك والمشركين، هكذا باطلاق، رأينا الأفغاني ومحمد عبده يتحدثان عن
ابن عربي باجلال كبير، فيلقبانه بـ «الشيخ الأكبر» (١٢٣) ووجدنا
الأفغاني - كما سبقت اشارتنا - يحتل مكان الفيلسوف المتصوف، الذي
امتزجت فيه حكمة الفيلسوف برياضات الصوفي، فهو صوفي خلع الملابس
المرقعة وعدل عن حمل المسبحة الطويلة، وانخرط في حركة التجديد
والاصلاح، وجعل من العقل - كما أراد له الله سبحانه - أفضل القوى
الانسانية، ومعيار انسانية الانسان.. فكان فيلسوفاً يسلك الى التجديد
والاصلاح والشورى، للفرد وللأمة، مجاهدات ورياضات هي أشبه ما تكون
بمراقي الصوفية الحكماء على «الطريق»!..

(١٢٣) المصدر السابق ج ٤ ص ١٠٠ وأصل الأفغاني ص ٢٦٤.

وكانت المصوّر الوسطى قد زخرت بصراع شديد وطويل بين المتصوفة والفقهاء، ووجد كثيرون في اصطلاحات الصوفية ومقولاتهم «شطحات» خارجة عن اطار الشريعة، فحكموا بكفرهم، وصنفت في ذلك الرسائل والمجلدات.. لكن هذا التيار التجليدي كشف لنا عن الجذور الحقيقية لنشأة هذا الصراع، وعن دور السياسة والسلطة السياسية فيه، وكيف أن الفقهاء قد كانوا أدوات السلطة في اضطهاد فلاسفة الصوفية، الأمر الذي ألجأهم الى الرمز والالغاز، حتى بدت اصطلاحاتهم هذه نشازا — اذا عرضت على الشريعة — في نظر غير العارفين.. ولقد كتب الامام محمد عبده — وهو العدو الأول «للطرق» الصوفية وبدعها — كتب مدافعا عن التصوف الفلسفي، وصوفية الحكماء، وكان في ذلك، بالقطع، يرد هجوم السلفية التقليدية المحافظة، فقال: «لقد اشتبه على بعض الباحثين السبب في سقوط المسلمين في الجهل.. وبحثوا في تاريخ الاسلام.. فظنوا ان التصوف من أعظم الأسباب في ذلك الجهل الذي أبعدهم عن التوحيد، الذي هو أساس عقائدهم.. وليس الأمر عندنا كما ظنوا.. لقله ظهر التصوف في القرون الأولى للاسلام، فكان له شأن كبير، وكان الغرض منه في أول الامر تهذيب الاخلاق وترويض النفس بأعمال الدين، وجذبها اليه، وجعله وجدانا لها، وتعريفها بأسرارها وحكمه بالتدريج. ولقد ابتلى الصوفية، في أول أمرهم، بالفقهاء، الذين جمدوا على ظواهر الأحكام المتعلقة بالجوارح والتعامل، فكان هؤلاء ينكرون عليهم معرفة أسرار الدين، ويرمونهم بالكفر، وكانت الدولة والسلطة للفقهاء، لحاجة الأمراء والسلاطين اليهم فاضطر الصوفية الى اخفاء أمرهم، ووضع الرموز والاصطلاحات الخاصة بهم.. وكان قصدهم فيها صحيحا، وما كانوا يريدون الا الخير المحض، لأن صحة القصد وحسن النية أساس طريقهم..»

ثم يمضي فيميز بين هذا التصوف الفلسفي، تصوف ابن عربي، وعبد
الكرام الجيلي (٧٦٧ - ٨٣٢ هـ - ١٣٦٥ - ١٤٢٨ م) والحلاج.. الخ.. وبين
خرافات «الطرق» الصوفية وبدعهم، فيقول: «لكن مقاصد الصوفية الحسنة
قد انقلبت، ولم يبق من رسومهم الظاهرة الا أصوات وحركات يسمونها
ذكرا، يتبرأ منها كل صوفي، والا تعظيم قبور المشايخ تعظيما دينيا، مع الاعتقاد
بأن لهم سلطة غيبية.. وهذا الاعتقاد هو عين اتخاذ الأنداد، وهو مخالف
لكتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف».

فهو يتفق مع السلفية التقليدية المحافظة في رفض البدع والوسائط
التي شابت عقيدة التوحيد عند «الطرق» الصوفية، ولكنه يختلف معها في
تقييمه للتصوف، كنمط تربية وسلوك، وكحكمة فلسفية.. ثم يعرض لما يبدو
في كلام الصوفية، بالنسبة لغيرهم، مخالفا للدين، فيقول: «لقد صرح
الصوفية بأن كلامهم رموز واصطلاحات لا يعرفها الا أهلها، كما صرحوا بأن
من أخذ بظاهر أقوالهم ضل. فان كتب محي الدين بن عربي مملوءة بما
يخالف عقائد الدين وأصوله، وهذا كتاب (الانسان الكامل) للشيخ عبد
الكرام الجيلي، هو، في الظاهر، أقرب الى النصرانية منه الى الاسلام. ولكن
هذا الظاهر غير مراد، وانما الكلام رموز لمقاصد يعرفها من عرف
مفتاحها..» (١٢٤)

ويتقدم الأفغانى، من موقع الفيلسوف المتصوف، فيكشف لنا
المفاتيح التي تفسر بعض هذه الرموز، فيقول: «ان التصوف هو مذهب
حكماء وعقلاء «تريضوا»، اي هذبت ولطفت جسمانهم الرياضية،
وكثر منهم النظر في الأشياء والتطلع الى حقائقها وفهم كنهها عن طريق
الحس الروحي، والانتقال في النفس المتعلقة في الجسم مؤقتا. فهم فيما

(١٢٤) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٤ ص ٣٩٤، ٣٩٥، ج ٣ ص ٥٢٨.

كانوا يرون ويقولون في مواجههم ومشاهدتهم وذوقهم، إما أن يراه من كان من غير طبقته غير معقول وغير مفهوم، وإما أن يسيء فهم معناه إذا أخذه على ظاهر لفظه.. يقول الشيخ الأكبر في بعض صلواته: «اللهم يا من ليس حجابك إلا النور، ولا خفاؤه إلا شدة الظهور، أسألك بك في مرتبة إطلاقك عن كل تقييد، التي تفعل فيها ما تشاء وتريد، وبكشفك عن ذاتك بالعلم النوري، وتحولك في صورة اسمائك وصفاتك بالوجود الصوري».

ويقول السيد البكري: «نعم العبد الذي به كمال الكمال، وعابد الله بالله بلا حلول ولا اتحاد، ولا اتصال ولا انفصال».

ترون هذه الكلمات المتناقضة ظاهراً، إنما أراد بنى الحلول الذاتي، فأتى لذلك بنى الحلول أولاً، والافكيف يعقل لوبقيننا على المفهوم الظاهر من معنى الكلمات، أن المتصل، في الوقت ذاته، يكون منفصلاً؟!.. فعاني التصوف، وإن كانت مغلفة في الغالب، لا يفهمها إلا أصحاب الذوق والمواجه، ويعسر على غيرهم تناول فهمها، فلا بأس من التقريب في التأويل، لينتفى غير المعقول.

وخير مثال يقرب للعقل المفهوم في مثل هذه الحال والأقوال: «المرآة» التي تمثل الشيء تماماً، فيفتح بهذا المثل بعض ما ذكر من كلام المتصوفة. فإذا قابلت المرآة الشمس، رأيتها في المرآة، ولا يعتري إنسان أدنى شبهة أنها — «الشمس» — على غير طريقة الحلول في المرآة، ولا على صورة الاتحاد والاتصال أو الانفصال. وحقيقة ذلك المرئي من الشمس إنما تجلى في المرآة «لشفافيتها»، وبذلك الشفافية حصل ذلك الانطباع على تلك الصورة، على غير حلول، ولا، ولا.. الخ.

ومن الأمثلة: قول ابن مشيش (كان حياً قبل ١١٣٦ هـ - ١٧٢٤ م)،

«وانشلتني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها، واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي، وروحه سر حقيقتي، وحقيقته جامع عوالم بتحقيق الحق الأول، يا أول، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن.. الخ..»

وقول الحلاج: «ما في الجبة غير الله..»

فإذا علمنا ان تجلي الشمس في المرآة حصل لشفافيتها، علمنا معنى تجلي الذات في خلقه، عندما تتلطف الكثافة الترابية الجسمانية، وتشف الروح، وتتمكن من اتصالها بعالمها، فترى من الذوق في الشهود ما لا يسهه إلا التعبير بالمتناقضات، وليس ثمة تناقض!.. (١٢٥)

في الوقت الذي دافع فيه هذا التيار التجديدي عن «التصوف الفلسفي»، من منطلق الدفاع عن العقلانية والفلسفة، رأينا عداوة لتلك «الطرق» الصوفية التي شوهت صورة التصوف، وجعلت جماهيرنا تستنم للسلطة المستبدة تارة، وللمستعمرين تارة أخرى، وذلك بعد أن استنامت للتواكل الذي حل ما بين المسلمين ودينهم وما بينهم وبين بعضهم البعض من روابط القوة وعلائق التضامن والانتصار.. فمحمد عبده هو الذي خاض أعنف المعارك ضد الطرق وبدعها (١٢٦).. وابن باديس شن عليهم حربا ضروسا عندما أصبحوا سندا رئيسيا للقهر الاستعماري الفرنسي، وشراكا تدعو الجزائريين الى التخلي عن ذاتيتهم القومية والاندماج في فرنسا!.. ولقد كانوا يبررون فعلتهم هذه فيقولون: «إذا كنا أصبحنا فرنسيين، فقد أراد الله ذلك، وهو على كل شيء قدير.. ولو أراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد لفعل، وكان ذلك عليه أمرا يسيرا، ولكنه، كما ترون، يمدهم بالقوة،

(١٢٥) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٩٨ - ٣٠٠.

(١٢٦) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٣ ص ٥١٦ - ٥٣٣.

وهي مظهر قدرته الالهية، فلنحمد الله، ولنخضع لارادته؟!.. (١٢٧)

ولقد حارب ابن باديس هذه الطرق الضالة، وكشف انحرافهم عن عقيدة التوحيد، بالوسائط التي جعلوها بين الانسان وربه، والقيور التي عظموها وتوسلوا بأصحابها.. ونجحت حملته ضدهم، وضد من اندمج منهم في الشخصية الفرنسية خاصة، حتى لفظتهم جماهير الشعب الجزائري، وحكموا بكفرهم، ورفضوا دفن موتاهم في مقابر المسلمين!.. وكتبت الصحف الفرنسية شاكية من نجاح (جمعية العلماء) هذه فقالت: «لقد نجح هؤلاء المتعصبون في حمل الناس على البراعة من مواطنهم الذين قبلوا أن يعدوا من الفرنسيين، وامتنعوا عن دفنهم في مقابر المسلمين.. وأضاعوا السلطان من أصدقائنا (الطرقية)!..»

وكانت الاتهامات التي وجهها (الطرقية) الى ابن باديس جميعها في اطار البرنامج الذي بشر به هذا التيار التجديدي.. فلقد اتهموه بأنه «عبداوي»!.. أي من مدرسة الامام محمد عبده.. وبأنه من دعاة الوطنية وأعداء الاستعمار؟.. ومن أنصار الجامعة الاسلامية!.. ومن الذين يجتهدون في الدين!.. ومن منكري الولاية وكرامات الأولياء؟!.. (١٢٨)

هكذا زاوج التيار التجديدي العقلاني المستنير بين الفلسفة والتصوف الفلسفي، لأنه انطلق من موقع اعلاء شأن العقل، باعتباره الميزان الذي توزن به النصوص، والحكم الذي تعرض عليه المأثورات.. فانتصروا لثمراته جميعا، وناصبوا الخرافة وفكرية العصور الوسطى المتخلفة العداء الشديد.. وبذلك، أيضا، تميزت سلفيتهم عن سلفية الذي غصوا من شأن العقل واسترابوا في الفلسفة أو رفضوا براهينها ومقولاتها..

(١٢٧) (مطلون) نوار ص ٢٦٣.

(١٢٨) المرجع السابق. ص ٢٦٣ - ٢٦٥.

وفي مواجهة: السلطة الدينية:

وكان حلف، غير مكتوب، قد قام بين نفر من الفقهاء وشيوخ «الطرق» الصوفية وبين السلطة والسلاطين، وخاصة منذ العصر المملوكي، عندما طور المماليك عمارة المساجد فأصبحت من الضخامة والفخامة بحيث استدعت اتفاقات الدولة وامكانياتها وعندما أوقفوا عليها الأوقاف الجمعة، ورصدوا الرواتب والتخصصات لشيخوها والمدرسين والدارسين بها، وكذلك الحال لخوانق الصوفية وتكاياها.. فتحول بذلك، هؤلاء الفقهاء والشيوخ الى «موظفين» لدى الدولة، الأمر الذي ربط مصالحهم بمصالح الحكام والسلاطين، وأطلق في صفوف الكثيرين منهم الحسد والتنافس على الارتباط بالدولة.. وكما اعترفت الدولة بسلطتهم على العامة وعقائدها، فلقد اصفوا هم الآخرون طابعا دينيا على سلطة الحكام، الأمر الذي انتهى بالسلطان العثماني الى أن يصبح في رأيهم «ظل الله على الأرض، وسيفه المشرع على رقاب العباد!.. الخ..»

وهو طابع في السلطة، ليس له في السلفية الاسلامية النقية سند ولا نصيب، ووجدنا نفرا من فقهاء الاسلام السني — وتلك مفارقة — يتبنون، دوما وعي، رأى الشيعة، الذين انفردوا من بين فرق الاسلام بجعل السلطة في الدولة دينية، وربط تصرفات الحاكم بأمر السماء، وتحريرها من رقابة الأمة وسلطان الناس!.. ويزيد هذه المفارقة شذوذا أنهم قد ساروا بذلك خلف الأسم التي سبقت الاسلام، والتي حذرنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من تقليدها فيما انحرفت اليه.. فاليهود جعلوا: الملك نبوة.. وأروبا المسيحية جعلت قياصرتها وأباطرتها يحكمون بالحق الالهي، فلما أضنى هذا النفر من الفقهاء طابع السلطة الدينية على سلطان آل عثمان، وضعوا أنفسهم حيث حذرنا رسول الله أن نكون، عندما قال: «لتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر

ودّراغا بذراع، حتى لو دخلوا جحر صَبَّ لتبعتموهم!» (١٢٩).. وهكذا قام هذا الحلف غير المكتوب، وتبادل هؤلاء الفقهاء مع سلطان الدولة توزيع السلطة الدينية، فغدوا رقباء على العقائد والايان وأصبح السلطان ذا سلطة دينية تجعل عصيانه كفرا وخروجاً على الدين!..

وكانت هذه القضية واحدة من التحديات التي تصدى لها تيار التجديد العقلاني بالنقد والمعارضة والتفنيد..

فلقد عرض اعلام هذا التيار — وخاصة الامام محمد عبده — تلك القضية باعتبارها نبأ غريباً عن روح الاسلام وأصوله... فهي عقيدة من عقائد الكاثوليكية الأوروبية، جعلتها كنيسة أصلاً من أصول المسيحية، وأتاحت بذلك للوك أوربا أن يجمعوا السلطين «المدنية السياسية» و«الدينية» في نظام واحد وشخص واحد.. ذلك هو المنشأ الفكري لها، والمناخ السياسي الذي طبقت فيه، أما الاسلام فانه منها براء، بل انه يرفضها ويعادىها ويهدمها من الأساس.

يقول الامام محمد عبده: في أوربا العصور الوسطى «كانت السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية في نظام واحد، لا فصل فيه بين السلطين. وهذا الضرب من النظام هو الذي يعمل البابوات وعماهم من رجال «الكشلكة» على أرجاعه، لأنه أصل من أصول الديانة المسيحية عندهم، وان كان ينكر وحدة السلطة الدينية والمدنية من لا يدين بدينهم!» (١٣٠).

وهو يرد على الذين يزعمون أن الاسلام يشبه المسيحية في هذا، ويقول أن زعمهم هذا ضلال منهم، لأن الاسلام لا يعرف هذه السلطة

(١٢٩) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وابن حنبل.

(١٣٠) (الاعمال الكاملة للامام محمد عبده) ج ٢ ص ١٧٥.

الدينية، فيقول: «انهم يبهمون – (يضلون) – فيما يرمون به الاسلام من أنه يحتم قرن السلطتين في شخص واحد.. وقد علمت أنه ليس في الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه...» (١٣١)

واذا كان الاسلام يرفض وجود سلطة دينية للسلطان، فانه يرفض الكهنوت الذي عرفه المسيحية الكاثوليكية الأوربية لرجال الدين، وهو الذي جعل لهم سلطانا على العقائد وقرارا في الايمان ورقابة على ضمائر الناس.. والاستاذ الامام يميز ما بين «الوعظ والارشاد» الذي يعترف به الاسلام، لا لفئة محددة، بل لعامة أمته، وبين السلطة الدينية التي عرفتها أوربا لكنيستها، والتي سار بعض المسلمين في طريق تقليدها، فيقول: «انه ليس في الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة الى الخير والتنفير عن الشر، وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم.. ولمن يقولون: ان لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني، أفلا يكون للقاضي؟ أو للمفتي؟ أو شيخ الاسلام؟؟....»

أقول: ان الاسلام لم يجعل هؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الاحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية» – ويمضى الأستاذ الامام فيجعل من هذه القاعدة الفكرية «أصل من أجل اصول الاسلام» التي عرضها وهويقارن بينها وبين اصول المسيحية، فيقول «أصل من اصول الاسلام» – وما أجله من أصل – قلب السلطة الدينية، والاتيان عليها من أساسها. هدم الاسلام بناء تلك السلطة، ومحا أثرها، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم! (١٣٢).. قالايان بالله

(١٣١) المصدر السابق. ج ٣ ص ٢٨٨، ٢٨٦.

(١٣٢) المصدر السابق. ج ٣ ص ٢٨٥.

يرفع النفوس عن الخضوع والاستعباد للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينية.. أو السلطة الدنيوية.. (١٣٣)

ونفس الموقف نجده عند الكواكبي، فهو قد صارع السلطان العثماني الذي كان يحكم قبضة استبداده على رقاب الأمة بما أضفى على سلطته من طابع ديني، يحرم عصيانه، ويجرم الخروج عليه تجرماً دينياً.. ولقد ذكر الشيخ رشيد رضا صراحة أن الكواكبي كان داعية «الفصل بين السلطين الدينية والسياسية» (١٣٤). وفي الفصل الذي عقده في كتابه (طبائع الاستبداد) للحديث عن الاستبداد والدين أعلن صراحة، «أنه لا يوجد في الإسلامية نفوذ ديني مطلقاً في غير مسائل إقامة شعائر الدين» (١٣٥)

هكذا واجه تيار التجديد العقلاني المستنير ذلك التحدي، تحدى السلطة الدينية، التي تسربت عقيدتها إلى الفكر الإسلامي من الديانات والتجارب غير الإسلامية، والتي كانت قسمة من قسّمات فكرية العصور الوسطى، في الدولة ودوائر الصوفية والفقهاء..

ومع العروبة.. ضد التيار اللاقومي:

وعلى الرغم من أن أعلام هذا التيار التجديدي قد فكروا وعملوا تحت رايات دعوة (الجامعة الإسلامية) وحركتها، إلا أنهم قد كانوا من أبرز طلائع الفكر القومي والفكرة العربية في ذلك التاريخ.. ومن الأمور المؤسفة أن هذه القسمة من قسّمات هذا التيار التجديدي قد طمست أو شوهت في دوائر فكرية كثيرة ولدى عديد من المثقفين العرب والمسلمين، وذلك بسبب الخلط بين «المضامين المتعددة» لشعار الجامعة الإسلامية، والظن بأنه قد

(١٣٣) المصدر السابق. ج٤ ص ٤٣٠.

(١٣٤) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٤٨.

(١٣٥) المصدر السابق. ص ١٤٨.

كان لهذا الشعار مضمون وحيد.. والا فمن يستطيع أن يزعم أن شعار الجامعة الإسلامية لدى السلطان العثماني عبد الحميد (١٨٤٢ - ١٩١٨م) وهو الذي أراد منه أن يكون سبيلا لحكام القبضة العثمانية على الأمة العربية، بطمس قسماتها القومية المميزة لها، والاستعاضة عنها برباط الملة والدين فقط.. من الذي يستطيع أن يقول أن مضمون هذا الشعار عند السلطان عبد الحميد كان هو ذات مضمون عند الكواكبي الذي كانت حياته وأفكاره كتيبة مناضلة ضد العثمانيين وسلطانهم؟! وكذلك الأفغاني، الذي ينسب إليه البعض ريادة الفكر القومي بمصر والشرق؟ (١٣٦).. وأيضا ابن باديس الذي كانت العروبة والقومية العربية طوق النجاة الذي سبح به ضد تيار «الفرنسة»، فأنقذ به شعبه من السحق القومي الاستعماري؟!..

على أن نظرة فاحصة في الفكر القومي لأعلام هذا التيار تظهر بجلاء مكان القسمة القومية العربية في بنائه الفكري العملاق.. صحيح أن الأفغاني، رائد هذا التيار - وهو عربي النسب والفكر والولاء - كان من أبرز من دعا إلى شعار «الجامعة الإسلامية»، وعمل على انهاض الشرق بأجمعه، من أقصى المغرب إلى حدود الصين، وكان حديثه عاما لكل أبناء الشرق، وللمسلمين خاصة، باعتبارهم الأغلبية الساحقة للمواطن التي يزحف عليها الاستعمار الأوربي في ذلك التاريخ.. لكن الأفغاني بعد تجارب وجولات، وبالذات بعد أن حابت آماله في انهاض الدولة العثمانية لتكون سدا منيعاً يحول بين ولاياتها العربية وبين السقوط بيد الاسعمار الغربي، وعندما تأكدت لديه أن هذه السلطنة غير العربية قد غدت ثغرة كبرى أتاحت الفرصة واسعة للتسلل الاستعماري إلى أقطار العرب وبلاد الإسلام.. بعد هذه التجارب المقتعة زاد اهتمام الأفغاني بدور العرب في

(١٣٦) (حاضر العالم الإسلامي) جـ ٤ ص ٩٢.

النهضة واليقظة التي يبشر بها، وعليهم علق آماله، ولهم أبصر مكانا متميزا بين الأقسام الذين يدينون بالاسلام، ومن هنا كان لمضمون شعار الجامعة الاسلامية عنده تميز في هذا الشأن، وكان لفكره بعد قومي عربي، وللتيار الذي قاده قسمة قومية يؤكد فيها الفكر ويرزها النشاط والنضال..

فهو قد أدرك أن الدولة العثمانية قد فشلت في تطوير الأقاليم العربية التي حكمتها، لأن الأتراك، كقوم وجنس، لا يحسنون التعمين وهم ليسوا كالعرب الذين أجادوا، كقوم وجنس، النهوض بهذه المهمة فيما فتحو من أقاليم.. بل وأدرك أن هؤلاء العثمانيين قد غدوا عقبة أمام نهضة هذه الأقاليم وعمرانها.. «فالدولة العثمانية.. بقيت سدا منيعا للأمم المحكومة منها، يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة ومجارات الأمم الراقية في مدنيّتها وعلومها وصنائعها».. (١٣٧)

وهو، رغم شعار الجامعة الاسلامية الذي رفعه، يركز على السمات القومية، وفي مقدمتها قسمة اللغة — (اللسان) — فيرى فيها المعيار الذي يميز أمة عن أمة، والرباط الذي يحفظ وحدة الأمة، والسبيل الذي يعيد هذه الوحدة اذا أصابها ما يصيب الأمم المجزأة والمقهورة من تفتت وشتات.. وأيضا فهو يؤكد أن العرب أمة، بصرف النظر عن المذاهب والأديان التي تربط بين بعضهم وبعض الأمم الأخرى، والتي تميز بين بعضهم والبعض الآخر، فيقول معلنا هذه الحقيقة القومية، ومؤكدا على بدايتها! : «انه لا سبيل الى تمييز أمة عن أخرى الا بلغتها.. والأمة العربية هي «عرب» قبل كل دين ومذهب. وهذا الأمر من الواضح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه الى دليل أو برهان! (١٣٨).

(١٣٧) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٣٢، ٢٣٣.

(١٣٨) المصدر السابق. ص ٢٣٧.

ثم يفصل الحديث عن دور اللغة القومية، وكيف أن لها تأثيراً معنوياً، بجانب تأثيرها المادي ودورها كأداة تخاطب. فهي وعاء الحضارة، ومظهر الوحدة النفسية، وقبلة الفخر والولاء، ثم هي الرباط الذي يشد الوحدة القومية ويدعمها، ويسر عودة هذه الوحدة في حال التمزق والتجزئة، ذلك أن «اللسان — (اللغة) — غير تأثيره المادي، تأثير معنوي.. ويكفى أنه من أكبر الجوامع التي تجمع الشتات، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر. فكتم رأينا دولا اغتصب ملكها الغنى، فحافظت على لسانها محكومة، وترقبت الفرص، ونهضت بعد دهر، فردت ملكها، وجمعت من ينطق بلسانها إليها، والعامل في ذلك إنما هو اللسان قبل سواه، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم، ونسوا مجدهم، وظلّوا في الاستعباد الى ما شاء الله!..» (١٣٩)

بل اننا اذا تأملنا أكثر فأكثر قيمة اللغة — (اللسان) — ودورها، عندما تحدث الأفغاني عن اللغة العربية، لوجدناه قد جعلها القاعدة الأولى التي يقوم عليها البناء القومي للقومية العربية.. وذلك، عنده، هو دور اللغة في أية قومية من القوميات.. فلغة آداب.. وهذه الآداب هي التي تثمر ملكة أخلاق الأمة وعاداتها وتقاليدها، وما نسميه «تكوينها النفسي»، واذا ما حفظت الأمة خصائصها هذه وحافظت عليها امتلكت قوميتها وعصبيتها.. «فلكل لسان آداب، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق، وعلى حفظها تكون العصبية..» (١٤٠)

ولم تكن العروبة عرقاً أو عصبية جنسية عند الأفغاني، بل لقد خاض صراعاً فكرياً ضد المستشرق الفرنسي ارنست رينان Renan (١٨٢٣ — ١٨٩٢م) عندما انطلق من منطلق عرقي فزعم أن «أكثر الفلاسفة

(١٣٩) المصدر السابق. ص ٢٢١.

(١٤٠) المصدر السابق. ص ٢٢٤.

الذين شهدتهم القرون الأولى للإسلام كانوا، كتابي السياسيين، من أصل حراني أو أندلسي أو فارس أو من نصارى الشام.. وليسوا عربا..» خاض الأفغاني صراعا فكريا ضد هذا المفهوم العرقي، وخلص - وهو العربي نسبا وفكرا - الى أن كل الذين تعربوا، وأصبحت العربية لغتهم، والولاء لحضارتها موقفهم، هم عرب، بصرف النظر عن الأصول العرقية لأسلافهم والمواريث الحضارية لأجدادهم، فلفت نظر رينان الى «أن الحرانيين كانوا عربا، وأن اللغة العربية كانت الى ما قبل الاسلام بعدة قرون لغة الحرانيين، وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة، وهي الصابئة ليس معناه أنهم لم ينتموا الى الجنسية - (القومية) - العربية.. وأن العرب لما احتلوا أسبانيا ظلوا عربا.. وقد كانت أكثرية نصارى الشام عربا غسانيين، اهتموا بالنصرانية.. أما ابن ماجة وابن رشد وابن طفيل، فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندي بدعوى انهم لم يولدوا في جزيرة العرب، وخصوصا اذا اعتبرنا أنه لا سبيل الى تمييز أمة عن أخرى الا بلغتها..»

ومضى الأفغاني، في رده على رينان، فكشف عن خطر تسويد المعيار العرقي في الحديث عن تكوين الأمم والقوميات، ونبه على أن رينان يستخدم هذا المعيار ضدنا ولا يستخدمه عندما يقيم واقعهم القومي، فتساءل قائلا: «.. ثم ماذا يكون لو قصرنا نظرا على الأصل الذي ينتمي اليه العظيم، ولم نأبه للنفوذ الذي سيطر عليه، والتشجيع الذي لقيه من الأمة التي عاش فيها؟!.. لو فعلنا ذلك لقلنا: ان نابليون لا ينتمي الى فرنسا! ولما صبح لألمانيا أو انجلترا أن تدعى كلتاها الحق في العلماء الذين استوطنوها بعد أن رحل أصولهم اليها من بلدان أخرى!...» (١٤١)

(١٤١) المصدر السابق. ص ٢٠٩.

فالعروبة، اذن، ليست عرقاً ولا نسباً، وانما هي لغة وآداب
وتكوين نفسي وحضارة وولاء، وذلك كله أمر مكتسب وليس وقفاً على
التوارث المحكوم بنقاء الدم الجاري من الأصول الى الفروع، وهذا الأمر
المكتسب هو الذي نعبر عنه بالتعرب والتعريب والاستعراب.. وهو ما حدث
لأبناء الشعوب التي قطنت في الوطن العربي، من المحيط الى الخليج، بعد
عصر الفتوحات، سواء منهم من دان بالاسلام او بقى على دينه القديم «فلقد
سارعوا، جميعاً، عن طيب خاطر وارتياح عظيم الى التعرب.. فصر، بينما هي
هرقلية رومانية.. أصبحت في قليل من الزمن اسلامية في الأغلب،
عربية بالصورة المطلقة في كافة مميزات العرب، وهكذا القول في سوريا
والعراق... وأصبح المسلم أو المسيحي أو اليهودي، في مصر والشام
والعراق، يحافظ كل منهم قبل كل شيء على نسبه العربية، فيقول:
«عربي»، ثم يذكر جامعته الدينية.. والأغرب أن التركي والجرکسي
والأرناؤوطي، وغيرهم من العناصر، يستعرب متى وجد أو سكن في
بلاد العرب بأقرب الأوقات، ويمتزج في المجموع، حتى تخال أنه «عربي
فح»! (١٤٢) ..

فالرباط القومي ليس هو العرق، والجامعة القومية ليست هي
الدين، وانما هي العروبة، بالمعنى الحضاري، تلك التي جمعت أقواماً مختلفي
الأجناس والأديان فصهرتهم في بوتقتها حتى صاروا جميعاً عرباً في القومية
والحضارة والولاء، وأصبحوا «عرباً أقحاحاً» لاسبيل لتمييز من كانت أصوله
غير عربية عن أولئك الذين ينتسبون الى قحطان وعدنان!..

وعند ابن باديس نجد تأصيلاً لهذا المعيار الحضاري، غير العرقي،

(١٤٢) المصدر السابق. ص ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٣.

للقومية والعروبة، فهو ينفي امكانية وحدة الدم ونقاءه في أمة من الأمم، ويخلص الى أن اللغة والحضارة التي تتخذ منها وعاءها هي المعيار في تشكل الأمم وتمايزها، فيقول «تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد، فليس الذي يكون الأمة ويربط أجزائها ويوجد شعورها ويوجهها الى غاياتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد. ولو وضعت أخوين شقيقين، يتكلم كل واحد منهما بلسان، وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر، وتباين قصد، وتباين تفكير، ثم وضعت شاميا وجزائريا مثلاً، ينطقان باللسان العربي، ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب في ذلك كله، لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمة..»

ومضى ابن باديس فيكشف عن اصالة هذا المعيار في تراث العرب القومي، وكيف كانت له السيادة منذ بداية تبلور قوميتهم وأمتهم بعد ظهور الاسلام ونشأة دولتهم العربية التي أقامها الرسول، عليه الصلاة والسلام، يوم أن اتخذ المسلمون هذا المعيار الحضاري، غير العرقي، بديلاً عن عصبية الجاهلية العرقية، فيورد الحديث الذي رواه ابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ - ١١٠٥ - ١١٧٦ م) في كتابه (تاريخ بغداد) عن مالك الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: «جاء قيس بن مطاطية الى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي، فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل - (يعني النبي) - فما بال هذا - (يعني سلمان وصهيب وبلال)؟ ما يدعوهم الى نصره وهم ليسوا عرباً مثل قومه؟!..»

فقام اليه معاذ بن جبل، فأخذ بتلايية - (ما على نحره من الشيا) - ثم أتى النبي فأخبره بمقالته، فقام النبي مغضباً يحجر رداءه، لما

أعجله من الغضب، حتى أتى المسجد، ثم نادى: «الصلاة جامعة»، ليجتمع الناس، وقال: أيها الناس، الرب واحد، والأب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي.»

وهو يلفت النظر الى دور «لغة» القرآن الأدبية في بلورة وحدة للعرب القومية على عصر البعثة، يوم كانت لهجات العرب اللغوية تجسد تمزق هويتهم القومية، فنزول القرآن، لغويا، على «سبعة أحرف»، أي قراءته التي راعت جميع لهجاتهم، وأيضا ما اشتهر عن النبي، قائد وحدتهم القومية، من مخاطبتهم بلهجاتهم، ونطقه بالكلمات التي اختصت بها لهجات غير لهجة قريش، كل ذلك قد جعل لغة القرآن ولغة رسوله سبيلا للتوحيد القومي، كما كانت مضامينها سبيلا لتوحيد الألوهية والدين «الأمر الذي أشعرهم بوحدتهم، بالتفافهم حول مركز واحد، ينتهون كلهم اليه، ويشتركون فيه».. (١٤٢)

ولم يكن حديث هذا التيار التجديدي عن العروبة، بمعيارها الحضاري، غير العرقي، حديثا نظريا، ولا هو بالاجتهاد الفكري الذي يقف عند حدود النظريات، وإنما كان سلاحا في معركة، فلقد استهدف هذا التيار نهضة الشرق وإيقاظه، في مرحلة عجز فيها الأتراك عن قيادة المنطقة في التصدي للزحف الاستعماري الغربي، ومن ثم كان الحديث عن العروبة اعلانا عن أن القيادة في هذا الصراع يجب أن تكون للعرب، وأن قوميتهم، التي يشبت هذا الفكر تميزها، يجب أن يكون لها الدور البارز في قيادة المنطقة ضد الغزاة.. فلهذا الفكر القومي اذن بعد سياسي، يتمثل في اداة الخلافة التركية والسلطنة العثمانية، وهدف قومي، يرمي الى عقد ألوية

(١٤٢) ابن باديس [كتاب آثار ابن باديس] ج ٤ ص ١٩، ٢٠. اعداد وتصنيف عمار الطالبي.

طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨م.

القيادة في التجديد واليقظة الحديثة للأمة العربية، كما كان الحال في عصر الازدهار الذي سبق عصور التخلف والانحطاط.. فكما كانت الدولة العربية الأولى والتبلور القومي العربي الأول السبيل لانقاذ الشرق من الغزو البيزنطي بعد أن عجز الفرس عن قيادة المنطقة، بل أصبحوا ثغرة تسهل غزو الغزاة، فكذلك الحال الآن، لا بد من وضع مقاليد الشرق بيد العرب، بعد أن عجز العثمانيون عن القيادة، وغدو ثغرة زحف منها الأوربيون المستعمرون. انما المهمة التاريخية للأمة العربية، والمضمون التحرري للعروبة والقومية العربية..

والعداء للأتراك لم يكن على أساس عنصري عرقي، فهم مسلمون، ولفترة ما كانت دولتهم سدا أمام التهام الغرب للشرق، لكن الأتراك قد شذوا عن سياق الدول التي حكمت ولايات عربية، عندما رفضوا أن يتعربوا، وآثروا التمسك باللغة التركية، وهي لغة لا حضارة لها، اذا ما كانت المقارنة بينها وبين كنوز العرب وتراث لغتهم، بل لقد أمعنوا في المخالفة والشذوذ الى الحد الذي خيل اليهم فيه أن بالامكان «تترك» العرب وتغيير هويتهم القومية، ومن هذه المخالفة والمغايرة جاء الصراع العربي - التركي، وكانت احدى الثغرات التي تسلل منها الاستعمار.

فإيماننا من هذا التيار بالعروبة، وبتفرد أمتها بحق القيادة في المنطقة، واختصاصها بالصلاحية لهذه المهمة، وانطلاقا من هذا الايمان كان هجوم هذا التيار على رفض الأتراك «للتعرب» كما تعربت قبلهم «دول» كثيرة حكمت أقاليم من هذه البلاد.

ولقد كان الأفغانى رائدا في الاهتمام الكبير بهذه القضية الكبرى. عرضها على السلطان عبد الحميد، وحاول معه فيها، وحكى له أن هذا الرأى

— «تعرب الدولة العثمانية» — كان من رأى السلطان محمد الفاتح «١٤٢٩ م — ١٤٨١ م» والسلطان سليم «١٤٦٧ — ١٥٢٠ م». لكن السلطان عبد الحميد رفض مشورة الأفغانى، فسجل الرجل موقفه الفكرى فى صفحات كثيرة، قال فيها : «.. لقد اهل الأتراك أمرا عظيما .. وهو اتخاذ اللسان العربى لسانا للدولة ولو أن الدولة العثمانية اتخذت اللسان العربى لسانا رسميا، وسعت لتعريب الأتراك لكانت فى أمنع قوة .. ولكنها فعلت العكس، اذ فكرت بتريك العرب، وما أسفها سياسة وأسقمه من رأى؟! انها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين النعرة القومية، وزال داعى النفور والانقسام، وصاروا أمة عربية، بكل ما فى اللسان من معنى، وفى الدين الاسلامى من عدل، وفى سيرة أفاضل العرب من اخلاق، وفى مكارمهم من عادات، لكن، مع الأسف، كان عدم قبول فكرة تعميم اللسان العربى خطأ بينا .. لو انصف الاتراك أنفسهم، وأخذوا بالحزم، واستعربوا، واتخذوا بغداد عاصمة لهم .. فمن كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة؟ أو أعز جانباً؟ أو أمنع قوة؟! .. اننى أحزن وأتأثر كلما افكرت بما ارتكبه من الخطأ فى عدم قبولهم اللسان العربى، لسان الدين الطاهر والأدب الباهر، وديوان الفضائل والمفاخر، باللسان التركى!! .. ذلك اللسان الذى لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية لكان أفقر لسان على وجه الأرض، ولعجز عن القيام بحاجات أمة بدوية، ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسنه لما رأينا لىأتراك شعرا يقرأ أو بياناً يترجم عن جنان، وهو فى حاله هذه اذا وزن مع لسان من الألسنة الحية تجده قد خف وزنا وانحط معنى .. فكيف يعقل تترك العرب، وقد تبارت الأعاجم فى الاستعراب وتسابقت، وكان اللسان العربى لغير المسلمين، ولم يزل، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر، فالأمة العربية هى «عرب» قبل كل دين ومذهب .. لقد كاشفت السلطان عبد الحميد فى أكثر هذه المواضع فى خلوات عديده، ولكنه كان

قليل الاحتفاء بكل ما قلته له .. فحولت وجهي عن ما لا يمكن الى ما يمكن، وفيه وقاية ما بقي من أملاك السلطنة العثمانية في غير أوروبا..» (١٤٤)

فالأفغانى، من منطلق الايمان بالعروبة، وحمية السيادة والقيادة في المنطقة للأمة العربية الواحدة، سعى الى تعريب الدولة العثمانية، فلما رفض السلطان، واستمرت المحاولة لتريك العرب، انصرف الأفغانى الى انقاذ الممكن، وهو وطن العرب، الرازح تحت السيطرة العثمانية، انقاذه من الزحف الاستعماري الأوربي.

والكواكبي يواصل نقد الأتراك وادانتهم لشنوذهم عن «التعرب والاستعراب» فهم قد شنذوا عن سيرة الدول السابقة، التي «تخلقت بأخلاق الرعية، وتكلمت بلغتها، فأخلاقها فجنسيتها .. كآل بويه، والسلجوقيين، والأيوبيين، والجراكسة، وآل محمد علي، فانهم ما لبثوا أن استعربوا وتخلقوا بأخلاق العرب، وامتزجوا بهم، وصاروا جزءا منهم .. ولم يشذ في هذا الباب غير المغول الأتراك، أى العثمانيين، فانهم بالعكس يفتخرون بمحافظتهم على غيرية رعاياهم لهم!..»

ويظهر الكواكبي تلك المفارقة .. فلقد أخذ نفر من الأتراك العثمانيين يقلدون الأوروبيين «يتفرنسون ويتألمنون!» على حين ظلوا على «شديد بغضهم للعرب» حتى لقد جعلوا من اهانة العروبة والعرب حكما وأمثالا في لغتهم التركية! .

يخصي الكواكبي تلك «الأدلة اللغوية» على العداء «التركي — التعربي»، ثم يعقب بأن العرب قد بادلوهم عداء بعداء .. لكن الرجل

(١٤٤) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٢٢٤، ٢٣٦، ٢٣٧.

يتحفظ فينبه على أن منطلق العرب في العداء للأتراك، ليس عرقياً، فهم يحترمون «أحرار الترك» الملتهمين غيرة تقتضي احترام مزياتهم! (١٤٥) ... فالعداء إنما هو لأولئك الذين تسلطوا بالاستبداد على الأمة العربية، وخيل اليهم الوهم امكانية «تتريك» هذه الأمة العريقة والقومية المتميزة، حتى لقد تشبهوا بالأوروبيين، مفتخرين بذلك، وغايروا العرب، مفتخرين بذلك أيضا ... فاستحقوا من العرب أن يبادلوهم عداء بعداء!..

أما الأمر الذي انصرف اليه الأفغانى، كى يحققه، ورآه ممكناً، بعد أن عجز عن اقناع السلطان العثمانى بتعريب الدولة وهو اتقاذ الولايات العثمانية غيرالأوربية، أى الولايات العربية، فلقد كان، بكلمات أخرى، وفى الممارسة والتطبيق، ما سعى اليه هذا التيار التجديدى من اقامة الخلافة العربية على انقاض خلافة آل عثمان، ومن بناء الدولة العربية التى تصبح مركز جذب للأمة العربية، والتى تبدأ مسيرة هذه الأمة نحو امتلاك أمرها بيدها كى تعود الى قيادة المنطقة والتصدى لمد الاستعمار.

ولقد كان الخطر الداخلى — القومى — الأعظم الذى هدد تسلط الأتراك العثمانيين على الأمة العربية، فى القرن التاسع عشر، هو الانجاز الذى صنعتة مصر، تحت حكم محمد على، عندما حققت، بأسلوب العصر ووسائله، وحدة مصر والسودان وشواطئ البحر الأحمر العربية مع المشرق العربى والحجاز. فكادت الدولة العربية الكبرى أن تنقذ وتستخلص الأمة العربية من تسلط العثمانيين، وأوشكت — وهذا هام جداً — أن تجدد شباب المنطقة، وتسد بالعصرية والنهضة تلك الثغرات التى أتاحها العثمانيون وحرصها الغرب كى يتسلل منها استعمارها الى بلادنا .

(١٤٥) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٣١.

ولقد ظل انجاز مصر هذا شبيهاً يقض مضاجع السلطان العثماني حتى بعد أن نجح، متحالفاً مع الغرب الاستعماري، في إزالة هذا الخطر عن سلطته بتنفيذ معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م ..

ومن هنا فلقد كان الحديث عن دور مصر القيادي في المنطقة، وعن مكانها الرائد بالنسبة لجاراتها، وعن أن حكومتها الوطنية العصرية هي المؤهلة، ذاتياً وباتفاق جيرانها، لكي تكون المركز للكيان العربي الذي يضم الولايات والأقاليم من حولها.. كان هذا الحديث حديثاً قومياً عربياً يعني البعث والاحياء لذلك الخطر الذي يخشاه العثمانيون .. ولقد كان الأفغاني، وكذلك الكواكبي، في مقدمة أصحاب هذا الحديث!..

فالتيار التجليدي الذي قاده الأفغاني كان عقلانياً ومستنيراً .. ومن ثم فإن بذوره الفكرية كانت وثيقة الصلة بأكثر البيئات العربية تقدماً وتحضراً يومئذ، وهي مصر، كما أن هذه البيئة وتربتها كانت أكثر المواطن صلاحاً لاستنبات هذه البذور ونموها ومن هنا كان مكان مصر الخاص والرائد في فكر الأفغاني وتجربته .. فهو قد تحدث عن تجربة نهضتها في ظل حكم محمد علي حديثاً ينم عن عبقرية في رصد الأبعاد الحقيقية لتطور المجتمعات، حتى لقد اعتبر محمد علي نابغة الدهر وأعجوبته، بل نابغة العصور والاجيال، الذي «حمل تحت عمامته دماغاً فعالاً، وعقلاً جوالاً، وبصراً نافذاً، وفكراً ثاقباً، ودأباً صائباً».. أما مصر عنده فهي : «أهم مواقع الشرق، وروح الممالك الإسلامية، وباب الحرمين الشريفين..» وهي، عنده، «أحب بلاد الله الى، وقضيتها أهم قضايا المسألة الشرقية، وهي مفتاحها .. ولقد كان التأمل في سيرها — قبل التدخل الاستعماري فيها — يحكم حكماً عاماً لم يكن بعيداً من الواقع : أن عاصمتها لا بد أن تصير، في وقت قريب أو بعيد، كرمسى مدنية لأعظم الممالك الشرقية، بل كان

هذا الأمر أمراً مقررًا في نفوس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها، وهو
أهلهم الفرد كلما ألم بهم خطب أو عرض خطر..» (١٤٦)

ولقد أنشأ الأفغانى، بمصر، في سبعينات القرن التاسع عشر التيار
الشعبى فى المعارضة والتتوير، وأقام (الحزب الوطنى الحزب) كى يحول دون
الاستعمار الأوروبى والتهام مصر، فلما سارت الأحداث مسيرتها، واحتل
الانجليز مصر، أقام (جمعية العروة الوثقى) السرية التى كان تحرير مصر من
أهم وأول أسباب قيامها، ومن أكثر المهام التى ناضلت فى سبيلها .. وعن
هذه الحقيقة يعبر الأفغانى بقوله: «ان كشف — (اجلاء) — الانكليز عن
مصر هو غلق لكل بلية مهيأة فى المسألة الشرقية» .. ثم يمضى فيقسم قائلاً:
« وعزة الحق ! ان ما كتبه عن حق مصر، وما استنهضت من الهمم، وما
حذرت به من سوء المصير، لو تلى على الأموات لتحركت أرواحهم، ولرفرفت
على أجدادهم، ولأحدثت لأعدائهم أحلاماً مزعجة، ومراء مريعة ! .. كاد
أن لا يخلو سطر من (العروة الوثقى) الا وفيه ذكر مصر، ولا براهين وأدلة على
ظلم الانكليز الا ويتمثل فى مصر، ولا خوف من شر مستطير .. الا وتراه فى
التهاون فى أمر مصر، وذلك لأن جرح مصر كان ولم يزل له فى جسم الأمة
الاسلامية والعرب عموماً نغولا — (فسادا) — وبعروقتها اتصالاً! » (١٤٧)

ولقد ظلت للأفغانى — حتى أواخر حياته، وحتى بعد أن مكن
الانجليز لأقدامهم فى مصر ظلت له آمال فى قيادة مصر للنهضة العربية، حتى
لقد اتهم، وهو بالآستانة، بالاتفاق مع الخديوى عباس حلمى الثانى للعمل
على اقامة خلافة عربية، من حول الخديوى، تستنقذ الولايات العربية من
السلطنة العثمانية — وهو مشروع محمد على القديم — ولما اضطر الرجل للدفاع

(١٤٦) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ٢٣٦، ٤٦٦، ٤٨٧، ٢٤٠، ٤٦٧.

(١٤٧) المصدر السابق - ص ٢٤١.

عن موقفه ودفع الاتهام عن نفسه، لم يتخل عن إيمانه بأن هذا هو دور مصر ومكانها، فقط علق نجاح هذا المشروع على تحريرها من الاستعمار الانجليزي، وعلى اجتماع صفات القيادة التي تمتلكها مصر، فيمن يقود هذه الخلافة وتعهده له بيعتها، وهي الصفات التي حددها بأنها «همة محمد علي، ومضاء ابراهيم باشا، وسخاء الخديوي اسماعيل (١٤٨) ... فاذا اجتمعت تلك الصفات «للخليفة» قامت الخلافة العربية التي تضم مصر والمشرق، لأن «سوريا الجغرافية — (الشام الكبير) — لن حكم مصر بمنزلة اللازم والمألوم، وهي مفتاح العراق (١٤٩) » كما قال جمال الدين.

وهذا الهدف الذي فكر فيه الأفغانى، هدف الخلافة العربية التي تتخذ مصر مكانا لها، قالوا ان الكواكبي قد سعى اليه بعد هجرته من حلب الى مصر، وأنه قد نسق جهوده في سبيله مع طموحات الخديوي عباس... (١٥٠) أما قبل هذه الهجرة فأن فكرة الكواكبي عن الخلافة في عصره يحددها فكر (جمعية ام القرى) المدون بسجل مذكرات مؤتمرها، المنشورة بكتاب (أم القرى) .. وهو فكر حاسم في ادانة السلطنة العثمانية، والدعوة الى استقلال العرب عنها، والى اقامة «خلافة عربية» في الحجاز، حيث البيئة العربية التي لم تفسدها انحرافات الدولة العثمانية عن نهج الاسلام وأخلاقيات العروبة .. على أن تقتصر الفعالية السياسية والسلطان السياسى لهذه الخلافة على اقليم الحجاز فقط، وأن تكون لها هيئة استشارية تمثل الشعوب الاسلامية، عربية وغير عربية .. فهي رمز للخلافة العربية الكبرى، وبديل عن خلافة العثمانيين، يسقط اغتصابهم لهذا المنصب، ومنازة تغرى العرب، مستقبلا، بتحويلها من حكومة شبيهة بدولة الفاتيكان

(١٤٨) المصدر السابق. ص ٢٤٧.

(١٤٩) المصدر السابق . ص ٧٢، ٧٣.

(١٥٠) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٣٠.

الى سلطة حقيقية توحد العرب تحت سلطان خليفة عربى واحد... انها دعوة لتحقيق الاستقلال للولايات العربية العثمانية، ولا تاحة فرصة زمنية تحكم فيها هذه الولايات وتنهض في ظل الاستقلال، مع وجود «الخلافة النموذج والرمز» لعلها تكون مصدر جذب واغراء يجمع العرب ثانية، وبعد دور الاستقلال، الى هذا الطريق! ... ومن الطريف ان الكواكبي قد جعل هذه الخلافة العربية «جمهوريّة»، لأنه قد جعل اختيار الخليفة من اختصاص الهيئة الشورية، فهي التي تنتخبه كل ثلاثة أعوام! (١٥١)

أما الأفغانى، فانه بعد استقرار الاحتلال الانجليزى فى مصر - وقبل ولاية الخديوى عباس الثانى، صاحب الظموحات الوطنية والمساعى التي تعدت حدود مصر - نراه يسعى، عمليا، لاقامة الخلافة العربية فى شبه الجزيرة (نجد والقطيف واليمن)، حيث كانت هذه المنطقة لا تزال بعيدة عن نفوذ العرب الاستعماري، ومعزل عن السيطرة الكاملة للأتراك العثمانيين .. ولقد غادر الأفغانى أوروبا سنة ١٨٨٦ م الى هذه المنطقة ساعيا لتحقيق هذا الهدف، ولكن استدعاء الشاه الايراني ناصر الدين (١٨٣١ - ١٨٩٦ م) له صرفه عن استكمال مساعاه (١٥٢) وبعد سنوات رأينا الامام محمد عبده يؤيد هذا المشروع، نظريا وفكريا، وعندما يتحدث الى المستشرق «بلنت» الذى كان يسعى فى هذا السبيل .. ولكنه يرفضه عمليا، لأنه سيؤدى الى قيام صراع بين العرب وبين الأتراك لن يستفيد منه الا الغرب الاستعماري، وبعبارة «ان العرب فى نجد أهل لهذا الاستقلال، ولكن الترك لا يمكنونهم منه، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عند العرب، فاذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم، حتى اذا وهنت قوة

(١٥١) المصدر السابق. ص ٣٦٤ - ٣٦٩.

(١٥٢) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) ج ١ ص ٧٣٥.

الفريقين وثبت دول أوربية الواقفة لهما بالمرصاد، فاستولوا على الفريقين أو على أضعفهما، وهذان الشعبان هما أقوى شعوب الاسلام، فتكون العاقبة اضعاف الاسلام وقطع الطريق على حياته!» (١٥٣) .. فكأنه كان يقرأ صفحة الغيب التي ظهرت بعد ما يزيد على عشر سنوات من وفاته، خلال أحداث الثورة العربية، ومعاهدة «سيكس — بيكو» وما حدث من الغرب الاستعماري للمشرق العربي!..

ثم رأينا الأفغانى يسعى لتحقيق «حرية اليمن واستقلالها، تمهيدا لاستقلال البلاد العربية» عن السلطنة العثمانية، فيؤيد منهج صحيفه (البيان) التى أصدرها محمد باشا المخزومى (١٨٦٨ — ١٩٣٠م) لهذا الغرض سنة ١٨٩٣ م وهى التى اتهمت من العثمانيين بهذه التهمة، وألغيت هذه الأسباب .. (١٥٤)

ونحن عندما نقرأ فى الآثار الفكرية لأعلام هذا التيار التجديدى ما كتبوه عن العرب والحضارة العربية والتراث العربى وعبقورية الأمة العربية، نضع يدينا على الحقيقة التى تقول : ان ايمان هذا التيار بالعروبة، والقومية العربية، والخلافة العربية — (التي ترمز لوحدة العربية) — لم يكن انطلاقا من ضرورات عصرية وسياسية مقطوعة الصلة بماضى هذه الامة العريق، وانما كان اجتهادا للعصر، يستجيب لضروراته، وفى ذات الوقت مدعوما بالصفحات المشرقة فى تراث هذه الأمة وحضاراتها..

فحتى الاسلام، وهو دين الانسانية، عربا وغير عرب، نرى محمد عبده يقول عنه انه : دين عربى، وأن الحضارة العربية المزدهرة قد جعلت —

(١٥٣) (الأعمال الكاملة) لجمال الدين الأفغانى) ص ٧٦.

(١٥٤) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٧٦.

يوم ازدهرت — العلم عربيا كذلك .. فامتلك العرب: الدين، والعلم،
واللغة .. جميعها كان عربيا..!

وكتابات الأفغانى تفيض بالحديث عن عبقرية العرب وسبقهم فى
العلم والفنون .. «فلقد وصل جهابذتهم فى كل فن الى الغايه منه» .. فالجبر
وضعه أبو السمع (قبل أكثر من ألف عام) والجاذبية — قبل اسحق نيوتن
Newton (١٦٤٢ — ١٧٢٧م) — وضعها ابوبكر بن بشرون، فى
القرن الثالث الهجرى، وسمّاها : « قوة حاسة قابضة، منعكسة الى المركز،
الأرض! » .. وهو الذى اكتشف، أيضا، «التحليل والتركيب» وسماه
«الحل والعقد»، قبل «لافوازيه» Lavoisier (١٧٤٣ —
١٧٩٤م) .. وكذلك اكتشف الفوسفور واستحضره، واستحضر الأوكسجين
من حجر المغنيسيا ... وجابر بن حيان (٢٠٠ هـ - ٨١٥ م) هو الذى اكتشف
حامض الآزوت وأبوبكر الرازى (٢٤٦ — ٣٢٩ هـ - ٨٦٠ — ٩٤٠ م) هو
مكتشف حامض الكبريت .. وهكذا كانوا الأساتذة السابقين فى مختلف
الميادين! (١٥٥)

وحتى عندما يكون الحديث عن الاصلاح الدينى للاسلام ،
والمتدينون به عرب وغير عرب... وبصدد التخطيط لهضة الشرق دينيا، نجد
أعلام هذا التيار ينيطون بالعرب القيادة والريادة فى هذا الميدان، ففي رأى
الكواكبي أن «العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية، بل
الكلمة الشرقية . العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا فى الدين
وقدوة للمسلمين ، حيث كان بقية الأمم قد اتبعوا هديهم ابتداء، فلا
يأنفوا عن اتباعهم أخيرا..» (١٥٦)

(١٥٥) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٢١٢ - ٢١٤.

(١٥٦) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٣٥٨.

ومن الأمور التي تؤكد وعى هذا التيار التجديدي بالطابع القومى والمعنى القومى عند استخدام أعلامه لمصطلح «العرب» أنهم قد تحدثوا عن الأمة العربية باعتبارها «قوما» يتدين أهلها بأكثر من دين، ويتمذهبون بأكثر من مذهب .. ولقد سبقت اشارتنا الى آراء الأفغانى عن أن العرب أمة قبل كل دين ومذهب، وعن كون اللغة العربية جامعة تجمع العرب جميعا، وأنها قد غدت بالنسبة للغرب غير المسلمين جامعة من أفخر الجوامع التي تجمعهم بالعرب المسلمين، منذ أن تعربوا حتى الان.. ولقد تحدث الكواكبي أيضا عن العرب غير المسلمين «الناطقين بالضاد» فدعاهم الى الحذر من شرك الغرب الاستعماري الذي يريد جرهم بجعل الدين الذي يزعم انه رباط بينه وبينهم، لأن «هذا الغرب مادي، لا دين له غير الكسب، فما تظاهره مع بعضنا بالاخاء الديني الا مخادعة وكذبا! ..» ثم انه يدعو الى دولة قومية، وليس الى دولة دينية اسلامية، فهو، كغيره من أعلام هذا التيار، وكما سبق وأشرنا الى مذهبه، ينكر وجود سلطة دينية أو كهنوتية في الاسلام، ويدعو - كما قال الشيخ رشيد رضا - الى فصل السلطين .. والدولة القومية التي دعا اليها تحدث عنها بصدد كشفه لأصابع الاستعمار الانجليزى والفرنسي في الفتنة الطائفية التي نشبت بين الدروز والموارنة سنة ١٨٦٠ م، فأشار على العرب جميعا، مسلمين وغير مسلمين، باختيار طريق «الاتحاد الوطنى دون الدينى، والوفاق الجنسى - (القومى) - دون المذهبي» كما فعلت أمم أوربية وأمريكية سبقتنا على هذا الطريق .. ونادى قومه جميعا : «تعالوا .. ندبر شأننا، نتفاهم بالفصحاء، ونتراحم بالاخاء، ونتواس في الضراء ، ونتساوى في السراء ندبر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط .. نجتمع على كلمة سواء، ألا وهى : فلتحي الأمة، فليحي الوطن، فلتحيا طلقاء أعزاء!» (١٥٧)

(١٥٧) المصدر السابق . ص ٢٠٧-٢٠٨.

هكذا فكر أعلام هذا التيار التجديدي، على جبهة العروبة، بمصر
والمشرق العربي .. أما في المغرب، فلقد صنعوا انجازا قوميا عربيا، كان
تحقيقه أغرب من الخيال وأقرب الى المحال!..

كانت فرنسا قد شرعت في احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ م وأخذت
في تثبيت استعمارها لها بعد القضاء على المقاومة الجزائرية سنة ١٨٤٨ م —
لكنه لم يكن احتلالا كغيره من أشكال الاحتلال... ولم يكن استعمارا
كالذي شهدته أو تشهده كثير من البلاد في آسيا وأفريقيا .. فهو لم يقف
عند اغتصاب المستعمر «للدولة» و «الادارة» و «الحرية» و «الأرض»
و «الثروة» التي كانت للجزائريين على أرض وطنهم، وإنما ذهب المستعمر
الفرنسي فأراد سحق الهوية القومية للشعب، والغاء عروبته، لأنها رمز
مغايرتهم للفرنسيين، وهو قد أراد أن يكونوا فرنسيين، حتى يكون وطنهم،
ليس مجرد مستعمرة فرنسية، وإنما الامتداد الأفريقي للوطن الفرنسي عبر
البحر المتوسط!.. كما ذهب هذا المستعمر، أيضا، الى مسح الاسلام، حتى
يزيل طابعه القومي العربي في البيئة العربية الجزائرية، وينزع منه عوامل
المقاومة، فيتحول من شوكة يخلق الاستعمار الى قيد يثقل خطو المناضلين في
سبيل الحرية والاستقلال!..

وإذا شئنا كلمات تحدد هدف الاستعمار هذا، ومن ثم تحدد المهمة
القومية العربية التي نهض بها هذا التيار التجديدي بالمغرب، عندما تصدى
لمقاومة هذا الهدف الاستعماري، وجدنا في كلمات مفكري الاستعمار
الفرنسي الكثير .. فالكاتب الصهيوني ماكس نوردويقول : «ان شمال
أفريقيا سيكون مهجرا ومستوطنا للشعوب الأوربية.. وأما سكانه الأصليون
فسيدفعون نحو الجنوب، الى الصحراء الكبرى، الى أن يفنوا هناك!»..
والمفكر الفرنسي الاستعماري سايسيمون دي يقول عن الجزائري يوم احتلالها

: «إن هذه المملكة الجزائرية ستصبح بلداً جديداً، يتدفق إليه الفائض من السكان ومن نشاط أبناء فرنسا!..» (١٥٨)

وحتى يتحقق هذا الاستعمار الاستيطاني للمستعمرين الفرنسيين بالجزائر العربية كان السعي الحثيث والعنيف لسحق قومية الجزائريين العربية ونزع هويتهم المتميزة، وهى : العروبة، والاسلام، طالما كان هذا الاسلام محافظاً على عروبتهم ومغايرتهم للفرنسيين .. فسعوا الى «فرنسة» الجزائريين لغوياً، بإحلال الفرنسية محل العربية، وكتبوا بأحد التقارير التي وضعت سنة ١٨٤٨م: «أن الجزائر لن تصبح فرنسية إلا عندما، تصبح لغتنا الفرنسية لغة قومية فيها. والعمل الجبار الذي يتحتم علينا انجازه هو السعي وراء جعل الفرنسية اللغة الدارجة بين الأهالى الى أن تقوم مقام العربية، وهذا هو السبيل لاستمالتهم اليها، وتمثيلهم بنا، وادماجهم فينا، وجعلهم فرنسيين!..» (١٥٩). ولقد صنع الفرنسيون كل ما خطر ببال مستعمر استيطاني غاشم لتحقيق هذه الأهداف .. فأغلقوا، يوم احتلوا البلاد، أكثر من ألف مدرسة. وبعد قرن وربع القرن من احتلالهم - (سنة ١٩٥٤ م عندما أعلنت الثورة المسلحة ضدهم) - كانت الأمية في الجزائر ٩٩٪ وغير الأميين كانت لغتهم الفرنسية، وكانوا مسجئاء في فكر العدو ولغته، فهم بالمقياس القومى أميون!.. أما الذين كانوا يقرؤن العربية فلم يزد تعدادهم عن ٢٠٠٠٠٠ تعلمت أغلبيتهم الساحقة فى المدارس التى أقامها التيار القومى العربى لحركة التجديد والاصلاح، كى يقاوم بها أهداف الاستعمار!..

ولقد اتى على الاستعمار الفرنسى، بالجزائر،- حين من الدهر خيل

(١٥٨) د . محمد عمارة (الأمة العربية وقضية التوحيد) ص ٩٤، ٩٥. طبعه القاهرة سنة ١٩٦٦م.

(١٥٩) المرجع السابق. ص ٩٦، ٩٧.

اليه أنه قد نجح في سحق الهوية القومية للجزائر العربية، فرجال الدين الرسميون قد أصبحوا جواسيس لادارته، وشيوخ الطرق الصوفية يشيرون بين المريدين أن قوته وهيمنته هي مظهر القدرة الالهية والارادة الربانية!. واللغة العربية قد غدت، من المحرمات!.. والطابع العربي للاسلام اصبح محظورا! ونفر غير قليل من الجزائريين يندمجون في فرنسا الأم! حتى لقد أعلن الكاردينال «لافيجري» في احتفالهم بمرور قرن على بدء احتلالهم لها: «أن عهد الهلال في الجزائر قد غبر، وأن عهد الصليب قد بدأ، وأنه سيستمر الى الأبد.. وان علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيا الانجيل!» (١٦٠) .. وبالطبع فان الكاردينال كان يكذب على المسيحية وعلى الانجيل، فلو كان الأمر أمر مسيحية فقيم كان العداء للعروبة، وفي العرب مسيحيون لغتهم العربية؟! .. ان العداء لعروبة الجزائر، وللإسلام اذا كان سندا للعروبة ومظهرا للتمايز القومي عن المستعمر، يجعل المعركة وطنية وقومية، ويخرج الدين من اطارها، اللهم الا اذا كان — كما حدث بالفعل — وسيلة قهر وأداة استعمار!..

وفي مواجهة هذا المخطط الذي عرف طريقه للممارسة والتطبيق، اختلج ضمير الجزائر العربية المسلمة فأفرز الجناح المغربي لتيار التجديد العقلاني القومي المستنير الذي تمثل في الشيخ عبد الحميد بن باديس، ورهطه (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) ..

وعندما كان الاستعمار الفرنسي يحتفل بمرور قرن على استعمار الجزائر، وينذع كلمات الكاردينال «لافيجري» وأمثاله، كتب ابن باديس: «ان الجزائر بلد عربي .. ومن ذا الذي يفكر في انكار هذه الحقيقة؟! وهي أرض اسلامية أصيلة، وذلك حق أيضا! ومهما يكن من

(١٦٠) د . محمود قاسم (الامام ابن باديس) ص ١١٠ طبعة دار المعارف. القاهرة.

ارادة امبريالية، في الماضي والحاضر، ومهما يكن من قوة حراياها، فان هذه الظاهرة التاريخية صادقة تمام الصدق» (١٦١) ..

وفي مواجهة المثقفين الجزائريين الذين اقتادتهم ثقافتهم الفرنسية الى حظيرة القومية الفرنسية — أو هكذا ظنوا — فاندمجوا في «فرنسا الأم» وكتب ممثلهم فرحات عباس سنة ١٩٣٧م منكرا وجود «وطن جزائري» .. في مواجهة هؤلاء كتب ابن باديس مؤكدا على وجود هذا الوطن، وعلى تميزه القومى عن فرنسا، بل ومؤكدا أن هذه الحقيقة الموضوعية لا تؤثر فيها الارادة الانسانية أى تأثير! :» .. ان هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا، ولا يمكن ان تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تصبح فرنسا، ولو أرادت! .. بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها، ولا تريد أن تندمج .. ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة» (١٦٢)

وكما أبصر الاستعمار الفرنسى أن سبيله الى تحويل الجزائر العربية الى جزء من فرنسا هو سحق قوميتها عن طريق احلال لغته محل عربيتها .. أبصر ابن باديس أن اللغة العربية هي الخط الذى يشد الجزائر الى ماضيها العربى، وهى السبيل الى جزائر المستقبل العربية، والمستقلة .. فكتب يقول : «اننا نعتصم بالحق، ونعتصم بالتواضع عندما نقول: اننا شعب خالد، ككثير من الشعوب، ولكننا ننصف التاريخ اذا قلنا : اننا سبقناها، بهدايتنا، وسبقنا هذه الأمم فى نشر الحق أيام كانت فى ظلمات الجهل، ذلك ما كنا فيه وما سنعود اليه، وانما علينا أن نعرف تاريخنا، ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة فى هذا الوجود، ولا رابطة تربط

(١٦١) المرجع السابق ص ١٣.

(١٦٢) (مسلمون ثوار) ص ٢٥٣، ٢٥٤.

ماضيها المجيد بماضينا الأعز والمستقبل السعيد الا هذا الحبل المتين :
اللغة العربية، لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية
المحروسة، انها وحدها الرابطة بيننا وبين ماضيها وأجدادنا الغر الميامين،
تربط أرواحهم بأرواحنا.. وهى وحدها اللسان الذى نعزبه، وهى
الترجمان عما فى القلب من عقائد وما فى العقل من أفكار وما فى النفس
من آلام وآمال!..(١٦٣)

فما قرأناه للأفغانى عن دور اللغة، كرباط للأمة، وأثرها فى جمع
شعوب القومية التى تصارع أعداءها كي تتوحد بعد الشتات، نجده هنا عند
ابن باديس .. الذى كتبه وبشر به، ثم وضعه موضع التطبيق يوم أنشأت
(جمعية العلماء) ١٧٠ مدرسة يتعلم فيها الجزائريون العربية، بعد أن حرمت
فيها عدا هذه المدارس، وذلك غير «الكتاتيب» التى طورتها حتى اقتربت بها
من المدارس الابتدائية .. و يوم نجحت هذه الجمعية فى جمع كلمة التيارات
السياسية الجزائرية سنة (١٩٣٨ م) على المطالبة باللغة العربية، فكتبوا
للحكومة الفرنسية : « ان مسألة اللغة العربية والتعليم الدينى بالقطر الجزائرى
ليست مسألة حزب خاص أو جمعية معينة، بل هى مسألة الأمة جمعاء ..
تختلف فى كل شئ وتتفق فيها »! (١٦٤) ... و يوم نجحت، بقيادة ابن
باديس فى اعداد الجيل الذى احيا الوطن الجزائرى فى نفوس ابنائه، ومهد
الطريق لجيل آت لينتزع هذا الوطن، بالثورة، من قبضة الاستعمار! ... حتى
لقد كتب الفرنسيون عن هذا الجهد التجديدى القومى فقالوا : « ان مجدى
فكرة الوطن الجزائرى هم هؤلاء الذين أسسوا جمعية العلماء ... لقد ربطوا
محاولتهم لتجديد الاسلام وللقضاء على الطرق الصوفية بمحاولة تجديد الوطن

(١٦٣) المرجع السابق. ص ٢٦١.

(١٦٤) المرجع السابق. ص ٢٦٠، ٢٦١.

الجزائري.. وهم ينتظرون أن يتقدم رجال آخرون لاستعمال السلاح الذي يصفقونه الآن بأيديهم ويعدونه!» (١٦٥) ..

نعم .. لقد أصبحت العروبة والقومية العربية، على يد ابن باديس و (جمعية العلماء)، طوق نجاة الجزائر من هاوية السحق القومي .. والسلاح الذي حقق به هذا التيار التجديدي نصرا خيل للكثيرين أن تحقيقه قد غدا أحد المستحيلات! ..

هكذا، وعلى هذا النحو واجه التيار التجديدي العقلاني المستير ذلك التحدي القومي سواء ذلك الذي أراد أصحابه تترك العرب كني يصبحوا اتراكا مسلمين، أو فرنستهم حتى يصبحوا مسلمين فرنسيين! ..

ومع الديمقراطية.. ضد الاستبداد:

وكان الانفراد بالسلطة والاستبداد بأمر الأمة واحدا من التحديات التي طبعت الحياة السياسية لعصورنا الوسطى، «الملوكية — العثمانية» على وجه الخصوص .. فحديث القرآن الكريم والسنة عن الشورى لم يتجسد في مؤسسات نيابية دستورية كما هو الغاية منه، وكلمات الفقهاء المسلمين عن «اهل الحل والعقد» لم تعد صحفات مصادر الفقه الاسلامي .. ولقد أثمر هذا الاستبداد، الذي طال عليه الأمد، سمات سلبية طبعت شخصية الأمة، وجعلت جماهيرها تقاوم الاستبداد، عندما عجزت عن تحديه بالفعل الايجابي، باللامبالاة، وإدارة الظاهر لأموال الحياة العامة، وهي مقاومة من نوع: أضعف درجات الايمان الضعيف! ..

حدث ذلك في أمة لها في الشورى تراث نظري .. ولها في اختيار الخلفاء وبعض أشكال الشورى القريبة من النظامية تراث عملي .. ثم ان

(١٦٥) المرجع السابق. ص ٢٢٥، ٢٥٦.

أوروبا، بعد الثورة الفرنسية، أخذت تطور تراثها اليوناني القديم في الديمقراطية حتى وصلت الى جعل السلطة التشريعية والرقابية للمجالس النيابية المنتخبة من عامة الناس .. فنظر التيار التجديدي ، بسلفيته، الى تراثه، وبعقلانيته واستنارته الى الحضارة الأوربية، فوجد أن احلال سلطة الشعب محل سلطة الفرد، من خلال المجالس النيابية المنتخبة هو التصدي لذلك التحدي المتخلف من بقايا العصور الوسطى .. فليس التقدم المادى الكمي هو ما ينقص الشرق، فلقد حققت مصر منه الكثير على عهد محمد علي واسماعيل، لكن سلطة الفرد ظلت تبدد عائد هذا التقدم فيما لا يفيد، وتحرمه من طاقات الأمة الخلاقة المبدعة، وتحجب مشورة الامة البناءة عن أن تدعم اخلاص الحاكم وقدراته .. بل لقل ظلت سلطة الفرد، وما سمي بنمط الحكم الشرقى! ثغرة حرص الغرب الاستعماري على بقائها غير مسدودة، حتى تظل فرصته سانحة لاغتصاب استقلال البلاد، بدليل هجمته على الثورة العربية عندما نهضت لتسد هذه الثغرة بمجلس النواب والدستور.

ولقد كان الحاكم الفرد يتذرع بقصور الشعب وعجزه عن ممارسة حريته والقبض على ناصية مصيره، وكان ذلك هو منطق الخديوى توفيق (١٨٥٢ - ١٨٩٢م) لكن الأفغانى حدثه بأن فى الشعب الأكفاء كما أن فيه الخاملين، وكما تكون نظرة الحاكم للأمة وتقديره لها تكون نظرتها اليه وتقديرها له! .. «ان شعب مصر، كسائر الشعوب، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين افراده، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل . فبالنظر الذى تنظرون به - باسمو الأمير - الى الشعب المصرى وأفراده ينظرون به اليكم! ..» ثم يمضى الأفغانى ناصحا الخديوى «بالاسراع فى اشراك الأمة فى حكم البلاد، عن طريق الشورى، بالأمر باجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ الأحكام ..» ويحدد الأفغانى أن الحكم النيابى

الذى يريد له ليس «شكلا» بلا مضمون، وأن المجلس النيابى ان لم يكن نابعا من الأمة، منتخبا بارادتها الحرة المختارة، فلن يؤتى الثمرة المرجوة منه، وتحديد هذا يأتي في حديثه عن وضع مصرفيقول : « ان حكم مصر بأهلها انما اعنى به :- الاشتراك الأهل بالحكم الدستورى الصحيح ... ذلك أن القوة النيابية لأى أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى الا اذا كانت من نفس الأمة، وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية، فأعلموا أن حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على أرادة من أحدثها..» (١٦٦)

ولقد أفاض الكواكبي في تحليل ظاهرة الاستبداد، والبحث عن اسبابها الحقيقية، ووصف علاج الأمة من أمراضها .. فذكر أن الحكماء أجمعوا، بعد البحث الطويل العميق، على أن الاستبداد، وانفلات سلطة الفرد من حدود القانون وقيود الدستور « هو المنشأ الأصيل لكل شقاء بنى حواء! » (١٦٧) .. ونفى ما يزعمه البعض من أن علة أمراض الشرق وأسبابها هي « فقد التمسك بالدين » ، لأن العلة عنده هي « فقد الحرية السياسية » ، بل لقد رأى « أن التهاون في الدين ناشئ من الاستبداد ؟ » (١٦٨) .. وكشف عن سر ما شاع ويشيع دائما من القاء تبعة التخلف والانحطاط على « التهاون في أمور الدين » ، وقال ان تلك سمة من سمات « الأمم المنحطة » ، يظن نفر من بنينا أن التدين، بمعنى كثرة العبادة والنسك، سيثمر صلاح الحال، على حين أن هذا الجانب من جوانب الدين لن يزعج الاستبداد ولن يقض مضاجع المستبدين، بل ربما أعانهم هذا الجانب من الدين على احكام

(١٦٦) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٤٧٣ ، ٤٧٧ .

(١٦٧) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(١٦٨) المصدر السابق. ص ١٨٤ .

قبضة استبدادهم، ومن ثم ابقاء الأمة في انحطاطها الى ما شاء الله ... يقول الكواكبي : « .. والأمر الغريب أن كل الأمم المنحطة، من جميع الأديان، تحصر ببلية انحطاطها السياسى فى تهاونها بأمر دينها، ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية الا بالتمسك بعروة دينها تمسكا مكينا، ويريدون بالدين العبادة . ولنعم الاعتقاد لو كان يفيد شيئا، ولكنه لا يفيد ابدا... ذلك أن الدين بذرجيد لا شبهة فيه، فاذا صادف مغرسا طيبا نبت ونما، وان صادف أرضا قاحلة مات وفات، أو أرضا مغراقا هاف ولم يثمر. وما هى أرض الدين؟! أرض الدين هى تلك الأمة التى أعمى الاستبداد بصرها وبصيرتها، وأفسد أخلاقها ودينها، حتى صارت لا تعرف للدين معنى غير العبادة والنسك، اللذين زيادتهما عن حدهما المشروع أضر على الأمة من نقصهما، كما هو مشاهد فى المتنسكين! ».. (١٦٩)

وبعد أن يكشف الكواكبي ان الاستبداد هو علة انحطاط الشرق، يضع أيدينا عن ركائزه ودعائمه التى تحكم من قبضته على رقاب الأمة وتضمن له قوة واستمرارا .. فهو ليس شهوة شخصية فقط، ولا غفلة جماهيرية فحسب، وانما هناك ركائزيعين كشفها المجاهدون فى سبيل الحرية على اقتلاعها .. فالارهاب ركيزة للاستبداد .. والقوة المسلحة وخاصة اذا كانت مملوكية أو مقطوعة الصلة، قوميا، بالأمة - ركيزة ثانية .. والقوة المالية وأصحابها ركيزة ثالثة.. ورجال الدين الذين ربطوا أنفسهم بنظام المستبد ركيزة رابعة .. والقوة الأجنبية التى تناصر المستبد ركيزة خامسة .. والعادة والألفة التى تجعل الناس يستقيمون للاستبداد ركيزة سادسة! .. كل هذه ركائز للاستبداد يستند اليها .. وبعبارة الكواكبي : « .. ان الاستبداد محفوف بأنواع القوات التى منها : قوة الارهاب، وقوة الجند، لاسيما اذا كان

(١٦٩) المصدر السابق . ص ١٨٧ .

الجنند غريب الجنس، وقوة المال، وقوة الألفة على القسوة، وقوة رجال الدين، وقوة أهل الثروات، وقوة الأنصار من الأجانب !».. (١٧٠)

وبعد أن يصور الكواكبي واقع الاستبداد الشرقى، ويكشف ركائزه وأسبابه، ودوره فى انحطاط الأمة، يحدث العرب عن ماضيهم وتراثهم، فيظهر لهم مدى التناقض بين حياتهم الأولى وميراث أجدادهم الأقدمين وبين انحطاطهم فى درك الاستبداد الذى يعيشون فيه تحت نير آل عثمان .. «فالعرب أعرق الأمم فى أصول الشورى فى الشؤون العمومية.. والاسلامية مؤسسة على أصول الادارة الديمقراطية، أى العمومية» .. ومن ثم، وبعد هذه المقارنة، «فان سبب الفتور- (الانحطاط) - هو تحول نوع السياسة من نيابية اشتراكية، أى ديمقراطية تماما .. الى سلطة شبه مطلقة!» (١٧١) .. تلك هى المفارقة، وذلك هو سبب الفتور!...

واذا كان فى ركون العرب الى الاستبداد، واستنامتهم له ما يناقض سيرة سلفهم الصالح، وما يخالف تعاليم دينهم الحنيف، فان فيه أيضا ما أصبح شاذا عن الحياة الحرة والنظم الديمقراطية التى دفعت بالنهضة الأوربية الى الأمام .. فالحضارة الأوربية قد أطلقت لأمتها « حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات - مستثنية القذف فقط - ورأت ان تحمل مضرة الفوضى فى ذلك خير من التحديد، لأنه لا ضامن للحكام أن يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد، يخنقون بها علوتهم الطبيعية : الحرية! (١٧٢) .. وهذه الأمم خصصت منها جماعات باسم (مجالس نواب) وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية السياسية .. فانا لا نفعل مثلهم، وقرآنا الكريم يحثنا على ذلك فيقول لنا : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير

(١٧٠) المصدر السابق. ص ٢٢٥.

(١٧١) المصدر السابق ص ٣٥٧، ١٤٧، ٢٥٠.

(١٧٢) المصدر السابق. ص ١٨١.

ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم
المفلحون(١٧٣)...»(١٧٤)

وهذا المجلس النيابي، النابع من الأمة، كما قال الأفغاني، هو
ماسماه تراثنا في الفقه الاسلامي بأهل الحل والعقد، كما قال الامام محمد
عبد، الذي ذهب الى القول بعصمة هذه الهيئة الدستورية فيما تقرر اذا هي
أجمعت رأيها في القرار(١٧٥) ، لأنها ممثلة الأمة، والأمة لها، في الفكر
الاسلامي، العصمة فيما تجمع عليه، اذ « لا تجتمع أمتي على ضلالة » كما
قال الرسول، عليه الصلاة والسلام..(١٧٦)

ولم تكن الحرية السياسية، في نظر هذا التيار التجديدي، انفلاتا
من مصالح الأمة، بل التزاما بها، ولا كانت تخفقا من الأعباء بل كانت
أمعانا في حمل المزيد من الأعباء القومية.. كانت تحريرا للذات من قيود
الاستبداد، وذلك حتى تزداد عافيتها فتستطيع حمل المزيد من اعباء الأمة
ومسئليات الوطن.. وبعبارات الكواكبي «فان الانسان الحر: مالك لنفسه،
ومملوك لقومه تماما»(١٧٧).. ونحن اذا قسنا حياة الحرية بواقع الاستبداد،
ووضعنا في الاعتبار الثمن الغالي والضريبة العالية التي يدفعها الانسان في
سبيل الحرية، وجدنا الحرية، مع ثمنها الغالي، أنفع، بل و«أرخص» ، من
الاستكانة للاستبداد، وما يصحبه من توهم أننا قد آثرنا السلامة واقتصادنا
في التضحيات ! .. فخسائر الانسان، فردا وأمة، في ظل الاستبداد لا تقاس
بما يقدم في سبيل الحرية من تضحيات، وتعقبها ثمرات تستعصى على العد

(١٧٣) آل عمران : ١٠٤ .

(١٧٤) المصدر السابق ص ١٤٦ .

(١٧٥) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبد) ج ٥ ص ٢٣٨ .

(١٧٦) رواه ابن ماجة .

(١٧٧) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٢١٥ .

والوزن والقياس، ذلك «أن الهرب من الموت موت! وطلب الحياة حياة!.. وان الخوف من التعب تعب! والاقدام على التعب راحة!.. وان الحرية هي شجرة الخلد، وسقيها قطرات من الدم المسفوح! والعبودية هي شجرة الزقوم، وسقيها أنهر من دم الخاليق الخانيق» كما يقول الشيخ عبد الرحمن الكواكبي. (١٨٧).

هكذا واجه هذا التيار التجديدي تحدى الاستبداد بالسلطة والتفرد بأمر الأمة .. وهو التحدى الذى تجسد فى تراث العصور الوسطى وواقع الدولة العثمانية فأدانه، وحاكمه الى تراث العرب الأول فى الحرية، وفكر الاسلامى الأولى فى الشورى والديمقراطية، ثم نظر فى أسرار تفوق الخصم الجديد، أوروبا الاستعمارية، فوجد الحرية والديمقراطية أحد أسرار هذا التفوق، فدعا الأمة الى استلها تراثها فى الحرية والشورى، والاسترشاد بتجربة أوروبا فى الديمقراطية، تصديا لتحدى الاستبداد، وأخذاً بأسباب الانعتاق من قفس الاستعباد العثمانى والاستعمار الأوروبى على السواء!..

وبالثورة الوطنية .. ضد الاستعمار

كأما كان الأفغانى ، رائد هذا التيار التجددى، على موعد مع تلك العاصفة التى اجتاحت بها أوروبا أقطار العرب وديار الاسلام، عاصفة الاستعمار الحديث فقبل ثماني سنوات من ميلاده بدأ احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ م .. وفى نفس عام مولده (١٨٣٨ م) احتلت إنجلترا عدن .. وبعد ثلاثة أعوام من ذلك التاريخ نجحت إنجلترا، متعاونة مع السلطان العثمانى، فى ارغام مصر على التراجع الى داخل حدودها الاقليمية سنة ١٨٤١ م .. وفى سنة ١٨٦٠ م فجر الاستعمار الإنجليزى والفرنسى

(١٧٨) المصدر السابق . ص ٢٠٦ .

الاحداث الطائفية في الشام.. وفي سنة ١٨٦٨ م انتصر التيار المالى
للانجليز في الدولة الأفغانية، وهو التيار الذى حارب به جمال الدين.. وحول
هذه السنوات وفيها كان الزحف الاستعماري دائما وحديثا على كل من
ايران، ومصر، وتونس، وليبيا، والسودان وقبل ذلك كانت الهند قد سقطت
في شرك الانجليز!...

وأمام هذه العاصفة انهارت قلاع، وخارت عزائم، وتسرب اليأس
الى كثير من النفوس ومن ثم فلقد كانت المهمة الاولى لهذا التيار الذى قاده
الأفغانى، على هذه الجبهة، هى زرع الأمل، وتأكيد حتمية النصر، شحذا
للعزائم وتصاعدا بالامكانيات الأولية حتى تصل الى اعصار وطنى يوقف
العاصفة الاستعمارية، ثم يقطع ركائزها من الجذور!...

ولذلك وجدنا الأفغانى يؤذن فى الأرجاء : «لقد أوشك فجر الشرق
أن ينبثق، فقد أدهمت فيه ظلمات الخطوب، وليس بعد هذا الضيق الا
الفرج!.. ان هذا الشرق، وهذا الشرق لا يلبث طويلا حتى يهب من رقاده،
ويمزق ما تقنع وتسربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل، فيأخذ فى
اعداد عدة الأمة الطالبة لاستقلالها المستكرة لأستعبادها! (١٧٩) ..

ولقد كان للاستعمار الانجليزى نصيب الأسد فى تلك الهجمة التى
قامت بها أوروبا ضد العرب والمسلمين، فهم - احتلال أو نفوذ - فى الهند
وأيران والأفغان والعراق وعدن ومصر والسودان، ومن خلال السلطان على
السلطنة العثمانية يتدخلون فى أغلب أرجاء عالم العروبة والاسلام... ولهذا
كان تركيز الأفغانى ضدهم، وعداؤه الشديد لهم، بل ومحاولة الاستفادة من
التناقضات القائمة فى السياسة الدولية لعرقلة مساعيهم فى السيطرة على بلاد
الاسلام.. فهو يقطع بأنه « لا توجد نفس تشعر بوجود الحكومة الانجليزية

(١٧٩) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٢٣، ٢٤٣.

على سطح الارض الا قد مسحها منهم شئ من الضرا!..» ثم يتساءل عن شخصية الاستعماري الانكليزي؟! فاذا باجابته ترسم له صورة تشبه «الكاريكاتور» اللاذع والغنيف.... يتساءل : «من هو الانكليزي؟!» ثم يجيب : «انه ضعيف يسطو على حقوق الاقوياء! .. صوت عال، وشبح بال!..» ولقد صار الانكليز للأثم كاللدودة الوحيدة، على ضعفها، تفسد الصحة وتدمر البنية؟!.. وعندما يصدر مجلة (العروة الوثقى) نجد التصدي لهزيمة الاستعمار الانكليزي في طليعة الأهداف التي تحدت في مناهجها، فهي تستهدف «انهاض الدول الاسلامية من ضعفها، وتنبيهها للقيام على شئونها، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الاقطار الشرقية، وتقليص ظلها عن رؤس الطوائف الاسلامية!.. (١٨٠)»

ولقد وضع الأفغانى، انطلاقا من عقيدة الجهاد الاسلامية، مهمة التصدي للاستعمار الانكليزي في اطار الواجبات والفروض الدينية، فضلا عن الفرائض الوطنية.. ونبه الناس على أن تحاذل السلطة والسلطان العثماني عن قيادتهم في هذا السبيل لن يغير من وجوب ذلك وفرضيته، لأن الشريعة قائمة دائمة لا تحتاج في القيام الى أمر من السلطان.. فتحرير الوطن واجب، وهو على المسلم فرض دين وفرض وطنية، وعلى غير المسلم فرض وطنية ومن ثم فهو فرض على الجميع «فكلنا نعلم أن جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم : السعى في معاكسة سير الانكسار، واقامة الموانع في طريقهم بقدر الطاقة والامكان، قياما بما يوجبه الدين والوطن.. ولا يحتاجون في الانبعاث لهذا العمل الشريف الى أمر سلطاني، فإن الشريعة الالهية والنواميس الطبيعية في كل ملة وكل قطر من أقطار الأرض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته، وتبيح

(١٨٠) المصدر السابق. ص ٢٤، ٢٦، ٣٦٩.

الموت دونه، بل توجهه في مدافعة الباغين عليه!..» (١٨١)

ثم يلتفت الأفغانى الى قومه، فيتساءل تساؤل المنكر والمستكر استناباتهم عن مجاهدة الاستعمار، وهم من هم، وتراثهم شاهد على مجدهم التليد، وهذه هي خطط الاستعمار وأطماعه تستفزهم للانتفاض : «أنرضى ونحن المؤمنون، وقد كانت لنا الكلمة العليا، ان تضرب علينا الذلة والمسكنة؟! وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا الا ولازمة؟! بل كل همة أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا، ويستخلف فيها، بعدنا، أبناء جلده والجالية من أمته؟!» (١٨٢) ..

ومنذ البداية يحدد الأفغانى أن التصدى للاستعمار، المسلح بالقوة، انما يكون بالثورة، فالحرية والاستقلال أعز من أن تحصل عليها الأمم بغير سبيل الثورة على الاستعمار « واذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب، فأهم هذه الاشياء : الحرية والاستقلال .. فهاتان النعمتان انما حصلت وتحصل عليها الأمم اخذا بقوة واقتدار، يحيل - (يخلط) - التراب منها بدماء ابناء الأمة الأمناء، أولى النفوس الأبية والهمم العالية (١٨٣) » .. وهو يكتب في (العروة الوثقى)، داعيا المصريين الى الثورة على الاحتلال الانجليزى، وموجهها حديثا الى الفلاحين المصريين على وجه الخصوص، و طالبا منهم الامتناع عن الاعتراف بالحكومة الاستعمارية، وحجب الأموال والضرائب عن جهازها .. ثم يفند مزاعم المستسلمين الذين يصفون هذه الأعمال الثورية بوصف «الفتنة» ! فيقول : «ان على المصريين ان يقتلوا

(١٨١) المصدر السابق . ص ٥٠١ .

(١٨٢) المصدر السابق . ص ٣٥٦ .

(١٨٣) المصدر السابق . ص ٤٧٨ .

بالأفغانين - (في حرهم للانجليين) - لينتقنوا بلادهم من أيدي اعدائهم
الأجانب .. وليس من الفتنة ان ندعوهم الى طلب الحقوق والدفاع عن
الدين والوطن، كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة ! . وانما ننادى
على صاحب البيت ان يدافع عن حرمة وماله وشرفه، وأن يخرج مخالف
عدوه من أحشائه!، وهى سنة جرى عليها دعاة الحق فى كل أمة .. فعلى
المصريين عموما، وعلى الفلاحين خصوصا ان يجمعوا امرهم على أن
يمنعوا الحكومة (الانكليزية) كل ما تطلب منهم، وأن يرفعوا أصواتهم
بنداء واحد قائلين : لا نطيع الا حاكما وطنيا .. فان فعلوا هذا وجدوا
لهم من الدول أنصارا، بل ومن الجنس الانجليزى نفسه!« (١٨٤) ..

وأهداف هذه الثورة الوطنية، التى نادى بها الأفغانى لم تكن تقف
عند تحقيق مظاهر الاستقلال وأشكاله، ذلك أن الرجل كان يدرك جيدا
المضمون الاقتصادى والهدف المادى من وراء أعلام الاستعمار وجيوشه، بل
لقد أعلن صراحة «ان مصدر الشقاء ومنبع البلاء فى الشرق وممالكه انما
كان من الامتيازات الأجنبية!..» (١٨٥) .. وفى هذا الاطار تأتى معركة
الكبرى والعنيفة والشهيرة ضد الشاه الايرانى ناصر الدين، عندما فرط فى
اقتصاديات الأمة للشركات الانجليزية ينهب ثرواتها بالامتيازات .. ونحن
عندما نقرأ الرسالة الشهيرة التى وجهها الأفغانى الى المجتهد الشيرازى (١٨١٤
- ١٨٩٥م) رأس علماء الشيعة، سنة ١٨٩١ م يحرضه فيها ضد الشاه، نضع
يلنا على وعى الأفغانى الكامل بهذا البعد الأساسى من أبعاد العملية
الاستعمارية .. يقول فيها : « ان الشاه قد باع الأعظم من البلاد الايرانية
ومنافعها : المعادن، والسبل الموصلة اليها، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم

(١٨٤) (العروة الوثقى) ص ٤٥٣، ٤٥٤، طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧م.

(١٨٥) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٢٠٠.

البلاد، والخانات التي تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التي تتشعب
فروعها الى جميع أرجاء المملكة ، وما يحيط بها من البساتين والحقول، نهر
كارون والفنادق التي تنشأ على ضفتيه الى المنبع، وما يستتبعها من الجنائن
والمروج، والجادة من الأهواز الى طهران، وما على أطرافها من العمران
والفنادق والبساتين والحقول، والتبناك وما يتبعه من المراكز ومحلات الحرث
وبيوت المستحفظين والحاملين والبائعين أنى وجدت، وحيث نبت!.. وحكر
العنب للخمر، وما يستلزمه من الخوانيت والمعامل والمصانع في جميع أقطار
البلاد!.. والصابون والشمع والسكر، ولوازمها من المعامل! والبنك! وما
أدراك بالبنك؟! وهو اعطاء الأهالى كلية بيد عدو الاسلام، واسترقاقه لهم،
واستملاكه اياهم، وتسليمهم له بالرياسة والسلطان! (١٨٦)..
ثم ان الخائن البليد أراد أن يرضى العامة بواهى برهانه فقال : ان
هذه معاهدات زمانية ومقاولات وقتية، لا تطول مدتها أزيد من مائه سنة!..
يا لله من هذا البرهان الذى سوله خرق الخائنين؟! .. ان هذا المجرم قد عرض
اقطاع البلاد على الدول ببيع المزداد!.. انه يبيع ممالك الاسلام، ودور محمد
وآله، عليهم السلام، للأجانب .. وهو لا يبيعها الا بقيمة زهيدة ودراهم
بخسة معدودة؟!... (١٨٧)..
على هذا النحو أبصر الأفغانى المضمون الاقتصادى للاستعمار،
ومعنى الامتيازات الأجنبية التي تحصل عليها شركاته فى البلاد الخاضعة
لنفوذه، وكيف أنها اقطاع تلك البلاد لهذه الشركات، ومكان المصارف
والبنوك وسيطرتها المالية الحاكمة فى عملية النهب الاستعمارى .. ولقد
استطاع برسالته هذه ان يحرك غضب المجتهد الشيرازى ضد موقف الشاه ناصر
الدين، فصدرت فتواه الشهيرة التي جعلت الشعب يقاطع الشركات
(١٨٦) الاشارة الى خطر السيطرة الاقتصادية للبنك الذي أنشأته انجلترا بايران «البنك
الشاهنشاهى».

(١٨٧) مجلة (المورد) العراقية ص ٣١٧، ٣١٨ العدد الأول، المجلد السابع سنة ١٩٧٨ م.

الاستعمارية، حتى أفلست واضطرت إلى الرحيل عن البلاد!..
لقد كان الأفغانى عنيقا فى تصديه للهجمة الاستعمارية، لأن هذه
الهجمة كانت عنيفة وكاسحة .. ولقد كان الموقف من الاستعمار معيارا
يحدد به علاقاته بالأفراد والجماعات والحكومات .. فهو يؤيد الدولة أو
الحكومة أو الجماعة اذا كان فى التأييد ما يدعم موقف العرب والمسلمين فى
تصديهم للاستعمار، أما التهاون فى هذه المهمة المقدسة، بالتفريط فى حق
الوطن أو فتح الثغرات للعدو كى ينفذ اليه، أو التهاون مع العدو، فإنها جميعا
خيانة وطنية فى نظر جمال الدين «فلسنا نعى بالخائن من يبيع بلاده
بالنقد، ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد
فهو بخس!) . بل خائن الوطن : من يكون سببا فى خطوة بخطوها العدو
فى أرض الوطن، بل من يدع قدما لعدو تستقر على تراب الوطن وهو
قادر على زلزلتها!.. (١٨٨)

واذا كنا نقف، عادة، ونحن نرصد أعلام الفكر فى هذا التيار
التجديدى عند عدد محدود، اتخذنا من الأفغانى ومحمد عبده، والكواكبي،
وابن باديس النموذج لجماعتهم ... فان عدااء التيار للاستعمار، وتصديه
لتحدياته، قد ضم جميع حركات التحرر الوطنى والثورات الوطنية التى شبت
بالوطن العربى. وبلاد الاسلام منذ الثورة العربية سنة ١٨٨١ م، وحتى
خمسينات القرن العشرين، فى تلك الحقبة، وبكل بلاد المنطقة كانت
كتابات الأفغانى وكلماته، وكانت الأعداد الثمانية عشر التى أصدرها من
(العروة الوثقى) من ابرز المكونات الفكرية والسياسية التى ألهمت القيادات
الوطنية العدااء والتصدى للاستعمار.

وعلى هذا الدرب كان نضال الكواكبي ضد الاستعمار العثمانى فى
المشرق العربى، منذ أن شب فى حلب، وحتى استشهاده فى القاهرة.

(١٨٨) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٥٠٢.

وعلى هذا الدرب أيضا كان نضال ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، عندما صنع الجيل الذى وضع الجزائر على درب العروبة، فهد الطريق للجيل الذى انتزعها، بالثورة، من براثن الاستعمار. بقى أن نقول: ان عدا هذا التيار التجديدى للاستعمار لم تشبه شائبة أى تعصب دينى ضد مسيحية الغرب، التى يتدين بها المستعمرون... فالافغانى الذى يذهب فى العدا للاستعمار الى الحد الذى رأينا، هو الذى يتحدث عن أن دين الله، فى اليهودية والمسيحية والاسلام، واحد، وأن الاختلاف والشقاق انما جاء من تجار الأديان! (١٨٩).. والامام محمد عبده هو الذى تفيض كتاباته بالحديث عن وجوب التعاون بين المسلمين وبين مخالفهم فى الدين فيما لا يضر المسلمين (١٩٠).. والامام ابن باديس يحدد أن النهضة التى تقودها (جمعية العلماء) انما تعادى: المستعمرين والدجالين - (الطرق الصوفية)، والخائنين لوطنهم، من الذين يندمجون فى أمة الاستعمار ويتخللون عن قوميتهم.. وهى فيما عدا هؤلاء الأعداء الثلاثة: برد وسلام على الجميع، نصارى كانوا ام يهودا أم مجوسا!.. ان هذه النهضة «سلام على البشرية، لا يخشاها النصرانى لنصرانيته، ولا اليهودى ليهوديته، ولا المجوسى لمجوسيته، ولكن يجب، والله، أن يخشاها الظالم لظلمه، والدجال لدجله، والخائن لحيانته!» (١٩١).

هكذا واجه هذا التيار التجديدى تحدى الاستعمار الأوروبى الذى زحف على أقطار العروبة وبلاد الاسلام..

وحضارة: جديدة.. ومتميزة:

ومع هذه الهجمة الاستعمارية الحديثة، وضع مرة أخرى ذلك

(١٨٩) المصدر السابق، ص ٢٩٠-٢٩٦.

(١٩٠) (الاعمال الكاملة للامام محمد عبده) ج ١ ص ٧١٠-٧١٥.

(١٩١) (مسلمون ثوان) ص ٢٧٢، ٢٧٣.

الهدف الاستعماري الأوربي القديم.. ذلك الهدف الذي تجلى في كل موجات الغزو التي تعرض لها الشرق العربي خلال هذا الصراع التاريخي الطويل .. فالغرب يريد أن يحرز النصر على الجبهة الحضارية، باحتواء العرب حضاريا، حتى يختم دورات هذا الصراع بانتصار حاسم ونهائي، ومن ثم فهو، وقد عاد مسلحا هذه المرة بالثورة الصناعية وثمارها العديدة من أدوات القوة المتنوعة، وبالحضارة الأوروبية المتألقة والمتفردة على خريطة الكوكب الذي يسكنه الانسان، يريد أن لا تظل حضارته هذه حضارة جاليتها الأوروبية ومستوطنيه فقط في مستعمراته العربية، وذلك كي لا تتكرر قصته القديمة يوم زالت حضارته بزوال الدولة الاستعمارية القديمة، اغريقية وبطلمية وبيزنطية، وسواء أكانت السبل هي القهر بالمسخ القومي والسحق للهوية الحضارية، كما حاول الفرنسيون بالجزائر، أو بالاغراء كما صنعوا هم من خلال مدارس التبشير بغيرها، وكما صنع الانجليز في مستعمراتهم، فان الهدف واحد ومحدد، وهو أن ينسلخ العرب عن هويتهم الحضارية المتميزة، فيصبحون غربا، وتتم عملية الاحتواء التي تكرر النصر للغرب في هذا الصراع الحضاري الطويل .. وفي حديث الكاتب والسياسي الاستعماري الفرنسي جابريل هانوتو عن هذا الصراع الحضاري بين الحضارة الأوروبية، التي يسميها « المدنية الآرية المسيحية »، وبين الحضارة العربية الاسلامية التي تشد العرب، كما يقول الى « الماضي الآسيوي »، يتجلى فرح المستعمرين بما لاح لهم من نجاح هذا المخطط في بعض أقطار الشمال الافريقي - تونس - وهو النجاح الذي تحدث عنه هانوتو بقوله : « يوجد الآن بلد وأرض تنقلت شيئا فشيئا من مكة ومن الماضي الآسيوي ؟! » (١٩٢) .

(١٩٢) (الاسلاء والرد على منتقديه) ص ٢٧ .

وحتى لا يحقق الاستعمار هذا الهدف الأكبر، القديم والجديد، كانت دعوة التيار التجديدي السلفي العقلاني المستير الى تجديد الحضارة العربية الاسلامية، تجديدها وليس التخلي عنها، ولا استبدالها بالحضارة الأوروبية .. ففي الوقت الذي تصدى فيه هذا التيار للتحديات التي مثلت قيود العصور الوسطى على حركة الأمة و يقظتها ونهضتها .. وتصدى للغزوة الاستعمارية الأوروبية، كاحتلال ونهب استعماري، تصدى كذلك لدعاة احلال حضارة الغرب محل حضارتنا العربية الاسلامية، التي لم تكن صورتها يومئذ تغرى بالاستلهاهم أو تبعث على الاحترام!..

ولقد انطلق هذا التيار في دعوته لتجديد حضارتنا المتميزة من عدة منطلقات يجمعها و يربطها خيط واحد..

١ - فنحن أمة عريقة، ولحضارتنا مزاج متميز وطابع خاص - كما اشرنا الى ذلك في فصل سابق من فصول هذا الكتاب - وتميز هذه الحضارة بالموقف المتوازن والموازن بين المتناقضات، وتمثيلها «الضمير» في مواجهة حضارات تميل عادة الى طرف واحد من طرفي الظاهرة .. يعطى حضارتنا ميزة، ويعصمها من مخاطر وأخطار يشكو منها الآخرون..

٢ - ان للمزاج الحضاري المتميز علاقة عضوية بتكوين الأمة، ومقومات هذا التكوين، واذا كانت الأمة، كما هو حال أمتنا، ذات عراقة حضارية وتراث غني ودور بارز في تاريخ الانسانية وصراعاتها الحضارية، فليس من السهل تجريدها من ثوبها الحضاري، والقذف بها تحت عباءة الآخرين!.. بل قد يستحيل ذلك حتى لو أراد نفر من بنينا، مخلصين كانوا أم مخادعين!.. وبعبارات ابن باديس عن «الغيرية الحضارية» للجزائر عن فرنسا: «ان هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا، ولا يمكن ان تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تصبح فرنسا ولو أرادت!..»..

٣. - ان الدعوة الى «حضارة عربية اسلامية متميزة» لا يعنى تقديس الماضى، ولا العودة اليه كى نعيش فى نظمته وقوابله، بل ولا الأخذ بجميع أصوله .. وانما الذى تعنيه هذه الدعوة هى الأخذ «ببعض الأصول الثابتة» ، التى تمثل القسّمات المميزة للشخصية الحضارية العربية الاسلامية .. وهذه الأصول التى تحمل صلاحيات معاصرة، وتمثل قوة دفع وطاقة تحريك للأمة نحو التقدم، انما تمثل، بما لها من قداسة فى نفوس الأمة، مناخا ملائما يسرع بحركة الأمة كى تنخرط فى عملية التجديد واليقظة والتطور، على عكس حالها اذا ما دعيت الى غمط جديد وغريب ليس لأصوله فى ضميرها قداسة أو احترام .. ففارق بين ان تقتنع صفوة مستتيرة بنمط حضارى معين، فتتخبط فى العمل لسيادته وتسويده، وبين أن تدخل الأمة عصر تجديدها وتجديدها مسوقة بقيم وأفكار وموارىث لها فى نفوسها وضمائرها هالات المقدسات .. فنطاق التجديد، فى الحالة الأولى، محدود، ومن السهل على الاعداء أن يقتلعوه، أما فى الحالة الثانية، فان السعى فيه سيكون سريعا وحشيّا، ونطاق وانتشاره سيكون عاما وشاملا، واقتلاع الاعداء لآثاره سيكون مستحيلا ..

اذن، فالمطلوب هو البدء من بعض أصول الماضى، الصالحة، والتى استلها الأوروبيون عندما استعانوا بترائثنا فى نهضتهم، مع وعينا بأنها هى المدخل والسبيل الذى يعين على التجديد والتحديث والتطوير .. وبعبارة الأفغانى فى المنهاج الذى تتحدد (للعروة الوثقى) «فان الظهور فى مظهر القوة، لدفع الكوارث، انما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم، وهى ما تمسكت به أعز دولة أوروبية ..» (١٩٣)

(١٩٣) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٥٣٣.

وهذه الأصول، كما يقول محمد عبده، هي التي ستجعل الأرض، إنسانيا وشعبيا، ممهدة للاصلاح .. فالناس سيصفون للمؤذن، و يلبون خداه لأنه يؤذن فيهم من داخل سور مدينتهم، كما يقال، وليس من خارج السور! .. ولدعوته هذه الى التجديد والاصلاح في قلوبهم وعقولهم قواعد ومقدمات لها عندهم احترام شديد .. وبعبارة : «فهذه سبيل لمريد الاصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها، فان اتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارضة عن صبغة الدين يحوجه الى انشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شئ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا . واذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما يبناه، وهو حاضر لديهم، والعناء في ارجاعهم اليه أخف من احداث مالا امام له لهم به، فلم العدول عنه الى غيره؟!» .. (١٩٤)

والتمسك ببعض الاصول الحضارية، وسلوك سبيل الاسلام والاستعانة به في تحريك الأمة الى التجديد الحضارى، لا يعنى، فى رأى أعلام هذا التيار، الرجوع للعيش فى الماضى، فلقد عابوا على السلفيه التقليديه المحافظه ذلك، كما سبق وأوردنا نقد محمد عبده لموقفها من العام والعقل والمدنية الحديثة .. وهو لا يعنى الاكتفاء بالدين والتراث الدينى والعلوم والشرعية فى النهضة والاصلاح، ذلك أن الاصلاح الدينى شئ، والاصلاح المدنى والتجدد الحضارى شئ آخر - وان لم يكن بينهما انفصال - والاستعانة بالدين فى تحريك الأمة الى التجدد الحضارى، مستعينه ببعض الأصول الثابتة فى حضارتها لا يعنى ان التجدد الحضارى هو ذات الاصلاح الدينى .. وبعبارة الامام محمد عبده : « لورزق الله المسلمين حاكما يعرف

(١٩٤) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) ج ٣ ص ٢٣١.

دينه و يأخذهم بأحكامه، لرأيهم قد نهضوا، والقرآن الكريم في إحدى
اليدين، وما قرروا أولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى، ذلك
لآخرتهم، وهذا لدنياهم، ولساروا يزاحمون الأوروبيين فيزحمونهم! (١٩٥)
.. فلكل مكان، والعلاقات لا تعنى طمس الفروق، أو تحويل الوجهة من
الأمم الى الخلف، أو جعل الوسائل غايات ..

٤ - وكما خالف هذا التيار السلفية غير العقلانية وغير المستنيرة، تلك التي
وقفت عند ظواهر النصوص، سواء أكانت نصوص العصر الأول، أو العصور
« المملوكية - العثمانية » ..

اختلف كذلك وخالف التيار الذي انهر بحضارة الغرب، فدعا الى
أن نبدأ من حيث انتهى الغرب، وأن نسلك نفس الوسائل والوسائط التي
سلكها الى ذات الأهداف والغايات التي استهدفها .. والأفغانى يوجه
الانتقاد الى هذا التيار، فيقول في منهاج (العروة الوثقى) : « .. انه لا
ضرورة، في ايجاد المنع، الى اجتماع الوسائط وسلك المسالك التي جمعها
وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا ملجىء للشرقى في بدايته أن
يقف موقف الأوروبي في نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك، وفيما مضى
أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا أعجزها
وأعوزها! » .. (١٩٦)

والأفغانى يرى في هذا التيار الغربى، أو « المستغرب »، الذى فقد
ابناؤه الثقة بالذات والأصالة والأمل فى بناء حضارى متميز، والذين
استحكمت منهم « عقدة الأوروبي »، يرى فيهم خطرا يفتح للاستعمار فى
حياتنا ثغرات، فيقول : « ان أشد وطأة على الشرق، وأدعى الى تهجم أولى

(١٩٥) المصدر السابق. ج ٣ ص ٢٥١. ٢٥٢.

(١٩٦) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٥٣٣.

المطامع من الغربيين، وتذليل الصعاب لهم، وتثبيت أقدامهم، هم أولئك الناشئة، الذين بمجرد تعلمهم لغة القوم والتأدب بأصقل آدابهم، يعتقدون أن كل الكمالات إنما هو فيها تعلمونه من اللسان، على بساطته، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات، وقراءة سير وسير من قطع مراحل من الغربيين في سبيل الأخذ في ترقيه أمته، بدون أن يسبروا من مذلك غورا، أو يفهموا لتدرجهم معنى ويعتقد الناشئ الشرقى أن كل الرذائل ودواعى الحطة ومقاومات التقدم إنما هى فى قومه، فيجربى مع تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية، ومن كل مشروع وطنى تتصدى له فئة من قومه أو أهل بلدة، ويأنف من أى عمل ما لم يشارك فيه الأجنبى!)» (١٩٧)

فالاغراض هنا ليس على «سير غور» أسرار التقدم الغربى، للاستفادة والتمثل الطبعى، فن قبل صنع العرب ذلك، يوم أخذوا، من موقع الوثائق والقادر، عن الفرس والهنود واليونان كى يصنعوا الذاتى والجديد والمتميز... وإنما الاعتراض على «تقليد المنبر»، الذى أفقده «الانبهار» الثقة بالذات والقوم والتراث والتاريخ!..

وينسب الأفغانى الى أن مثل هذا النهج، وهونج الضعفاء، سيجعل هؤلاء الضعفاء يتخذون من «نهايات الغرب» «بدايات لنهضتهم» وفى ذلك خطر عظيم.. فمسيره الغرب من نقطة بدئه فى الحضارة والصناعة حتى الموقع الذى بلغه الآن قد أكسبته مرانا وقوة وجعلته عملاقا فى الدروب والمجالات التى تطور فيها، فاذا تعلقنا، ونحن الضعاف، بنهاياته وثمراته، كنا أقصر منه قامه، وأضعف منه بنية، وأعجز منه فى المباراة، ومن هنا يأتى خطر الضم والالحاق، أن لم يكن فى الشكل والاحتلال العسكرى، فى الاقتصاد والأسواق!.. وعلى سبيل المثال، فإن التعلق «بسلع» الغرب الصناعى

(١٩٧) المصدر السابق . ص ١٩٠.

وأدواته، ستجعلنا نغير « شكل » حياتنا بمصنوعات ليست من إنتاجنا، الأمر الذى سيدمر حرفتنا بدلا من تطويرها، كما صنع الغرب مع حرفه فى البدايات، كما أن بلادنا ستقف عند انتاج المواد الخام، التى تصدرها رخيصة للغرب الصناعى، ثم تستوردها مصنوعات غالية الثمن بعد وقت قصير .. كل ذلك لأننا نبدأ، بداية «الضعيف المقلد»، من حيث انتهى الغرب القوى، ولا نسلك السبيل الطبيعى للتطور، سبيل من يحذق ويتقن علوم الحضارة قبل حذقه للأسماء والاستخدامات الخاصة بالسلع والأدوات التى أثمرتها هذه الحضارة فى بيئة أخرى ومناخ غريب!.

وعلى هذه القضية الهامة يضرب الأفغانى المثل بما صنعه العثمانيون من تنظيمات واصلاحات أخذوها عن الغرب - وبما صنعه مصر محمد على عندما نقلت أشكالاً وأدوات ووسائل، فبدأت من حيث انتهى الأوروبيون .. والمثل الذى يضربه خاص بالتعليم .. يقول : «لقد شيد العثمانيون عددا من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف من شبانهم الى البلاد الغربية ليحملوا اليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب، وكل ما يسمونه «تمدنا» . وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانسانى!.. فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟! ... نعم، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية - (القومية) - وما شاكلها .. وسموا أنفسهم زعماء الحرية .. ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المباني والمساكن، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية، وسائر الماعون، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية، وعدوها من مفاخرهم .. فنفخوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم! .. وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم .. وهذا جدع لأتف الأمة، يشوه

وجهها، ويخط بشأنها!.. لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة،
المنتحلين اطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها..
وطلائع جيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهّدون لهم السبيل،
 ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم!...» (١٩٨)

فالتمدن : نبت طبيعي، ونمو طبيعي، وليس نقلا وتقليدا بحسب
المقلد الضعيف أنه باقتناء ثمراته قد بلغ منه الغاية والمراد.. وهو ان سلك
هذا السبيل دمر امكانياته الضعيفة، وربط واقعه بعجلة الأقوياء، ربط
تبعية واستغلال .. وبذلك يصبح التقليد والمقلدون ثغرات لنفوذ الأعداء
«وطلائع جيوش الغالبين وأرباب الغارات!»..

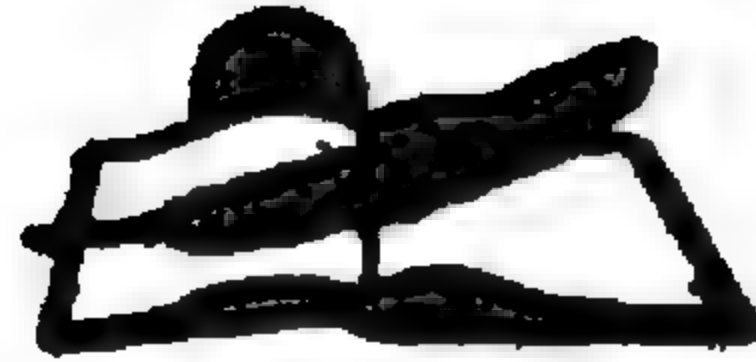
فلا سلفيه الحالمين بالعودة الى العصور الخالية، وصب المجتمع في
قوالبها، سواء منها قوالب العصر الأول أو عصور الانحطاط .. ولا قسر الأمة
العربية، ذات الحضارة المتميزة، على ارتداء عباءة الحضارة الأوروبية -
وبعبارة الامام محمد عبده : «لقد خالفت بدعوتي راى الفئتين اللتين
يتركب منها جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب
فنون العصر ومن هو في ناحيتهم!» (١٩٩) لأن في تقليد الغرب، فضلا عن
شوائبه وعيوبه، فيه ما هو أخطر وأعظم ... فيه تحقيق الحلم القديم لأعداء
الشرق، قدامى ومحدثين، وعلى امتداد القرون والحلقات والموجات، في هذا
الصراع الحضارى القديم.. حلمهم في حسم هذا الصراع لصالحهم، باحتواء
الشرق العربى حضاريا .. وأيضا فى العودة الى القديم، والجمود عند
صياغاته الفكرية ما فتح و يفتح للغرب الاستعمارى تلك الثغرة التى
استعمر مهتا البلاد، وحاول ويحاول احتواها حضاريا!..

(١٩٨) المصدر السابق ص ١٩٥ - ١٩٧.

(١٩٩) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) ج ٢ ص ٣١٨.

وما دام القانون الذى حكم صراعات هذه الأمة ضد أعدائها قائما وفاعلا، فلا سبيل الى استكانتها، ولا أمل فى انداجها وتبعتها لهؤلاء الأعداء .. وتلك هى مهمة التجديد، التى يبعث فى الأمة روح المقاومة للخطر، ويصقل لها أمضى أسلحتها، ويستنهض فيها القسامات الأصلية والثابتة والصالحة للعطاء .. وذلك كى تنهض فتصارع خصومها، وتقهر ما يفرضون عليها من تحديات..

وهذا ما صنعه، أو على الأقل وضع أسسه التيار السلفى العقلانى المستنير، الذى كان أبرز تيارات التجديد فى حركة اليقظة العربية فى العصر الحديث.



والخلاصة في كلمات

والآن .. وبعد هذه الرحلة التي صحبنا فيها امتنا العربية على درب تطورها الحضارى، وفي مسيرتها عبر التاريخ .. وبعد أن رأينا:

• كيف اندفعت بالفتوحات الكبرى، ذات الطابع التحررى والتحريرى، لتجابه وتقهر التحدى الذى ضيق عليها الخناق، حتى لقد كاد أن يحوطها ويزهق منها الأنفاس .. فحررت أرضها، وفتحت فى ثمانين عاما أكثر مما فتح الرومان فى ثمانية قرون !.. وتولت زمام قيادة الشرق عندما عجز عن ذلك الفرس الساسانيون.

• وكيف صاغت، مبكرا، شخصيتها القومية، وقدمت، منذ قرون، تلك الصياغات، الفكرية لقومية عربية، على أسس حضارية غير عرقية .. فجابهت بها تيارات التعصب الشعبوية والعصبة العربية الجاهلية..

• وكيف صاغت فلسفتها، التى جاءت ثمرة لابداع تيارها العقلانى..، وجابهت بها خصومها الفكرين الذين نازلوها وتحذوا عقيدتها بمنطق أرسطو وفلسفة اليونان..

• وكيف أفرزت مؤسسات الفروسية العربية الاسلامية .. فجابهت بها وهزمت أعجب وأعنف وأطول موجات الغزو التى شهدتها العصور الوسطى .. تلك التى عرفت بحرب الصليب ..

• وأخيرا .. كيف انتفضت مستيقظة فى عصرها الحديث، متسلحة بالتجديد، والعقلانية، والاستتارة، والأصالة .. كى تدفع الخطر «القديم - الجديد» .. خطر الجمود الذى يفتح للعدو الثغرات .. وخطر الذوبان فى

الحضارة الغربية، الذى يريد أن ينهى ذلك الصراع الحضارى التاريخى لصالح أعداء هذه الأمة التقليديين .

بعد أن صحبنا أمتنا على هذا الدرب الذى واجهت من فوقه تلك التحديات .. لا نعتقد أن خلاصة لتلك الرحلة تستدعى أكثر من كلمات، هى ذات القانون الذى حكم صراع هذه الأمة ضد أعدائها، عبر التاريخ الطويل لهذا الصراع..

انه صراع قديم .. وطويل .. وعنيف .. ولا يمكن لعين الباحث أن تخطئ طابعه الحضارى .. وفى كل المنعطقات الخطرة التى تصاعدت فيها التحديدات أمام هذه الأمة، كانت، دائماً وابدأ، تستجمع امكانياتها، وتحشد قواها، وتجدد ذاتها، وسرعان ما تتقدم لمجابهة التحدى بخير وبأقوى ما فى ترسانه أسلحتها وقدراتها، وبما تكتشفه وتحذقه من أسرار تفوق الأعداء.

فأمام الصراع الطويل والقاسى، وتجاه التحدى .. كان التجديد مع الأصالة .. هو طوق النجاة لهذه الأمة التى صارعت من الأعداء وصرعت من الخصوم أكثر مما حدث لأمة أخرى طوال تاريخ الانسانية الطويل.. وهذا هو سر بقائها، دون الكثير من أعدائها! .. وسر استعصائها على الذوبان فى الأعداء، الذين ذاب الأكثرون منهم فيها! .. وسر احتفاظها حتى اليوم، بامكانيات العودة مرة أخرى الى الساحة الانسانية : أمة كبرى، ذات حضارة متميزة، وامكانيات حقيقية وغنية للاسهام الحضارى خارج الحدود!..

تلك هى الخلاصة .. خلاصة قصة : العرب .. والتحدى !..

المصادر

القرآن الكريم .

كتب السنة التسعة :

(البخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى، وأبو داود، والدرامى،
وابن ماجه، وابن حنبل، والموطأ)

آدم متر:

(الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى) ترجمة: د. محمد عبد
المهادى أبورينة . طبعت بيروت سنة ١٩٦٧م.

ابن ابى الحديد :

(شرح نهج البلاغة) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م.

ابن الأثير:

(الكامل فى التاريخ).

(التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م.

ابن اياس :

(بدائع الزهور) طبعة بولاق .

ابن باديس :

(كتاب آثار ابن باديس) اعداد وتصنيف عمار طالبى . طبعة

الجزائر سنة ١٩٦٨م.

ابن تغرى بردى :

(النجوم الزاهرة) طبعة القاهرة.

ابن خلدون :

(المقدمة) طبعه القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ.

ابن رشد :

(تهافت التهافت) طبعه القاهرة سنة ١٩٠٣ م.

(فصل المقال) دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة

١٩٧٢ م

ابن عبد ربه :

(العقد الفريد) ططبعة لجنة التأليف والترجمة . القاهرة سنة

١٩٧١ م.

ابن عبد الوهاب :

(مجموعة التوحيد) طبعة المكتبة السلفية . القاهرة.

ابن عساكر :

(تهذيب تاريخ ابن عساكر) طبعة دمشق.

ابن منظور :

(لسان العرب) طبعة القاهرة.

ابن النديم :

(الفهرست) طبعة ليزنخ سنة ١٨٧١ م.

ابوشامه :

(الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحيه) طبعة القاهرة

سنة ١٢٨٧ هـ.

أبويوسف :

(كتاب الخراج) طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢هـ .

أحمد مختار عمر (دكتور) :

(تاريخ اللغة العربية في مصر) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

ارنولد (سير توماس) و (الدعوة الى الاسلام) ترجمة :

د . حسن ابراهيم حسن، د . عبد المجيد عابدين، اسماعيل
النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

أسامة بن منقذ :

(الاعتبار) تحقيق : فيليب حتى . طبعة برنستون سنة ١٩٣٠م.

الأصفهاني :

(الأغاني) طبعة دار الشعب . القاهرة.

الأفغانى (جمال الدين) : (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د . محمد
عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

(العروة الوثقى) «مجموعة» طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧م.

مجلة (المورد) العراقية - العدد الاول - المجلد السابع سنة ١٩٧٨م.

أوليرى :

(مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب) ترجمة : د . تمام حسان.

طبعة الانجلو . القاهرة .

البيضاوى :

(تفسير البيضاوى) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦م.

التهانوى :

(كشف اصطلاحات الفنون) طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٣ .

الجاحظ :

(الحيوان) تحقيق : عبدالسلام هارون . طبعة القاهرة الثانية .

(البيان والتبيين) طبعة بيروت سنة ١٩٦٨ م .

(رسائل الجاحظ) تحقيق : عبدالسلام هارون . طبعة القاهرة سنة

١٩٦٤ م .

جب : (دراسات في حضارة الاسلام) ترجمة : د. احسان عباس، د. محمد

نجم، د. محمود زايد . طبعة بيروت سنة ١٩٦٤ م .

الجبرتي :

(عجائب الآثار) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

جيوم :

(الفلسفة وعلم الكلام) منشور ضمن مجموعة عنوانها (تراث

الاسلام) ترجمة : جرجس فتح الله . طبعه بيروت سنة ١٩٧٢ م .

حاجي خليفة :

(كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) طبعة استانبول سنة

١٩٤١ م .

حتى (فيليب) : (تاريخ العرب) طبعة بيروت سنة ١٩٥٣ م .

خشيم (علي فهمي - دكتور) :

(الجبائيان : أبو علي وأبو هاشم) طبعة ليبيا سنة ١٩٦٨ م .

خير الدين التونسي :

(أقوم المسالك) - المقدمة - تحقيق: د. المنصف الشنوفي . طبعة
تونس سنة ١٩٧٢م.

الدجاني : (احمد صدقي - دكتور) :

(الحركة السنوسية) طبعة بيروت. سنة ١٩٦٧م.

الدجيلي (عبد الصاحب) :

(الشعوبية) طبعة النجف سنة ١٩٦٠م.

الزركلي (خير الدين) :

(الأعلام) طبعة بيروت، الثالثة.

الصادق المهدي :

(يسألونك عن المهدية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.

الطبري :

(التاريخ) طبعة دار المعارف . القاهرة .

الطهطاوي (رفاعة) :

(الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة

بيروت. سنة ١٩٧٣م.

عبد الجبار بن أحمد (قاضي القضاة):

(المغني في أبواب التوحيد والعدل) طبعة القاهرة.

(فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) تحقيق: فؤاد سيد. طبعة تونس

سنة ١٩٧٢م.

عبدالكريم الخطيب :

(الدعوة الوهابية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤م.

عبدالمجيد عابدين (دكتور) :

(البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب) للمقرئ -

الملحق - طبعة القاهرة سنة ١٩٦١م.

الغزالي (أبو حامد) :

(الاقتصاد في الاعتقاد) طبعة صبيح - القاهرة .

(احياء علوم الدين) طبعة دار الشعب - القاهرة .

(تهافت الفلاسفة) طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م.

القرطبي :

(الجامع لأحكام القرآن) طبعة دار الكتب المصرية.

الكواكبي (عبد الرحمن) :

(الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د. محمد . عمارة . طبعة

بيروت سنة ١٩٧٥م.

لوثرروب ستودارد :

(حاضر العالم الاسلامي) ترجمة : عجاج نوهض .. وتعليقات :

شكيب ارسلان. طبعة بيروت سنة ١٩٧١م.

الماوردي (أبو الحسن) :

(أدب الدنيا والدين) تحقيق : مصطفى السقا. طبعة القاهرة سنة

١٩٧٣م.

(أدب القاضي) تحقيق : محمد هلال السرحان. طبعة بغداد سنة

١٩٧١م.

المبرد :

(الكامل) - باب الخوارج - طبعة دمشق سنة ١٩٧٢م.

- مجمع اللغة العربية (القاهرة) :
- (معجم ألفاظ القرآن الكريم) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.
- محمد ابراهيم ابوسليم (دكتور) :
- (الحركة الفكرية في المهديّة) طبعة الخرطوم سنة ١٩٧٠م.
- محمد حميد الله الحيدرآبادي :
- (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة)، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.
- محمد عبده (الاستاذ الامام) :
- (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق: د. محمد رعمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.
- محمد عمارة (دكتور) :
- (فجر اليقظة القومية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.
- (العروبة في العصر الحديث) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.
- (الأمة العربية وقضية التوحيد) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.
- (نظرة جديدة الى التراث) طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.
- (الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية) طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م.
- (مسلمون ثوار) طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.
- (معارك العرب ضد الغزاة) طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.
- (المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد) طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م.
- (بناء المساجد و بناء الأهرامات) دراسة في مجلة (قضايا عربية) بيروت - أغسطس، سبتمبر سنة ١٩٧٧م.
- محمد فؤاد شكرى (دكتور) :
- (مصر والسودان) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م.

- محمد فؤاد عبدالباقي :
(المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) طبعة دار الشعب
القاهرة.
- محمود قاسم (دكتور) :
(الامام ابن باديس) طبعة دار المعارف - القاهرة .
- مختار المصري (باشا) :
(التوقيعات الالهامية) طبعة بولاق.
- المسعودي :
(مروج الذهب) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.
- المقريزي :
(الخطط) طبعة دار التحرير . القاهرة .
(السلوك) طبعة دار الكتب المصرية .
- مكرم عبيد (باشا) :
مجلة (الهلal) ابريل سنة ١٩٣٩م.
- مكسيموس مونروند :
(تاريخ الحروب المقدسة في الشرق) ترجمة : مكسيموس مظلوم .
طبعة القدس سنة ١٨٦٥م.
- المنجي الشملي :
(خير الدين باشا) طبعة تونس سنة ١٩٧٣م.
- المهدي (محمد أحمد) :
(منشورات الهيئة) تحقيق : د . محمد ابراهيم أبو سليم . طبعة
بيروت سنة ١٩٦٩م.
- التويري :
(نهاية الأرب) طبعة دار الكتب المصرية.

هانتو (جبريل) :

(الاسلام والرد على منتقليه) - مقالات منشورة ضمن هذا

الكتاب - طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.

ونسك (أ. ي) :

(المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى) طبعة ليدن (١٩٣٦ -

١٩٦٩م)

المحتوى

تمهيد	٥
الفصل الأول : بالفتوحات واجهوا محاولات الاحتواء	٢٣
الفصل الثانى : الشخصية القومية تواجه العصبية والتعصب	٥١
الفصل الثالث : بالعقل انتصرت العروبة وانتشر الاسلام	٧٧
الفصل الرابع : الفروسية العربية تواجه الفرسان الصليبيين	١٢٣
الفصل الخامس : العرب يستيقظون ويواجهون : التخلف العثمانى .	١٥٣
والتقدم الأوروبى ..	

١ - السنوسية : والتحليات الثلاثة ..

٢ - المهدية : الشعب يقاوم بالأسطورة ..

٣ - وتيار : فلنبداً من حيث انتهت أوربا ..

٤ - وتيار : السلفية - العقلانية - المستنيرة .

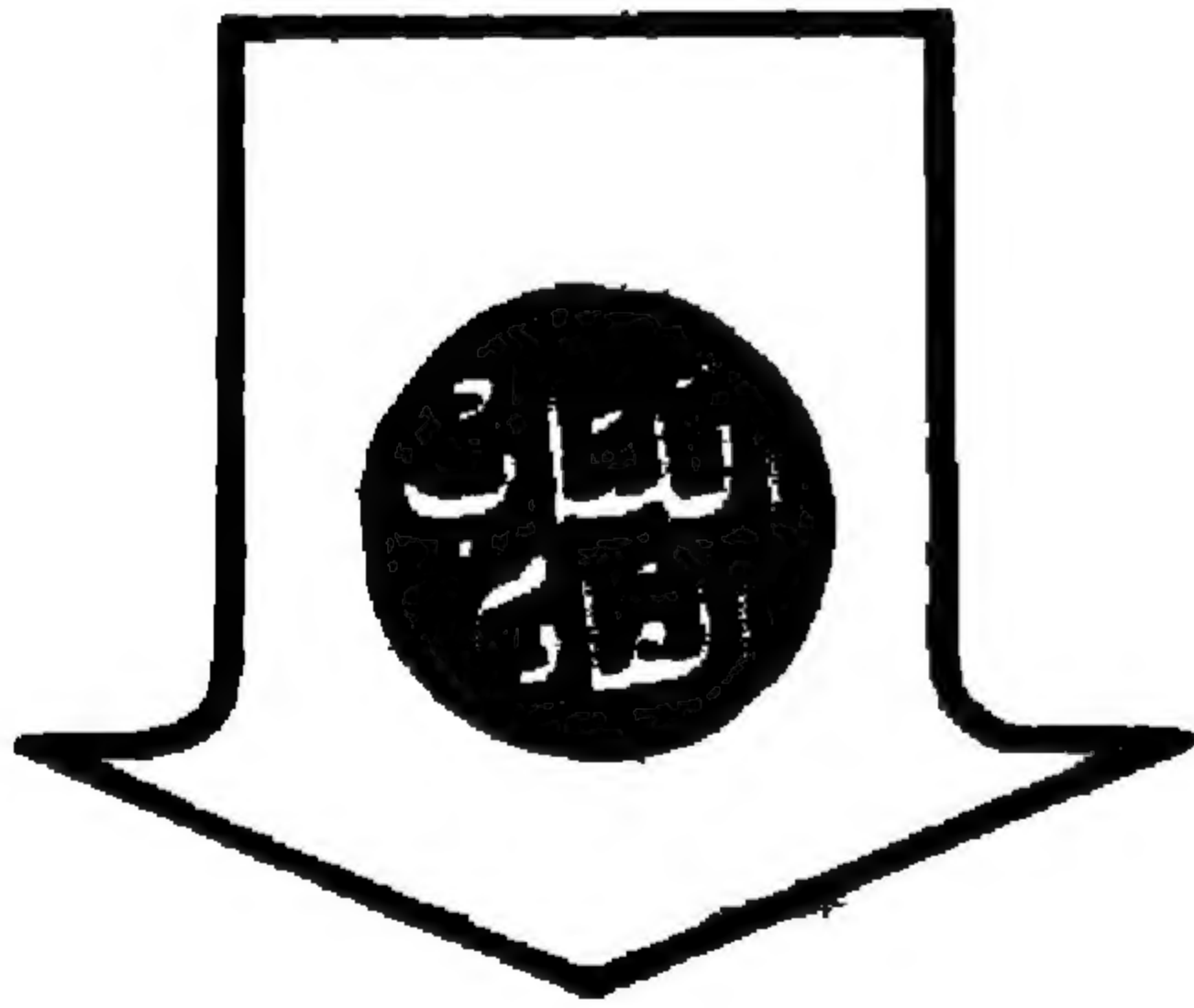
والخلاصة فى كلمات ٣٠٧

المصادر ٣٠٩

المؤلف في سطور

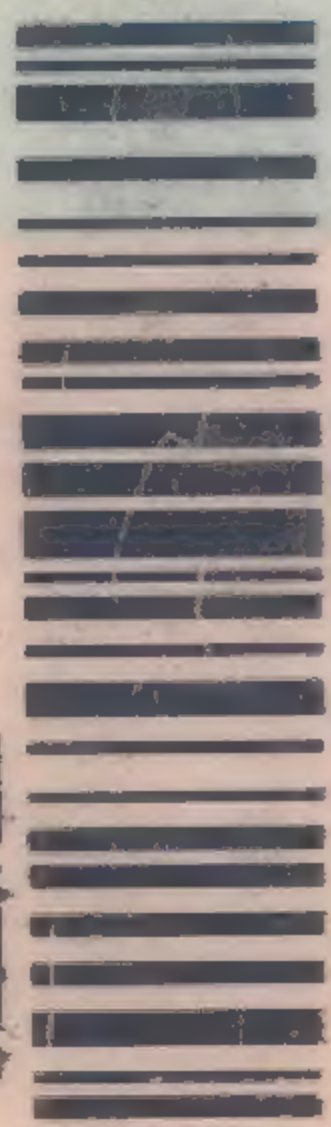
د . محمد عماره

- ولد في مصر عام ١٩٣١.
- تخرج في كلية دارالعلوم ومنها نال اجازتى الماجستير والدكتوراه.
- قدم للمكتبة العربية قرابة اربعين كتابا بين تأليف ودراسة وتحقيق منها: فجر اليقظة القومية، العروبة في العصر الحديث، الامة العربية وقضية التوحيد، اسرائيل هل هي سامية؟، الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية، المعتزلة وأصول الحكم. نظره جديدة للتراث، عندما اصبح مصر عربية، معارك العرب ضد الغزاة، الاسلام والسلطة الدينية. دراسة وتحقيق الاعمال الكاملة للافغانى ومحمد عبده وعلى مبارك والطهطاوى وقاسم أمين والكواكبي..
- ترجم عدد من أعماله للغاب الانجليزية والاسبانية والروسية .
- فى عام ١٩٧٢ حصل على جائزة جمعية اصدقاء الكتاب، بلبنان، عن كتابه «دراسة للاعمال الكاملة لمحمد عبده» وفى عام ١٩٧٦ حصل على جائزة الدولة التشجيعية، بمصر، عن كتابه «دراسة الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى».



العَدَالَةُ وَالْحُرِّيَّةُ
فِي
فَجْرِ النَهْضَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْحَدِيثَةِ
تَأَلِيفُ
عَسْرَتِ قُرْنِي

Bibliotheca Alexandrina



0210269

٢٥٠
فلسفًا

مطابع اليقظة - الكويت